المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة طيبة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

عنوان الرسالة

التقليد والتجديد في شعر أبي العلاء المعري

(دراسة وصفية تحليلية)

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة (الماجستير)
في تخصص (الأدب والبلاغة والنقد)

إعداد

خالد بن أسيمر البلوي

إشراف الدكتور

مختار الفجاري

أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

قرار توصية اللجنة

☐ قبول الرسالة والتوصية بمنح الدرجة .

☐ قبول الرسالة مع إجراء بعض التعديلات ، دون مناقشتها مرة أخرى .

☐ استكمال أوجه النقص في الرسالة ، وإعادة مناقشتها .

☐ عدم قبول الرسالة .

تعقيبات أخرى :

.....

.....

.....

التوقيعات

مقرر اللجنة عضو عضو عضو

الاسم : ....

التوقيع : ....

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى ،،،

زوجتي

وأحبائي الصغار ((سارة والبراء))

أهديهم ثمار نتاجي الأدبي اعترافًا وتقديرًا لأفضالهم .

شكر وتقدير

أتوجه إلى الله العلي القدير بالشكر والثناء على ما من به عَلَيَّ من إتمام البحث وتذليل سبله فله الحمد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا .

كما أشكر كل من له فضل علي بادئا بوالدي- رحمه الله - ووالدتي - حفظها الله - وزوجي وأبنائي وإخوتي وأرحامي الذين كان لهم دور كبير في تهيئة سبل البحث وتشجيعي على المضي فيه .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى من أرهف حسي بأبي العلاء المعري أستاذي الدكتور مختار الفجاري تقديرا لأستاذيته وعلمه وعرفانا بفضله وتحية ووفاء من تلميذ مخلص إلى أستاذ عظيم .

كما أشكر كل من أعانني بمشورة أو بإسداء رأي أو إعارة كتاب أو بدعوة صادقة .

المستخلص

عنوان الرسالة : التقليد والتجديد في شعر أبي العلاء المعري (دراسة وصفية تحليلية) .

اسم الباحث : خالد أسيمر البلوي .

المستخلص : أبو العلاء المعري علم من أعلام العربية والفكر الإنساني ، عَبَّرَ المعري عن شخصية متميزة فريدة في الأدب والفكر العربي والإسلامي شكلت انقلابا على الثقافة السائدة في عصره والتقاليد التي أرساها من سبقوه .

ألف المعري وصنف عددا كثيرا في الشعر ، واعتمدنا في هذا البحث على ديوانيه : (سقط الزند) و(لزوم ما لا يلزم) وجعلناهما مصدرين أساسيين لبحثنا ، وأما عن بقية أشعار المعري فإنها عدمت وفقدت ولم يصل إلينا غيرهما .

إنَّ التحولات الكثيرة التي غيرت المجتمع كانت على أساس الصراع بين المقلدين والمجددين ولذلك يهدف البحث إلى تحقيق هدفين أساسيين : الأول منهجي حيث أقمنا منهج دراستنا على منطق ثنائي هو ثنائية الغرض والمعنى الجزئي ، والثاني إبراز دور التجديد في الحياة العباسية واكتمال نموه وتطوره في عهد المعري ، وإبراز خصائص الأسلوب عند المعري وأهمية دراسة الأشكال الشعرية في الدراسات الأدبية فهي الوجه المتمم لدراسةالمضامين ، وإبراز جرأة المعري في مهاجمة ما يراه فاسدا ، وصرفه الشعر إلى مواضيع إنسانية أخلاقية . وثقافته الواسعة وبعد نظره وشاعريته المميزة هي التي تعطي بحثنا أهميته وموضوعنا مشروعيته .

ومن أبرز وجوه التجديد في شعر المعري هو تقريب المسافة بين الشعر والفلسفة ، ويبرز ذلك تحديدا فيما عددناه نقدا للعقل العربي . وتعود أسبقية نقد العقل العربي لأبي العلاء المعري حيث نقد أسس الثقافة العربية نقدا يصل إلى الدعوة إلى مراجعة العقل العربي . والمعري رائد في مجال عنونة الأثر الشعري .

إن شعر المعري على الرغم من كل ما حظي به من اهتمام المحدثين مازال بحاجة إلى تحقيق عملي دقيق ، وإلى دراسات كثيرة ومتجددة في مختلف النواحي الفنية للكشف عن جوانب متنوعة من الإبداع الفني .

Abstract

Title: Imitation and Innovation in Abu AL-Ala'aAL-MarriPoetry(Descriptive and Analytical Study).
Researcher' Name : KhaledOsaimer Al-Balawi.

Abou Al Ala'a AL Marri is one of the most well-known Arab writers and human thought . He expressed his distinct unique personality in his literature and in Arabic Islamicthought, which has formed a coup against the dominant culture of his era and against the traditions which were established by his predecessors.

AL Marri has written and classified many books in poetry .In my research , I depended on his anthologies (Saqat al Zand) and (Lozoom ma la Yalzam) to be as main sources for my research . These are the only existed anthologies; the others disappeared and were lost.

The massive transformations that changed the society was the basis of the conflict between the imitators and innovators .Therefore, the research aims to achieve two essential objectives: the first is methodical as we built the study method on a dual logic which is purpose and partial meaning the second is to highlight the role of innovation in Al Abasyah life and innovation growth and development in the era of AL Marri. In addition, the research aims to bring out the features of AL Marri`s style and the importance of studying poetic forms in literary studies as it is the complementary shape of studying contents. The research also shows Al Marri courage in attacking what he thinks as a corrupt, and devoting his poetry to focus on human morality issues. Moreover, the wide culture, the foresight

and the distinctive poetry of the AL Marri have given importance and legitimacy to the research topic.

The most significant Innovation in Al Marri poetry is bridging the distance between poetry and philosophy and that can be shown obviously in what we regard it criticizing the Arab mind. The Precedence of criticizing the Arab mind goes back to Abu AlMarri as he criticized the foundations of Arab culture. His criticism was a cause for reconsidering the Arab mind.. AL Marri is a leader in addressing the Poetic effect. Despite all the interest which was given to Al-Marri literary works, his poetry still needs more intensive investigation.. It also in needs more various new studies in all technical aspects to discover all the types of the artistic creativity .

ملخص البحث

أبو العلاء المعري مفخرة من مفاخر الثقافة العربية وشاعر عظيم من أساطين الشعر وفرسانه الكبار . أصيب بالجدري وهو لم يتجاوز الرابعة من عمره فكف بصره ، ولم تمنعه عاهته عن الدرس فدرس العلوم من فقه ونحو وأدب ، وجعل يتابع بنهم كتب الأدب القديمة من أدبية وتاريخية ، وقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة . يُعَدُّ المعري الضمير الديني والاجتماعي والسياسي لحقبة زمانية ومكانية في تاريخنا العربي والإسلامي ، خرج من بطون العمى والعزلة ومن ظلام محبس قدري وآخر اختياري لينطق صوتا خلده اقتدار الجمال في بحر الشعر . ترك المعري تراثا عظيما في الشعر والأدب والفلسفة ظل موردًا لا ينضب للدَّارسين والباحثين على مر العصور .

وقد قمنا في هذه الدراسة بما نستطيع القيام به من جهد ولم نبخل بذكر كل ما لمحنا في شعر أبي العلاء المعري من ظواهر شكليّة ومضمونيّة ، ووقفنا عند جزئياته ودقائقه التي رأينا فيها نَفْعًا لهذا البحث وخدمة لخطته التي جاءت في مقدمة وفصول ثلاثة بمباحث ستة وخاتمة .

أما المقدمة فتحدثنا فيها عن مشكلة البحث ، وأهدافه ، وأهمية الموضوع ، والدراسات السابقة ، ومنهج البحث ، ومصادره ، وأقسامه ، وتخطيطه .

وأما الفصل الأول فقد تحدثنا فيه عن المعري شاعرًا ، واشتمل الفصل على حياته وآثاره ومنزلته الشعرية . وإن عزلة أبي العلاء المعري وإن لم تَسْلَمْ له على النحو الذي أراد إلا أنه التزم بها من ناحيته فلم يَبْرَحْ منزله حتى مات وكان الناس هم الذين اقتحموا عليه هذه العزلة فَشَغَلُوهُ وشُغِلُوا به ، وقد صَمَدَ المعري للتجربة حتى آخر العمر على قسوة مما كابد من أشواق بشريته ، وما لَقِيَ من افتراء خصومه وعنت مجادليه ، فرفض الحياة ، ومات قبل

مماته ، ولكنه فَرَضَ نفسه على الحياة كما لم يَفْرِضْهَا أديب عربي سواه ، وخاض معركته من وراء قبره ضد ضلال المقاييس ، واختلال القيم ، ومضى مقطوع النَّسْلِ ، مُجْتَثَّ الفرع ، لكنه ترك تراثه فعاش كما لم يعش ذوو الكثرة والعدد من البنين والأحفاد . وأبو العلاء المعري شاعر مفكر سار على خَطٍّ فكري وفلسفي وحياتي لم يتبدل أو يتغير حتى في التطبيق العملي وفي لون المادة الأدبية التي قدمها لنا ، ولقد أعطانا المعري من كتبه وأشعاره الكثير ، فقد آمن بفلسفة خاصة ، وعبر عنها في قصائده ، والتزم بها في حياته ، فَتَحَوَّلَتْ الكلمة إلى فعل ، وتحول الرأي عنده إلى تطبيق واقعي اِرْتَآه وسار عليه ، وقد جاءت آراؤه شاملة لجوانب الحياة ، فلم تقتصر على جانب واحد معين فشملت الكون ، ومظاهره ، وميادينه . وأراد المعري أن يُصْلِحَ ما استطاع إليه سبيلا ، فانطلق بالأدب من النطاق الإقليمي والقومي إلى رحاب الأدب العالمي ، ونقل الشعر نَقْلَةً يجب الوقوف عندها ، حيث جاء شعره تعبيرًا عن المجتمع والطبيعة ونواميسها متجاوزًا حدود الزمان والمكان . وقد أتى المعري بما لم تستطع الأوائل أن تأتي به من إحصاء اللغة ، وتدوينها في كلام نافع ممتع ، ومن إتقان لعلومها وبراعة في النحو والصرف والعروض ، حافظًا لأكثر ما أنشأ الشعراء ، وكتب الكتاب في العصور الأدبية التي سبقته ، وبهذا كان المعري فَذًّا بين أدباء العرب وشعرائهم لم يجتمع لأحد من الذين سبقوه أو جاؤوا بعده مثل ما اجتمع له من علم وسعة معرفة وعمق تجربة .

وأما الفصل الثاني فتحدثنا فيه عن مظاهر التقليد في شعر المعري ، وأكثر قصائد ديوان (سقط الزند) تنهج النهج التقليدي للقصيدة العربية ، ونجده جاريًا على سنن الأقدمين من الوقوف على الأطلال ، ووصف المطايا والرحلة ، ورأيناه يَتَشَدَّدُ في محاكاة الشعراء الجاهليين فيُؤْثِرُ الألفاظ البدوية الجزلة ، والمعاني البدوية الفخمة ، واتخذ من الشعر العربي القديم مصدرًا يستمد منه صوره ، فالتراث الشعري القديم من أهم مصادر الصورة عنده ، ولم يُحْدِثْ المعري أوزانًا جديدة في الشعر ، وأنه آثر في الأغلب ما آثره شعراء العربية من سابقيه من أوزان ، ودَرَجَ على الطريقة التي دَرَجَ عليها الشعراء الجاهليون فنظم في الموضوعات

التقليدية . ويُعَدُّ ديوان (سقط الزند) من الناحية الفنية امتدادًا لمذهب أبي تمام الذي كان أبو العلاء المعري مفتونًا به في صدر حياته الفنية فتنة شديدة ، وفي هذه المرحلة المبكرة من حياته مضى في شعره على مذهب أبي تمام الفني ، ودار معه في فلكه الموضوعي ، واتخذ من طريقته الفنية مثلا يحتذيه ويحاول تقليده ، وأبو تمام والبحتري والمتنبي كانوا نماذج المعري الْمُفَضَّلِين وكانت آثارهم واضحة في (سقط الزند) ، والمعري يُعَدُّ التطور الناضج لمنهج هؤلاء الشعراء ، ولم يكن هذا الاتباع وهذه الأثار تقليدًا سَطْحِيًّا ، فقصائد المعري تنم عن مقدرته اللغوية وتمكنه منها ثم أسلوبه في صياغتها واضح فيها ، إلا أن دارسه يُحِسُّ بآثار هؤلاء الشعراء الثلاثة في هيكل القصيدة عنده وفي بنائها ولغتها . ومال المعري في شعره في ديوان (لزوم ما لا يلزم) إلى استخدام الألفاظ البدوية فَحِرْصُهُ على بداوة اللفظ تجاوزت(سقط الزند) إلى (اللزوميات) ، والغالب على أسلوب المعري في ديوانه (لزوم مالا يلزم) المتانة ، وقوة الأسر ، والجزالة ، واتخذ المعري الشعر العربي القديم مصدرًا يستمد منه صوره ، فالتراث الشعري من أهم مصادر الصورة عنده ، إذ إن ثقافة المعري وسعة اطلاعه على مختلف الفنون الأدبية للسابقين له في تاريخ الأدب العربي كان لها الدور في خَلْقِ إمكانياته وقدراته ومنحه المعلومات المرئية .

وأما الفصل الثالث فتحدثنا فيه عن مظاهر التجديد في شعر المعري ، فالمعري شاعر مثقف قد أَثَّرَتْ ثقافته في شعره ، فقد كان العصر العباسي عصر تَطَوُّرٍ وازدهار ازدهرت فيه العلوم الدينية ، كما نشطت رواية الشعر ، وتطورت العلوم الطبيعية البحتة من طب وهندسة ، فالتجديد له قيمته في هذا العصر بسبب التغيرات التي طَرَأَتْ على الحياة والتطور في صناعة الشعر والرقي في الذوق لدى الناس . وفي بعض قصائد (سقط الزند) يبدأ المعري بموضوعها مباشرة دون تمهيد له محاولة منه في إخراج جديد أو تشكيل جديد لوحداتها أو إعادة لتوزيع عناصرها وألوانها أو تحريك لأوضاع القصيدة عن الأوضاع المألوفة ، فهي تعالج موضوعها مباشرة دون اعتماد مقدمة طَلَلِيَّةٍ أو غَزَلِيَّةٍ ، فَيُتِيحُ هذا البناء للشاعر التعبير

عن نفسه أولا وآخرا ، كما يُتيحُ له تقديم همومه الواقعية على غيرها من المواضيع والأفكار المرتبطة بالطَّلَلِ أو المرأة أو الفرس ، والمعري ممن كانت له مقدرة لغوية كبيرة استطاع أن يحيط إحاطة واسعة بمفردات اللغة ، فقاموسه اللغوي جعله ظاهرة في الشعر العربي في استخدامه للمفردة ، وسعة تصرفه في استخدامها ، وجاء شعر المعري وثيق الصلة بنفسه ، فهو ذو أصالة فردية اتضحت شخصيته في شعره ، فله عالمه الخاص الذي تتحقق فيه رؤيته وموقفه الفكري وبناؤه الفني ، فتجربته الشعرية تجاوزت الحدود التي كانت تنطلق منها قصائد الشعراء السابقين ، فلم تكن تجربته تعبيرًا عن مشاعر ذاتية تنشأ لظروف خاصة ، وإنما تجربة مكثفة تستكشف عن موقفه من الحياة وعن رؤيته للوجود . وفي ديوان (لزوم ما لا يلزم) أراد المعري أن يُقَدِّمَ شيئًا جديدًا ، وأن يَعْرِضَ فيه محاولة جديدة لتشكيل القصيدة العربية تشكيلاً هندسيًّا يقوم على مقاييس ثابتة ، ويعتمد على تخطيط عقلي منظم لم يعرفه الشعراء من قبل ، وكأنه يريد أن يقول : إن الشعر عمل صناعي يعتمد الفكر . واهتم المعري باللغة وقواعدها وصرفها ونحوها وسائر ما يتصل بها من معانٍ ودلالات واصطلاحات ، فاللغة عنده ليست أداة تعبير فحسب يعبر بها ، ويُقَلِّدُ بها ، وإنما لغة تعبر عن آرائه من خلال تعبيرها عن نفسها ، فالمعري يستنطق اللغة ، ويُوَلِّدُهَا حتى تنكشف قدرتها وتَتَجَلَّى قدرة الإبداع فيها بَيِّنَةً جَلِيَّةً . وانفرد ديوان (لزوم ما لايلزم) بخلوه من أبواب الشعر المطروق ، وانصراف ناظمه إلى تمجيد الله – عزوجل – ، ونقد الحياة وبحث مشكلات الحياة والموت ، فالمعري قام بعرض الموضوعات بصورة أدق وأعمق ، وأخذ يُنَمِّي بعض جوانب الشعر ، لتخرج منه فروع جديدة ، وبرزت موضوعات جديدة لم تكن شائعة في الشعر العربي القديم ، ويُعَدُّ نقد العقل العربي أبرز مظهر من مظاهر التجديد في الشعر ، إذ نقد المعري العقل العربي السائد ، ومارس ذلك النقد من داخل هذا العقل نفسه من خلال تعرية أسسه ، وتحريك فاعلياته وتطويرها وتحديثها وإغنائها بمفاهيم وإشراقات جديدة ، فاستطاع المعري ببراعته الفنية وقدرته الإبداعية تشكيل شعره وإضْفَاء شيء من الطرافة والتجديد عليه حسب صنعته الفنية ومهارته الإبداعية .

المقدمة

الحمد لله العليم المنان ، خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على خير ولد عدنان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفصح الناطقين وأبلغ المتكلمين ، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وحملة راية العلم والعرفان ، وبعد :

فاللغة العربية لغة عريقة ، وخدمتها عمل جليل ، والأدب العربي فرع من دوحتها العظيمة ، وهو فَنٌّ ينبع من مواهب إلهية منحها الله تعالى لبعض خلقه وحرمها آخرين .

ولكل أمة أدبها الذي يُفْصِحُ عن فكرها ومشاعرها ، ويُحَقِّقُ لها خصوصيتها ، والأدب العربي درة مضيئة بين آداب الأمم الأخرى ؛ لأن الأمة العربية شاعرة بطبعها ، رضعت لبان الفصاحة في مهدها ، فتميز أدبها بالبلاغة العالية ، والبيان الرفيع ، والمضمون السامي ، وكان ترجمانا لمشاعرها ، وديوانا لمآثرها .

ومما زاد الأدب العربي أصالة وتفردا انبعاثه من اللغة العربية ؛ لأنها لغة شرفها الله تعالى حين أنزل القرآن بها ، وجعلها لغة نبيه العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فصارت بذلك لغة الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان .

ويقف العصر العباسي شامخًا كالطود بين عصور الأدب ، فهو عصر تفجرت فيه ينابيع المعرفة وتَعَدَّدَتْ مشاربها ، فبلغت فيه العلوم أوج نضجها ، ولهذا فهو بحق عصر ذهبي من حيث نضج العلم والأدب .

وهناك حضارة كبيرة وتحولات أصابت المجتمع العربي بقيام الدولة العباسية ، حضارة تنزع إلى الترف ، وثقافة تتنوع روافدها وتتباين مذاهبها ، وأجناس بشرية تلتقي وإن تباعدت مشاربها ، شعرا ونثرا ، ترجمة وتأليفا ، تدوينا وتصنيفا ، وكان من أثر ذلك تحول الذوق الفطري إلى ذوق مثقف ، مفكر ، محلل ، تتعدد نشاطاته وتتنوع مجالاته .

وانطلاقًا من أَنَّ الأدب وليد بيئته ، وأنه منها في كل ظروفها وأبعادها ومصادرها ، يحمل طابعها ومفاهيمها وآمالها ، ويكون صورة عنها في كل مجالاته ومنطلقاته ، وتكون

خصائصه من خصائصها ، فإن الأدب العباسي صورة عن البيئة العباسية لا يختلف عنها في شيء مهما تنوعت معطياته وتعددت فنونه ، ويستوي في خصائص متعددة علمية واجتماعية وواقعية وقومية وشعوبية ومجددة ومحافظة وفنية مقلدة ومبتكرة .

والصراع بين التقليد والتجديد صراع يَمْتَدُّ إلى زمن بعيد ؛ لأنه يُعَبِّرُ عن معنى الحياة ومحاولة الإنسان التكيف مع بيئته ومشاكل عصره ، ويشتد هذا الصراع في فترات التطور الاجتماعي والسياسي وما يصحبها من تطور فكري بسبب انقسام المجتمع فريقين يتبادلان الريبة والظنة : فريق يندفع في تطوره ويغلو في تصوره المعاصر ، فيحاول التَّحَلُّلَ من كل ما يَمُتُّ إلى القديم ، وآخر يَتَشَبَّثُ بالماضي بكل ما لديه من قوة مفضلا الانطواء في عالمه ، يَجْتَرُّ ما لديه من زاد فكري . والقديم والجديد عنصران مهمان من عناصر الحياة ، فليس هناك جديد بلا قديم ، ولا يُعْرَفُ قديم بغير جديد ، والتجديد لا يعني التغيير المطلق ، بل يعني حدوث تَطَوُّرٍ في بعض العناصر ، مع بقاء الهيئة الأصلية والأساس القديم ، ولا تصح الحياة النفسية لمجتمع إلا بالتمازج والتفاعل بين القديم والجديد .

ويُعَدُّ أبو العلاء المعري آخر عمالقة الشعر القديم فقد ارتفع بشعره إلى مستوى إنساني رفيع عن طريق المزاوجة النادرة بين الفن والفلسفة ، فكان شعره طريفًا شكلا ومحتوى ، ولَعَلَّ تَمَيُّزَهُ من – بين أدباء العربية القدامى وعدد من المحدثين – بالنَّزْعة التَّأَمُّلِيَّة ، وموقفه من الحياة والناس إلى جانب قِلَّةِ اهتمام القدامى والْمُحْدَثِينَ بأدبه بالقياس إلى ما أولوه شعراء آخرين كأبي تمام والبحتري والمتنبي هذا الذي دفعنا إلى الوقوف عند أدبه بما يَتَضَمَّنُهُ من أفكار جريئة وآراء جديدة ، ولقد حاول المعري حَقًّا نقد أكثر مظاهر الحياة في عصره ، وهو من هذه الناحية يُمَثِّلُ صورة صادقة لجرأة المفكر وحرية الأديب ، لذلك اخترناه موضوعا لبحثنا الذي نقدم خطته كما يلي :

أولا : مشكلة البحث :

اخترت أن أنجز بحثًا بعنوان (التقليد والتجديد في شعر أبي العلاء المعري) الذي يُعَدُّ مفخرة من مفاخر الثقافة العربية ، وشاعرًا عظيمًا من أساطين الشعر وفرسانه الكبار في العصر العباسي .

يُعَدُّ العصر العباسي بحق أهم العصور في تاريخ أمتنا ، ففي الوقت الذي كان فيه قادة الثقافة يشغلون الرأي العام بآثارهم ، كان الأدباء يضعون اللبنات القوية في صرح الأدب ، وأسهم الجميع -أدباء وعلماء- في استقطاب ألوان النشاط الثقافي ، وهنا اِلْتَحَمَ الأثر الفني بالأثر الفكري .

على يد أبي العلاء المعري خرج الشعر من دائرته الضَيِّقَةِ دائرة العبث والفردية والقبلية والقدح والمدح والارتزاق الرخيص ، ليدخل إلى دائرة أوسع مداها الكون والإنسان حيث يتم تسجيل المواقف من القيم والحقائق وكشف الزيف فيها بقصد التغيير ، وهذه هي الدائرة العالمية للشعر . هذا فضلا عن نقد أسس الثقافة العربية نقدًا يصل إلى الدعوة إلى مراجعة العقل العربي . أليس هو القائل في اللزوميات :

لقد صَدِئَتْ أفهامُ قومٍ فهل لها صِقَالٌ ويحتاج الحُسَامُ إلى الصَّقْلِ [1]

فلم يَعُد الشعر في مفهوم أبي العلاء المعري إذن وسيلة للعيش الرخيص أو الكذب المغلف أو الشَّتْمِ ، بل أصبح وسيلة للفكر المتأمل ، وبَوْتَقَة يسكن فيها الوجدان الصادق وتعبيرًا مشعًّا عن الحقائق ، وكل هذا مظهر من مظاهر التجديد في المضامين .

لقد كان حلم المعري إنسانيًّا إلى درجة مثالية ، فلقد حلم بصفاء البشرية ، وأدان كل ما يُعَكِّرُ هذا الصفو ، وهاجمه في شعره ، وفارقه في نهج حياته ، ودفعه هذا كله إلى التجديد في الشعر فكانت دواوينه أبعد عن الأغراض التقليدية بل كلها حكمة ونقد وإصلاح ، وأمّا تجديده في الأشكال فحدث ولا حرج ، فقد قال يومًا :

---

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، ط١ ، دار صادر ، لبنان ، ١٤٢٧هـ ، المجلد الثاني ، ص (١٨٠) .

وإني وإن كُنْتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأوائلُ[١]

إنه لم يَتَحَدَّ أبناء عصره فحسب وإنما تَحَدَّى الأوائل المتقدمين الذين يُشَار إليهم بالبنان ويُقَرُّ لهم بالتفوق ، وأَكَّدَ أَنَّه سيتفوق عليهم وسيأتي بما لم يستطيعوه .

وحقًّا فقد كتب اللزوميات فأبدع وأعجز إذ التزم فيها رويين في حين أن المتطلب الشعري يستوجب رَوِيًّا واحدًا ، وهذا دافع لنا لدراسة هذا الأثر دراسة شكلية معتمدين في ذلك ما درسناه من المناهج الحديثة لا سَيَّمَا مدرسة الشكلانيين الروس وأعلام الإنشائية ، فالبحث بهذا المعنى يَهْتَمُّ بالشكل إلى جانب المضمون والشعر قبل كل شيء أشكال وهندسة تتضمن دلالات .

وقضية التقليد والتجديد مطروحة في كل بيئة وعصر، إنها صراع ثابت في الجوهر متغير في الشكل ، وهي ليست وقفًا على الآداب وسائر الفنون ، بل تتناول مجالات الحياة كلها .

ثانيا: أهداف البحث :

إِنَّ التَّحَوُّلاتِ الكثيرة التي غَيَّرَتِ المجتمع كانت على أساس الصراع بين المقلدين والمجددين ، فالتباين الناشئ في المواقف السياسية والاجتماعية والتطور المتنامي في الفكر والذوق ، كانا أساس الصراع وبرزا فنيًّا في أدب العصر : مضمونه وأسلوبه ، ولذلك يهدف هذا البحث إلى :

-إبراز دور التجديد ومكانه في الحياة العباسية واكتمال نموه وتطوره في عهد أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري ، إذ نضجت الحركة العلمية والفكرية في عقول الأدباء ووجداناتهم حتى صارت الصلة بينهم وبين هذه الحياة عقلية ووجدانية ، وصار الإبداع الأدبي يصدر عن هذه الصلة تِلْقَائِيًّا دون قصد وتعمد وتكلف ، وحينذاك استقرت الأساليب الأدبية شكلا ومضمونًا وفق طابع العصر .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله : سقط الزند ، ط١ ، المكتبة العصرية ، لبنان ، ١٤٢٨هـ ، ص (١٨١) .

-إبراز كيف أصبح العصر العباسي مَحَطَّةً مهمة في تطور الفكر العربي ، فيه عرف انطلاقته الكبرى ، ومن خلاله بلغ ذروة عطائه فلسفيًّا وعِلْمِيًّا وأدبيًّا . والمعري تأثر بالمتنبي في مطلع حياته كما في ديوانه الأول (سقط الزند) وهذا تقليد ، ولكن سرعان ما قطع التقاليد الشعرية التي تُوَظِّفُ الشعر للتكسب ولطلب الحظوة والمال ، لِيُكَرِّسَ شعره للتعبير عن تجربته الخاصة وتأملاته ونظراته في الحياة والناس والوجود وهذا تجديد ، كما في ديوانه الثاني (لزوم ما لا يلزم) ، وهكذا يكون للعصر تأثير كبير في الأدب والعكس بالعكس .

-إبراز جرأة المعري في مهاجمة ما يراه فاسدًا ، وصَرْفه الشعر إلى مواضيع إنسانية أخلاقية ، وانعدام الهوى بين أقواله وأفعاله وثقافته الواسعة وبعد نظره ، وشاعريته المميزة هي التي أَحَلَّته هذه المنزلة الرفيعة في الشعر . وهي التي تُعْطِي بحثنا أهميته وموضوعنا مشروعيته .

-إبراز خصائص الأسلوب عند المعري وأهمية دراسة الأشكال الشعرية في الدراسات الأدبية فهي الوجه الْمُتَمِّمُ لدراسة المضامين.

ثالثا : أهمية الموضوع :

أ- أهمية أبي العلاء المعري في تاريخ الشعر العربي :

أولا : كان الشعر ولا يزال رفيق الإنسان العربي منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ، به يُعَبِّرُ عن عواطفه وأفكاره ، فبالشعر جسد شعوره ، وبه أنطق المكان ، وحدد به ملامح الزمان ، وبه غَنَّ ، فكانت قصائده خالدة خلود الزمن ولها مقومات محددة ، حافظ عليها الشعراء تارة وطوروها تارة أخرى ، من هنا كان اختياري لهذا الموضوع .

ثانيا : يمتاز أدب المعري بخصائص عديدة ومتنوعة لاتساع ثقافته وبعد نظره وطول باعه في اللغة ، إذ يُلاحِظُ قارئ نتاجه اهتمامه بالناحية اللفظية في شعره ونثره على حد سواء .

ثالثا : ترك أبو العلاء المعري تراثًا عظيمًا في الشعر والأدب والفلسفة ، ظَلَّ موردًا لا ينضب للدارسين والباحثين على مر العصور ، وكان له أكبر الأثر في فكر كثير من المفكرين والعلماء والأدباء وعقلهم في شتى الأنحاء .

رابعا : قَدَّمَ المعري نموذجًا للمفكر والأديب والشاعر الذي توافق أفعاله أقواله وتتطابق أقواله مع أفكاره ومعتقداته .

خامسا : المعري مفخرة من مفاخر الثقافة العربية وشاعر عظيم من أساطين الشعر وفرسانه الكبار .

سادسا : يُعَدُّ المعري شخصية متميزة فريدة في الأدب والفكر العربي شَكَّلَت انقلابًا على الثقافة السائدة في عصره والتقاليد التي أرساها من سبقوه .

سابعا : كَرَّسَ المعري شعره للتعبير عن تجربته الخاصة وتأملاته ونظراته في الحياة والناس والوجود ، وهي نظرات وتأملات أعلت من قيمة الأدب ودوره في زمن عَمَّتْ فيه الخرافات والجهل .

ثامنا : " بإجماع القدماء والمحدثين يعد المعري أهم شاعر عرفته العربية في القرن الخامس الهجري ، بل هو عند بعض المحدثين أهم شاعر عرفه الشعر العربي على امتداد تاريخه الطويل " [1] ، وهو على كل حال حلقة في سلسلة العمالقة الذين احتلوا قمم الشعر العربي الشامخة ، وكانوا معالم بارزة في طريقه الفني .

تاسعا : تعود أَسْبَقِيَّةُ نقد العقل العربي لأبي العلاء المعري ، حيث نقد أسس الثقافة العربية نقدًا يصل إلى الدعوة إلى مراجعة العقل العربي .

عاشرا : دار شعره على كثير من الإحالات في قصائده ، فالشاعر كان عقلا استوعب ثقافة عصره ، واطَّلَعَ على شيء من الفكر والثقافة الإغريقية ، ولهذا جاء شعره ممثلا لسعة اطِّلاعِهِ وحيرته الفلسفية ، وطهارة نفسه ، ونقاوة ضميره من رذائل الكذب والنفاق والأنانية .

حادي عشر: يَحْتَلُّ المعري – بنتاجه الشعري وتراثه الفكري – مكانة مرموقة في تراثنا العربي ، وهذا محل عناية المستشرقين والدارسين الغرب ، وقد عُنِيَ كبار كتابنا بفكره وفنه كالدكتور طه حسين وغيره .

---

(١) عبد المعطي ، محمود بن علي : تجليات الإبداع الأدبي دراسات في العصر العباسي الثاني ، ط١ ، دار النشر الدولي ، الرياض ، ١٤٢٨هـ ، ص (٢٥٦) .

ب- أهمية دراستنا له :

أولا : لم يُدْرَس الموضوعُ دراسة مباشرة بهذه الصيغة التي قدمناها على الرُغْمِ من أَنَّنَا نَجِدُّ حديثًا دائمًا عن التجديد والتقليد عند المعري ولكنها أفكار متفرقة في دراسات أخرى مثل الحيرة والحكمة وغير ذلك من القضايا العامة دون أن تكون دراسات مختصة في التقليد والتجديد من حيث شكل الشعر فضلا عن مضامينه .

ثانيا : لم توجد دراسات تناولت شعر أبي العلاء المعري تناولا شكليًّا صِرْفًا ولم تنظر في طريقة هندسته القصائد ، وموازينه المفضلة ، وقوافيه ، وظواهره البديعية المفضلة ، وصوره البيانية المحببة لديه .

ثالثا : يُبْرِزُ البحث أهمية في تغيير الشعر العربي مئة وثمانين درجة في مستوى الأغراض ، إذ أصبح مع المعري شعر الحكمة والفلسفة ونقد رجال السياسة والأمراء نقدا بَنَّاءً غير هجائي ، فضلاً عن الدعوة إلى العقل بالأسلوب الشعري ، بل إننا سنبرز كيف اعتمد المعري الشعر لينقد العقل العربي وما آل إليه من خرافة وأساطير ، فقد كان المعري مُصْلِحًا ومُجَدِّدًا للفكر والثقافة شِعْرِيًّا ، وهو أمر غير معهود في شعر يسيطر عليه الغزل والمديح والتملّق ، بل ربما سخرية أبي العلاء المعري من شعراء المديح في رسالة الغفران متأتية من عَدِّهم شعراء مديح وتملّق للحكام بكل هذه الأسباب . ولقد كان هذا البحث ماسًّا جديرًا بأن يُنْجَزَ في ظروف حسنة بمساعدة الكفايات المتوافرة حاليًّا في هيئة التدريس .

رابعا : الدراسات السابقة :

هذه بعض الدراسات حَوْلَ شعر أبي العلاء المعري :

-رأي في أبي العلاء ، أمين الخولي ، جماعة الكتاب ، القاهرة ، ١٣٦٣هـ .

-الحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري ، عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٤م .

-أبو العلاء المعري ناقد المجتمع ، زكي المحاسني ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

-فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره ، حامد عبد القادر ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ .

-أبو العلاء المعري آراؤه في لزومياته ، كمال اليازجي ، لجنة التأليف المدرسي ، لبنان ، ١٩٦٤م .

-قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري ، عبدالقادر زيدان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٨م .

-النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري ، يسري سلامة ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م .

-الفكر الديني عند أبي العلاء المعري ، عطا بكري ، مكتبة الحياة ، لبنان ، ١٩٨٠م .

-الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري ، صالح حسن اليظي ، ١٩٨١م .

-شاعرية أبي العلاء في نظر القدامى ، محمد مصطفي الحاج ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤م .

-مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها ، محمد طاهر الحمصي ، دار الفكر دمشق ، ١٤٠٧هـ .

-المعري ذلك المجهول رحلة في فكره وعالمه النفسي ، عبد الله العلايلي ،دار الجديد ، لبنان ، ١٩٩٥م .

-النزعة الفكرية في اللزوميات ، خليل إبراهيم أبو ذياب ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، مصر ، ١٩٩٥م .

-المعمار الفني في اللزوميات ، خليل إبراهيم أبو ذياب ، ١٩٩٥م .

-شعر المعري من منظور القراءة والتأويل (رسالة دكتوراه) ، رمضان محمود كريم ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٢٣هـ .

-الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري (رسالة ماجستير) ، حياة بوعافية ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة ، الجزائر ، ٢٠٠٨م .

-فلسفة الدين والحياة عند أبي العلاء المعري ، أحمد علي إبراهيم ، دار الشؤون الثقافية ، ٢٠٠٩م .

-وتأتي أبحاث المستشرقين حول أبي العلاء المعري ، ولعل أهمها دفاعات عن أبي العلاء المعري والتُّهَم التي اتُّهِمَ بها .

ومن هنا نلحظ أَنَّ مُعْظَمَ البحوث والدراسات لم تَتَوَقَّفْ أمام نصوص أبي العلاء المعري وتقليده وتجديده ، بل كان معظم هذه البحوث دفاعًا عن أبي العلاء المعري وإثبات أثر الفلسفة في حياته وتراثه وهي كلها بُحُوثٌ في المضامين ولم تُرَكِّزْ على ثُنَائِيَّةِ التجديد والتقليد عند أبي العلاء المعري .

خامسا : منهج البحث :

يعتمد البحث منهجًا مُزْدَوَجًا فهو من ناحية يُقَدِّمُ عملا وصفيًّا ، ومن ناحية أخرى يرمي إلى غاية تحليلية .

أ-العمل الوصفي :

نقوم فيه باستعراض مظاهر التقليد والتجديد عند المعري مثل وصف ديوان(سقط الزند) ونقل مظاهر الفخر التي طبع بها المعري ديوانه وهو ما عددناه مظهرًا من مظاهر التقليد ، كما أَنَّ المضامين التي وردت في ديوان (لزوم ما لا يلزم) تتطلب أيضًا نقلها وعرضها كما هي في البداية وبكل حياد ريثما نقوم بتحليلها في القسم الثاني .

ب-العمل التحليلي :

في هذا المستوى من المنهج نَتَسَلَّحُ بمناهج حديثة مفيدين من الأسلوبية ، وخاصة كما طَبَّقَهَا محمد الهادي الطرابلسي على شعر أحمد شوقي إذ نروم التطبيق نفسه على شعر المعري ، وكل ذلك من أجل تحديد مستوى الإبداع الشعري عند المعري تحديدًا معياريًّا دقيقًا والحكم عليه ؛ لأن التحليل إصدار الأحكام الموضوعية ، وسيكون المعيار عندنا علماء الأسلوب حديثًا وعلماء البلاغة قديمًا إذ لابد من تقييم مستوى البلاغة عند أبي العلاء المعري

حتى نحكم على مدى تجديده في الشعر العربي ، كما نستعين بالكتب الفكرية الأخرى لمعرفة مدى الحكمة عند المعري حتى نحكم عليه إلى أي مدى كان شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء .

سادسا : مصادر البحث :

تقع أشعار أبي العلاء المعري في مجموعتين :

الأولى : شعر الصِّبَا والشباب وهي التي سماها (سقط الزند) .

الثانية : اللزوميات وهي التي سماها (لزوم ما لا يلزم) .

وسنعتمد هذين الديوانين ونجعلهما مصدرين أساسيين لبحثنا ، وأما عن بقية أشعار المعري فإنها عُدِمَتْ وفُقِدَتْ ولم يصل إلينا غيرهما ، يقول الدكتور طه حسين : " ليس لدينا من شعر أبي العلاء إلا ثلاثة دواوين : أولها : سقط الزند ، والمشهور أنه يشتمل على شعره أيام الشباب ... الثاني : الدرعيات ، وهو ديوان صغير ، يشتمل على أشعار وصفت فيها الدرع خاصة ، وقد طبع بمصر ملحقا بسقط الزند ... الثالث : اللزوميات : وهي أكبر الدواوين الثلاثة " [1] . وبناء على ذلك استثنيناها من مدونة البحث واقتصرنا على الديوانين المذكورين .

سابعا : أقسام البحث :

المقدمة : وتَشْمَلُ مشكلة البحث ، وأهدافه ، وأهمية الموضوع ، والدراسات السابقة ، ومنهج البحث ، ومصادره ، وأقسامه ، وتخطيطه .

الفصل الأول : المعري شاعرا .

المبحث الأول : حياته وآثاره .

المبحث الثاني : منزلته الشعرية .

---

(١) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، ١٩٨٣م ، المجلد العاشر ، ص (١٩٥-١٩٦) .

الفصل الثاني : مظاهر التقليد في شعر المعري .

المبحث الأول : التقليد في سقط الزند .

١-معنى التقليد .

٢-تأثر سقط الزند بالمدرسة الجاهلية .

٣-سقط الزند امتداد لمدرسة أبي تمام .

المبحث الثاني : التقليد في اللزوميات .

١-مفهوم اللزوم .

٢-السياق اللزومي .

٣-مظاهر التقليد .

الفصل الثالث : مظاهر التجديد في شعر المعري .

المبحث الأول : التجديد في سقط الزند .

١-معنى التجديد .

٢-التجديد في الشكل .

٣-التجديد في المضامين الشعرية .

المبحث الثاني : التجديد في اللزوميات .

١-اللزوم العلائي .

٢-مفتاح التجديد .

٣-التجديد في الشكل .

٤- التجديد في المضامين الشعرية .

الخاتمة : أبرز نتائج البحث .

الفصل الأول : المعري شاعرا .

المبحث الأول : حياته وآثاره .

١ –حياته :

" هو الشيخ العلامة ، شيخ الآداب ، أبو العلاء ؛ أحمد بن عبدالله بن سليمان ابن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن مطر بن زياد بن ربيعة بن الحارث ابن ربيعة بن أنور بن أرقم بن أسحم بن النعمان – ويلقب بالساطع لجماله – ابن عدي ابن عبد غطفان بن عمرو بن بَرِيح بن جذيمة بن تيم الله ، الذي هو مجتمع تنوخ ، ابن أسد ابن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة ابن زيد بن مالك بن حميد بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر ؛ وهو هود عليه السلام ، القحطاني ، ثم التنوخي المعري الأعمى " [١] .

سَمَّاهُ أبوه أحمد ، ويُكَنَّى بأبي العلاء ، ولكن أبا العلاء كَرِهَ هذه الكُنْيَةَ ، ورأى أن من الظلم أن يُضَاف إلى التصعيد والعلو ، وإنما العدل أن يُضَاف إلى السقوط والهبوط ، وأكد ذلك في شعره ، إذ يقول :

دُعِيتُ أبا العلاء وذاك مَيْنٌ ولكن الصَّحيحَ أبو النُّزولِ [٢]

ولُقِّبَ بالمعري نسبة إلى بلدته معرة النعمان ، وهي بلدة من بلاد الشام " بين حلب وحماة " [٣] .

---

(١) الذهبي ، محمد بن أحمد : سير أعلام النبلاء ، حققه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، سوريا ، ١٤٠٥هـ ، المجلد الثامن عشر ، ص (٢٣-٢٤) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (١٩٦) .

(٣) الحموي ، ياقوت بن عبدالله : معجم البلدان ، تحقيق فريد الجندي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١٠هـ ، المجلد الخامس ، ص (١٨٢) .

كانت ولادته يوم الجمعة لثلاثٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاث مئة بالمعرة .

نشأ بالمعرة في بيت دين وعلم ورئاسة وفقه وأدب ، فأبوه من العلماء ، وجَدُّهُ وأبو جَدِّهِ وجَدُّ جَدِّهِ كلهم تولوا قضاء المعرة ، وأكثر أسرة أبي العلاء قد قَرَضُوا الشعر ، فقد كان أبوه وأخواه شعراء ، وأخواله من بني كوثر الأدباء النحويين ، وبنو المهذب وهم من فُحُولِ الشعراء بالشام .

أصيب " بالجدري صغيرًا فعمي في السنة الرابعة من عمره " [١] ، فغشى يمنى حدقتيه بياض وأذهب اليسرى فَشَوَّهَتْ وجهه بندوب لا بُرْءَ منها ، وذهبت ببصره مُسْدِلَةً بينه وبين الدنيا حجابًا حالك السواد فما انجاب عنه حتى آخر العمر . ولكنَّ عماه لم يمنع " من سطوع نجمه ولم يكن كسائر من ابتلوا بهذه العاهة فقنعوا باليسير من العلم " [٢] .

ولقد حاول أبو العلاء المعري أن يَكْسِرَ حاجز الظلام القاتم بينه وبين الحياة ، وأن يتجاهل آفة العمى التي عزلته عن مشاركة الناس ، وأن يكون مع الناس حيث كانوا ، فكان يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل مع الناس في كل جد وهزل مكابرًا ومتحديًا ، فقد قال الثعالبي : " وكان حدثني أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر – وهو من لقيته قديمًا وحديثًا في مدة ثلاثين سنة – قال : لقيت بمعرة النعمان عجبًا من العجب رأيت أعمى شاعرًا ظريفًا يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يُكَنَّى أبا العلاء وسمعته يقول : أنا

---

(١) الزركلي ، خير الدين بن محمود : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، ط٧ ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ١٩٨٦م ، المجلد الأول ، ص (١٥٧) .

(٢) إبراهيم السامرائي : مع اللزوميات ، من الموقع الإلكتروني http://www.majma.org ، بتاريخ ١٤٣٢/٨/٥هـ .

أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر فقد صنع لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء " [١] .

أبو العلاء المعري غزير الفضل ، شائع الذكر ، وافر العلم ، غاية في الفهم ، عالم باللغة ، حاذق بالنحو ، شُهْرَتُهُ تنطق بسجيَّته ، قال ابن العديم : "وسمعت والدي أبا الحسن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة يقول ، فيما يأثره عن أسلافه ، قال : كان أبو العلاء على غاية من الذكاء والحفظ . وقيل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟ فقال : ما سَمِعْتُ شيئًا إلا وحفظته ، وما حَفِظْتُ شيئًا فنسيته " [٢] .

لقد كان أبو العلاء المعري واحدًا من هؤلاء الذين وجدوا في أنفسهم لمعة الذكاء ، وحَظًّا من حصانة العقل ، وقوة الحافظة والذاكرة ، فكان مُعْجِزَةَ زمانه ونَادِرَةَ عصره ، أليس هو القائل :

وإني وإن كُنْتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ [٣]

وقد أتى أبو العلاء المعري بما لم تستطع الأوائل أن تأتي به من إحصاء اللغة وتدوينها ، ومن إتقان لعلومها ، فكان حافظًا لأكثر ما أنشا الشعراء وكتب الكتاب في العصور الأدبية التي سبقته ، مطلعًا اطلاعًا باهرًا على اللغة وشواهدها ، ذكر ابن العديم نقلا عن ابن الشجري عن أبي زكريا التبريزي أنه قال : " ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري " [٤] ، وهذه الإحاطة الشاملة بأوسع لغة في العالم تُعَدُّ حقًّا معجزة ؛ لأنها تستتبع إحاطة بالتاريخ

---

(١) الثعالبي ، عبدالملك بن محمد : تتمة يتيمة الدهر ، شرح وتحقيق محمد قميحة ، ط١، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٠٣هـ ، ص (١٦) .

(٢) حسين ، طه وجماعة من المحققين : تعريف القدماء بأبي العلاء عن الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري لابن العديم ، ط٤ ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ص (٥٥١) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٨١) .

(٤) حسين ، طه وجماعة من المحققين : تعريف القدماء بأبي العلاء عن الإنصاف والتحري لابن العديم ، ص (٥٦٩) .

الأدبي من أقدم عصور الجاهلية إلى أيامه الأخيرة التي تنتهي عند النصف الثاني من القرن الخامس الهجري .

كان أبو العلاء المعري أعجوبة زمانه ، "ويقال عنه : إنه كان يحفظ ما يَمُرُّ بسمعه " [١] ، " وحكى تلميذه أبو زكريا التبريزي ، أنه كان قاعدًا في مسجده بمعرة النعمان بين يديه يقرأ عليه شيئًا من تصانيفه قال : وكنت قد أتممت عنده سنتين ولم أر واحدًا من أهل بلدي ، فدخل مغافصة [٢] المسجد بعض جيراننا للصلاة فرأيته وعرفته وتغيرت من الفرح ، فقال لي أبو العلاء : أي شيء أصابك ؟ فحكيت له أني رأيت جارًا لي بعد أن لم ألق أحدًا من أهل بلدي منذ سنتين ؛ فقال لي : قم وكلمه ، فقلت له : حتى أُتْمِمَ السبق [٣] ، فقال : قم ، وأنتظرك ؛ فقمت وكلمته بالأذربية شيئًا كثيرًا إلى أن سألت عن كل ما أردت ، فلما رجعت وقعدت بين يديه قال لي : أي لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال : ما عرفت اللسان ولا فهمته ، غير أني حفظت ما قلتماه ، ثم أعاد عَلَيَّ لفظًا بلفظ ما قلناه ، وجعل جاري يتعجب غاية العجب ويقول : كيف حَفِظَ شيئًا لم يفهمه " [٤] .

قرأ القرآن العظيم بالروايات على جماعة من الشيوخ مِمَّنْ يُشَار إليهم في القراءات وسمع الحديث من أبيه عبدالله وجده سليمان ، وتَلَقَّى علوم اللغة والنحو بمعرة النعمان على والده وأبي بكر بن مسعود بن محمد بن يحيى بن الفرج النحوي ، ودخل وهو صبي إلى حلب فقرأ بها على محمد بن عبدالله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي ، " وأما تَبَحُّرُهُ في علمي العروض والقوافي فبحسبك فيه مقدمة اللزوم ورسالة له إلى النكتي " [٥] .

---

(١) الذهبي ، محمد بن أحمد : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ١٤٢٤هـ ، المجلد التاسع ، ص (٧٢٢) .

(٢) مغافصة : مفاجأة .

(٣) السبق : الدرس .

(٤) السمعاني ، عبدالكريم بن محمد : الأنساب ، وضع حواشيه محمد عبدالقادر عطا ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١٩هـ ، المجلد الأول ، ص (٥٠٧-٥٠٨) .

(٥) الراجكوتي ، عبدالعزيز الميمني : أبو العلاء وما إليه ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٢٤هـ ، ص (٤٤) .

واستأنف أبو العلاء المعري سيره بطلب العلم على الشيوخ ، وفي خبر أنه رَحَلَ إلى طرابلس الشام ، وكان بها خزائن كتب موقوفة وأنه في رحلته مر باللاذقية ، ونزل ديرًا كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة ، سَمِعَ المعري بعض كلامه فحصل له شكوك .

ولكن الأخبار المروية عن تلك الرحلة تتناقض ، ويقطع هذا التناقض ابن العديم بنفي الرحلة إلى طرابلس ، ويَرُدُّهَا إلى اشتباه برحلة أبي العلاء المعري إلى دار العلم ببغداد ، ويستند في نَفْيِهَا إلى دليل تاريخي لا مَطْعَنَ فيه : أنَّه لم تكن في طرابلس الشام دار علم على أيام أبي العلاء المعري [١] .

وفي خَبَرٍ أنه رحل إلى أنطاكية ، وتردد إلى خزانة كتبها يحفظ ما فيها وفي هذا الخبر وَهْمٌ يُشِيرُ إليه ابن العديم : ذلك أن أنطاكية كانت بأيدي الروم قبل مولد أبي العلاء المعري بخمس سنين إلى بعد وفاة أبي العلاء المعري بثمان وعشرين سنة [٢] .

توفي أبو محمد عبدالله بن سليمان والد أبي العلاء المعري بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاث مئة ، يقول أبو العلاء المعري في رثاء والده :

نَقَمْتُ الرِّضَى حتى على ضَاحِكِ الْمُزْنِ فلا جادني إلا عَبُوسٌ من الدَّجْنِ [٣]

وبعد وفاة والده ، بدأ يفكر في الرحلة إلى بغداد ، وأَعْلَمَ أمه بعزمه الجاد على السفر فأذنت له ، قال الخطيب البغدادي : " وذكر لي القاضي أبو القاسم التنوخي أنه ورد بغداد سنة تسع وتسعين وثلاث مئة " [٤] .

---

(١) للاستزادة : ينظر تعريف القدماء بأبي العلاء المعري عن الإنصاف والتحري لابن العديم ، ص (٥٥٧) .

(٢) المرجع نفسه ، ص (٥٥٥ - ٥٥٦) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٣٠) .

(٤) الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي : تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها ، تحقيق بشار عواد ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ١٤٢٢هـ ، المجلد الخامس ، ص (٣٩٧) .

سافر إلى بغداد ناضج الشباب فَتِيَّ الرجولة ، ولم يَرْحَلْ إلى بغداد لطلب دنيا ، " فإن المعري ينكر في رسائله جميع الأسباب المادية لرحلته " [١] ، فلعله إذن قد سافر يستزيد في العلم ويستكثر من عدد شيوخه ، فسمع من عبدالسلام بن الحسين البصري ، وقرأ عليه بها التبريزي وابن فورجة وأبو القاسم التنوخي ، وخَلْقٌ .

ويُرْوَى أَنَّ أبا العلاء المعري حين ورد إلى بغداد قصد أبا الحسن علي بن عيسى الربعي [٢] ليقرأ عليه ، فلما دخل إليه ، قال علي بن عيسى : ليصعد الإصطبل [٣] ، فخرج مغضبًا ولم يَعُدْ إليه .

ولا ريب في أَنَّ شهرة أبي العلاء المعري قد سبقته إلى بغداد ، فلقي هناك من اِحْتَفَى بعلمه وأدبه ، وقَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، ومهما يكن من أمر فإن الذي جرح نفس المعري تعرضه لحسد الحساد ، وسوء ما لقي من بعض رجالاتها ، ثم كانت الطعنة النافذة من يد (الشريف المرتضى) ، " وكان المعري يتعصب لأبي الطيب ويفضله على بشار وأبي نواس وأبي تمام وكان المرتضى يبغضه ويتعصب عليه ، فجرى يومًا ذكره فتنقصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه ، فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله :

***لَكِ يا مَنَازِلُ في القلوب منازلُ *** [٤]

---

(١) حكيم ، سعاد : أدباء وشعراء أبو العلاء المعري بين بحر الشعر ويابسة الناس ، ط١ ، دار الفكر اللبناني ، لبنان ، ٢٠٠٣م ، ص (١٠) .

(٢) " أحد أئمة النحويين وحذاقهم " ، (الحموي ، ياقوت بن عبدالله : معجم الأدباء ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١١هـ ، المجلد الرابع ، ص (١٩٣)).

(٣) الإصطبل : الأعمى بلغة أهل الشام .

(٤) سبيتي ، مصطفى : شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٠٦هـ ، المجلد الأول ، ص (٢٢٢) .

لكفاه فضلا ، فغضب المرتضى ، وأمر به فسحب برجله وأخرج من مجلسه وقال لمن بحضرته : أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة فإن لأبي الطيب أجود منها لم يذكرها ، فقيل : النقيب السيد أعرف ، فقال أراد قوله في هذه القصيدة :

وإذا أَتَتْكَ مذمَّتي من ناقصٍ فهي الشَّهادةُ لي بأني كاملُ [١] " [٢]

اضطر أبو العلاء المعري إلى أن يُفَكِّرَ في العودة إلى المعرة فما حصل له في مجلس (الشريف المرتضى) لفته عن بغداد ، وكان ذا تأثير عميق في توجيه حياته ، وكانت رحلته إلى بغداد الحد الفاصل بين شطرين من حياته إنسانًا وأديبًا ومفكرًا .

أقام ببغداد سنة وسبعة أشهر ، ثم رجع إلى المعرة ، وفي طريق العودة بلغه نعي أمه ، وكان لوقعه في نفسه شديد الألم ولاذع الحزن ، فتفجع لموتها ، وقال يرثيها :

سَمِعْتُ نَعِيَّهَا صَمَّا صَمَامِ وإن قال العواذل لا هَمَامِ
وأَمَّتْنِي إلى الأجْداث أُمٌّ يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ سارتْ أمامي
وأُكْبِرُ أن يُرَثِّيهَا لِسَاني بِلَفْظٍ سالك طُرُقَ الطعام [٣]

رجع إلى المعرة ولزم منزله ، وشرع في التصنيف ، وأخذ عنه الناس ، وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وسَمَّى نفسه (رهين المحبسين) ؛ للزومه منزله ولذهاب عينيه ، بل إن أبا العلاء المعري كان يرى نفسه حبيس ثلاثة سجون : من فقد بصره ، ولزوم بيته ، ومن سجن روحه في هذا الجسد الترابي ، كما في قوله :

أراني في الثَّلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبرِ النبيثِ
لفقدي ناظري ولزومِ بيتي وكَوْنِ النَّفْسَ في الجسد الخبيثِ [٤]

---

(١) المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢٢٥) .

(٢) الصفدي ، خليل بن ايبك : الوافي بالوفيات ، ط٣ ، دار صادر ، لبنان ، ١٤١١هـ ، المجلد السابع ، ص (٩٧-٩٨) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٥٣) .

(٤) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١٤٠) .

يقول الدكتور طه حسين : " وأول ما أُلاحِظُ من ظلم أبي العلاء نفسه اقتناعه بأنه سجين ، واقتناعه عن أن يرى لنفسه سجنًا واحدًا ، بل أن يرى لنفسه سجنين ، وإباؤه إلا أن تكون لها سجون ثلاثة " (١) .

وشخصية المعري قائمة على تصادم الوعي الحاد بالقيمة الذاتية من ذكاء وشاعرية مع خلقة مبتلاة بعاهتي الجدري والعمى ، وظروف قاسية عامة ، فإذا بالتصادم يولد عقدة نقص انفجرت في الثورة على نفسه أولا ، ثم على المجتمع عامة ، " فأدب المعري قد يرى فيه الناقد صورة لنزعة التشفي في النفس بموجب ردود فعل عكسية " (٢) . فكان من نتائج هذا الاصطدام الوحدة واعتزال الناس ولزوم بيته ، فإنَّ ما لَقِيَ من أذى ولؤم الناس بَغَّضَ إليه الاجتماع وحَبَّبَ إليه الانفراد ، فالمعري ابتغى الوحدة ، وحرص عليها ، واتخذها طريقًا إلى المجد وسبيلا إلى النعمة بعد أن أعياه تحصيلها من طريق عِشْرَةِ الناس والاجتماع بهم .

كان أبو العلاء المعري يتزهد ولا يأكل اللحم ، ويَتَقَوَّتُ بالنبات وغيره ، وأكثر ما كان يأكله العدس ، ويَتَحَلَّى بالدبس ، ولباسه خشن الثياب من القطن ، وفرشه من لباد في الشتاء ، وحصير البردي في الصيف ، " لم يشهد التاريخ العربي الإسلامي على مدى أربعة عشر قرنا من الزمن رجلا ارتبطت حياته بالعزلة والتقشف والتعفف ما ارتبطت بأبي العلاء المعري ، بحيث أصبح علما عليها ، يلازم منزله حوالي خمسين سنة ، ويمتنع عن السمك ، والعسل ، والبيض ، ولحم الطير ، وبارد الماء صيفًا " (٣) ، ويُذْكَر أن أبا العلاء المعري كان له مغارة ينزل إليها ويأكل فيها ، ويقول : الأعمى عورة والواجب استتاره في كل أحواله .

راح أبو العلاء المعري يُرَوِّضُ نفسه ، ويقنعها بأفضلية هذه الطريقة التي تتسم بالعزلة والتقشف والتأمل ، فعاش حياة فلسفية . وفي هذا الطور من حياته صَنَّفَ أكثر كتبه

---

(١) حسين ، طه : مع أبي العلاء في سجنه المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، ١٩٨٣م ، المجلد العاشر ، ص (٣٣٩) .

(٢) المسدي ، عبد السلام : الأسلوبية والأسلوب ، ط٣ ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، (د.ت) ، ص (٢٠١) .

(٣) خرباني ، جعفر : أبو العلاء المعري رهين المحبسين ، ط١، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١١هـ ، ص (٤٩) .

ورسائله ، وأطاق أبو العلاء المعري الحبس في منزله نحو نصف قرن من الزمان ، لكن الذي لم يستطعه هو أن يَحُولَ دون اقتحام الناس عليه عزلته ، فكان منزله الذي أراده سِجْنًا له دارًا للعلم يأتي إليها الطلاب من أقطار المشرق والمغرب ، يقرؤون عليه أماليه ، ورسائله ، ودواوين شعره ، ويتعلمون منه ، ويأخذون عنه .

لَبِثَ أبو العلاء المعري تسعًا وأربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان لم يُغَادِرْهُ إلا مرة واحدة ، وذلك حين حمله قومه على الخروج ليشفع لهم لدى صالح بن مرداس صاحب حلب ، " قال أبو الحسين علي بن يوسف القفطي : قرأت على ظهر كتاب عتيق أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج إلى المعرة وقد عصى عليه أهلها ، فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أَحَسَّ أهلها بالغلب سعوا إلى أبي العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم . فخرج ومعه قائد يقوده ، فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار الماتع قاظ وسطه ، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [١] ، فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال له : أنشد لنا شيئًا من شعرك لنرويه . فأنشده أبياتًا فيه ، فترحل صالح " [٢] .

ولم يبرح منزله منذ هذه الحادثة ، وفرغ للتدريس والإملاء ، فإذا خلا بنفسه في غير أوقات الدرس فللعبادة والتأمل ، قال أبو العلاء المعري : " لزمت مسكني منذ سنة أربع مئة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلا أن أُضْطَرَّ إلى غير ذلك فأمليت أشياء تولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته ، ألزمني

---

(١) سورة الأعراف ، آية (١٩٩) .

(٢) الذهبي ، محمد بن أحمد : تاريخ الإسلام ، المجلد التاسع ، ص (٧٢٢ – ٧٢٣) .

بذلك حقوقًا جمة ، وأيادي بيضاء ؛ لأنه أفنى زمنه ، ولم يأخذ كما صنع ثمنه الله يُحسن الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمان والأرزاء " [١] .

كان علامة عصره ، " وعلمه أشهر من أن يذكر " [٢] ، قرأ عليه وروى عنه كثير من الأدباء والمحدثين من أهل المعرة وغيرهم من أئمة ، وعلماء ، وقضاة ، وأدباء ، ورواة ، وحفاظ وثقات ، ورووا عنه ، وكتبوا ، وأخذوا العلم ، وأفادوا من معارفه ، واشتهر من تلاميذه :

-أخوه الأديب الشاعر أبو الهيثم عبدالواحد ، وابنه زيد .

-القاضيان عبدالله وعلي ، أبناء أخيه أبي بكر محمد .

-أبو زكريا الخطيب التبريزي ، من أعيان القرن الخامس ، ومن أكثر تلاميذه لآثاره إذاعة ونشرًا ، شحن تصانيفه بكنوز أبي العلاء المعري ، قال الذهبي : "وبالاستناد إلى السلفي : سمعت أبا زكريا التبريزي اللغوي يقول : أفضل من رأيته مِمَّنْ قرأت عليه أبو العلاء " [٣] .

-أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني .

-نصر بن صدقة القابسي النحوي .

-الفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري الأندلسي .

-أبو طاهر محمد بن أحمد الأنباري .

-الخليل بن عبد الجبار القزويني .

---

(١) القفطي ، علي بن يوسف : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار الفكر العربي ومؤسسة الكتب ، القاهرة وبيروت ، ١٤٠٦هـ ، المجلد الأول ، ص (٨٤) .

(٢) ابن الأثير ، علي بن محمد : الكامل في التاريخ، ط٦ ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٤٠٦هـ ، المجلد الثامن ، ص (٨١) .

(٣) الذهبي ، محمد بن أحمد : تاريخ الإسلام ، المجلد التاسع ، ص (٧٢٩) .

وأخذ عنه واتصل به من غير التلاميذ وطلاب العلم عدد من أعلام العصر ، يقول ابن العديم : " وما علمت أن وزيرًا مذكورًا ، وفاضلا مشهورًا ، مَرَّ بمعرة النعمان في ذلك العصر والزمان إلا قصده واستفاد منه ، أو طلب شيئًا من تصانيفه أو كتب عنه " [١] ، ومن أشهر هؤلاء :

-أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأسدي المالكي رئيس أبهر .

-الكاتب الوزير أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن .

-الرحالة الفارسي ناصر خسرو .

ومع كل ذلك الاتصال بطلاب العلم وأعيان العصر إلا أن المعري لزم مسكنه حتى آخر عمره .

٢-آثاره :

أَلَّفَ أبو العلاء المعري وصَنَّفَ عددًا كثيرًا في الشعر ، والزهد ، وعلوم القرآن ، والوعظ ، والفلسفة ، واللغة ، والنحو ، والألغاز ، والعروض ، والقوافي ، وغيرها ، قال ابن كثير : " وله مصنفات كثيرة أكثرها في الشعر " [٢] .

صَنَّفَ التصانيف الكبار وأملاها من حفظه ، وقد ساعده في تأليفها قدرة عقلية فائقة ، وحافظة نادرة ، واعتكاف وعزلة ، وتفرغ للبحث والقراءة . إلا أن مُعْظَمَ هذه الكتب ضاع ولم يَبْقَ منها غير نزر يسير ، على الرغم عنايته في تدوينها ، وقد ذكر بعض المؤرخين أَنَّ

---

(١) حسين ، طه وجماعة من المحققين : تعريف القدماء بأبي العلاء عن الإنصاف والتحري لابن العديم ، ص (٥٦٥) .

(٢) ابن كثير ، إسماعيل بن عمر : البداية والنهاية ، ط٢ ، دار الفكر ، لبنان ، ١٤١٨هـ ، المجلد الثامن ، ص (١٩٨) .

أكثر كتبه ضاعت ، يقول القفطي : " وأكثر كتب أبي العلاء هذه عدمت ، وإنما يوجد منها ما خرج عن المعرة قبل هجم الكفار عليها ، وقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْ أهلها ، ونهب ما وجد لهم . فأما الكتب الكبار التي لم تخرج عن المعرة فعدمت ، وإن وجد شيء منها فإنما يوجد البعض من كل كتاب " (١) .

ونظرًا لفقدان أغلب هذه الآثار آثرنا دراسة مصدرين أساسيين فقط هما : (سقط الزند) و (اللزوميات) ، وسنكتفي في هذه المرحلة من البحث بسرد جملة من هذه الآثار القليل منها موجود ومطبوع ، وأما القسم الأكثر والأغلب فهو مفقود ومعدوم ، لم يبق لنا من هذا التراث الجَمِّ إلا الاسم فقط ، فتراث المعري لم ينج من عوادي الزمن ، ومطاردة المحن ، وظلم الاضطهاد ، وبغي الافتراء ، ومن هذه الآثار ما يأتي :

-استغفر واستغفري .

كتاب في المنظوم ، به نحو عشرة آلاف بيت ، مقداره مئة وعشرون كراسة .

-إقليد الغايات .

كتاب لطيف قصره على تفسير ما جاء من اللغز في كتابه (الفصول والغايات) .

-الألغاز .

ديوان شعر جميعه في الألغاز .

(١) القفطي ، علي بن يوسف : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، المجلد الأول ، ص (١٠١) .

-الأيك والغصون .

كتاب كبير ، قال ابن خلكان : " وهو معروف بـ ((الهمزة والردف)) يقارب المئة جزء في الأدب أيضًا ، وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المئة من كتاب ((الهمزة والردف)) وقال : لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد " [١] .

-تاج الحرة .

في عظات النساء خاصة ، ويقع في أربع مئة كراسة .

-جامع الأوزان .

فيه شعر منظوم على معنى اللغز ، به تسعة آلاف بيت ، مقداره ستون كراسة في ثلاثة أجزاء .

-خماسية الراح .

كتاب لطيف في ذم الخمر ، مقداره عشر كراريس .

-ذكرى حبيب .

مختصر وشرح لديوان أبي تمام .

-راحة اللزوم .

شرح لـ (لزوم ما لا يلزم) ، مقداره مئة كراسة .

---

(١) ابن خلكان ، أحمد بن محمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط١ ، إحياء التراث ، لبنان ، ١٤١٧هـ ، المجلد الأول ، ص (٦٤) .

-رسائل أبي العلاء .

اعتنى فيها بالأسلوب ، ودَبَّجَهَا بالمأثورة من الشعر ، " أما من حيث أغراض رسائله ، فإن أبا العلاء قد ألم فيها بأغراض متعددة . فهناك المدح والتهنئة والتعزية والشفاعة والوصف والنقد ... وغير ذلك " [١] .

-رسالة الصاهل والشاحج .

يتكلم على لسان فرس وبغل ، نجد فيها اللغة والأدب والشعر القديم ، وهي خزانة أدبية ولغوية واجتماعية حَفِظَتْ لنا علوم العربية وأشعارها وعروضها ، وتتميز ببساطة الأحداث التاريخية وازدحام المنقول والمعقول وما ليس بمعقول ولا منقول ، وليست كتاب تاريخ بالمصطلح التقليدي " لكنها تُقَدِّمُ تفسيرًا تاريخيًّا لأحداث البيئة والعصر ، في رؤية بَصِيرَةِ أبي العلاء الثاقبة " [٢] . إنها فَنٌّ أدبي متميز أنطق فيه المعري شخوصًا من الحيوانات .

-رسالة الغفران .

مَزِيجٌ من قصص ، ووصف ، ونقد ، وعلم ، وفلسفة ، وتاريخ ، ودين ، وشعر ، ونقد الشعر ، وقد تناول المعري فيها الشعر والشعراء ، إذ نقف على كثير من النماذج الشعرية ، كما نقف على كثير من أخبار الشعراء ، فقد أشار إلى المتنبي ، وذكر شيئًا من أخبار الأعشى ، وحاور امرأ القيس في الجحيم ، " فقابل عددا من الأشخاص منهم شعراء ولغويون فحاورهم " [٣] ، فعمد إلى الشعراء وصورهم تصويرًا ، وأظهر سعة اطلاعه على الشعر قديمه وحديثه ، " وهو كتاب يركز على الحضارة العربية الشعرية ولكن بطريقة تمس جميع جوانب الحياة الخاصة ، ويحكي فيه زيارة الشاعر للجنة ، ورؤيته لشعراء الجاهلية العرب هناك " [٤] ، وقد تناول في نقده المعلومات العلمية والأدبية ، والنواحي اللغوية والاجتماعية ، " وقد اتصلت رسالة الغفران اتصالا وثيقًا في شعر المعري وخاصة في لزومياته بحيث جاء رأي

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : رسائل أبي العلاء ، تحقيق عبدالكريم خليفة ، (د.ط) ، منشورات اللجنة الأردنية ، الأردن ، ١٩٧٦م ، ص (ع) (المقدمة) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : رسالة الصاهل والشاحج ، تحقيق عائشة عبد الرحمن ، (د.ط) ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، ص (٣٠) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبد الله : رسالة الغفران ،تحقيق محمد الإسكندري وإنعام فوال ، (د.ط) ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٤٢٩هـ ، ص (٢٨) .

(٤) ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، أبو العلاء المعري ، من الموقع الإلكتروني http://www.ar.wikipedia.org ، بتاريخ ١٤٣٢/١١/٢٢هـ .

الشاعر وعطاؤه الفني متلازما مع نثره وشعره كتوأمين لا ينفصلان في معترك الحياة والآخرة والناس " [١] .

-الرياش المصطنعي .

في شرح ديوان الحماسة الرياشية ، عمل لرجل من الأمراء يلقب بـ (مصطنع الدولة) ، " وكان أنفذ إليه نسخة من هذه الحماسة ، وسأله أن يخرج على حواشيها شيئًا مما لم يذكره أبو رياش " [٢] .

-زجر النابح .

يَرُدُّ فيه على من طعن عليه في أبيات ونسبه إلى الكفر فيها ، فَبَيَّنَ وجوهها ومعانيها، وقد حاول المعري " أَنْ يدفع عن نفسه هذه التهم ، واضطر أن يزج نفسه في مناظرات مع عدد من خصومه " [٣] ، مقداره أربعون كراسة .

-سقط الزند .

نظمه في أيام الصِّبَا في أول عمره ، وهو من أحسن أشعاره ، " وتظهر شاعريته أكثر ما تظهر ، في قصائده الأولى المبثوثة في ((سقط الزند)) " [٤] ، وسُمِّيَ (سقط الزند) ؛ لأن فيه ما قاله في أول عمره ، من باب تسمية الكل باسم الجزء ، وشبهه بالسقط على سبيل الاستعارة .

-ضوء السقط .

شرح لـ(سقط الزند) ، وقف فيها على الغريب من ألفاظه فشرحها وقربها إلى الأذهان .

---

(١) خرپياني ، جعفر : أبو العلاء المعري رهين المحبسين ، ص (٦٢) .

(٢) تيمور ، أحمد : أبو العلاء المعري نسبه وأخباره شعره معتقده ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ١٩٧٠م ، ص (٩٩) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : زجر النابح ((مقتطفات)) ، تحقيق أمجد الطرابلسي ، (د.ط) ، المطبعة الهاشمية ، سوريا ، ١٣٨٥هـ ، ص (١٦) .

(٤) شرارة ، عبداللطيف : أبو العلاء المعري دراسة ومختارات ، ط١، الشركة العالمية للكتاب ، لبنان ، ١٩٩٠م ، ص (٢٥) .

-عبث الوليد .

يتعلق بشعر البحتري ، و" هو ما علقه فيلسوف الأدب وشيخ المعرة (أبو العلاء التنوخي) على ديوان أبي عبادة البحتري " [١] .

-الفصول والغايات .

أراد أبو العلاء المعري أن يُعَلِّمَ اللغة العربية وقضايا تاريخها الأدبي والثقافي من خلال فصول أدبية عالية المستوى في مغمار الفصاحة والبلاغة ، ذلك أنه كان يملي الفقرة على تلاميذه " ثم يختمها بالغاية ، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر وقد تطول الفقرة وقد تقصر ، ثم يملي التفسير " [٢] ، وقد حَمَّلَهَا مدلولات تأملية إيمانية مستمدة من التقليد القرآني ، ومؤسسة في المقام الأول على تمجيد الخالق العظيم .

-اللامع العزيزي .

في تفسير شعر أبي الطيب المتنبي ، قال ابن خلكان : " لما فرغ من تصنيف كتاب ((اللامع العزيزي)) في شرح شعر المتنبي وقُرِئَ عليه أخذ الجماعة في وصفه فقال أبو العلاء : كأنما نظر المتنبي إِلَيَّ بلحظ الغيب ، حيث يقول :

أنا الذي نظر الأَعْمَى إلى أدبي وأَسْمَعَتْ كلماتي من به صَمَمُ [٣] " [٤]

-لزوم ما لا يلزم (اللزوميات) .

ديوان بناه على حروف المعجم ، ويذكر كل حرف سوى الألف بوجوهه الأربعة ، وهو الضم والفتح والكسر والوقف منظومًا ، ومعنى لزوم ما لا يلزم أن القافية يردد فيها حرف لو غير لم يكن مُخِلاً بالنظم . وقد اختلف المؤرخون في وصف مقدار اللزوميات ،

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : عبث الوليد شرح ديوان البحتري ، ط٣ ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤٠٥هـ ، ص (٤) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : الفصول والغايات ، ضبطه وفسر غريبه محمود زناتي ، (د.ط) ، المكتب التجاري ، لبنان ، (د.ت) ، المجلد الأول ، ص (و) (المقدمة) .

(٣) سبيتي ، مصطفى : شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، المجلد الثاني ، ص (٨٢) .

(٤) ابن خلكان ، أحمد بن محمد : وفيات الأعيان ، المجلد الأول ، ص (٦٤) .

" فجاء العدد الأكبر عند ياقوت الذي جعله أربع مئة كراسة وعشرين كراسة ، والعدد الأدنى عند القفطي الذي جعله مئة وعشرين كراسة " (١) .

-مثقال النظم .

في العروض ، جزء واحد .

-مجد الأنصار .

في القوافي .

-ملقي السبيل .

كتاب وعظ يشتمل على نظم ونثر على حروف المعجم ، مقداره كراستان .

ونلحظ من قائمة كتبه التي ذكرناها أنه لا يكاد يُرَى كتاب ألفه أبو العلاء المعري من غير أن يكون قد ألف له شرحًا أو تفسيرًا ، فقد شرح (سقط الزند) وشرح (اللزوميات) ، وشرح (الأيك والغصون) وغيرها .

وإذا تَأَمَّلْنَا ما سبق ذكره من آثار تَبَيَّنَ لنا أنها تدل على مِزَاجٍ معتدل ، وذوق رفيع ، فنرى كيف سَمَّى شرحه لديوان أبي الطيب (اللامع العزيزي) ، وسَمَّى شرحه لديوان أبي تمام (ذكرى حبيب) فأحسن التورية بحبيب ، وكذلك سَمَّى إصلاحه لديوان البحتري (عبث الوليد) أما العبث فظاهر ، وأما الوليد فيجوز أنه يراد به البحتري نفسه ؛ لأنه اسمه ، ويجوز أن يريد به الناسخ ؛ لأنه عبث بالكتاب .

وتراث أبي العلاء المعري يَتَّسِمُ بالثقافة والموسوعية ، وبهذا كان أبو العلاء المعري فَذًّا بين أدباء العرب ، ولقد تمثلت هذه الثقافة الواسعة والعميقة والموهبة الرفيعة في نتاج شعري غزير ما بين نقد وإبداع ، فَأَلَّفَ قرابة مئتي كتاب ورسالة ، قال ابن حجر : " وتصانيفه في اللغة والأدب أكثر من مئتي مجلد " (٢) .

---

(١) نصار ، حسين وجماعة من المحققين : شرح اللزوميات ، (د.ط) ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، (د.ت) ، المجلد الأول ، ص (٤) .

(٢) ابن حجر ، أحمد بن علي : لسان الميزان ، تحقيق مكتب التحقيق بإشراف عبد الرحمن المرعشلي ، (د.ط) ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، لبنان ، ١٤١٦هـ ، المجلد الأول ، ص (٣١٢) .

إنه يحتل بنتاجه وتراثه الشعري مكانة مرموقة في تراثنا العربي ، وهذا موضع عناية الدارسين لتراثه ، مما جعل أبا العلاء المعري قريبًا من قلوب الناس وعقولهم ، وقد نالت مؤلفاته شهرة واسعة في الشرق والغرب .

اِعْتَلَّ أبو العلاء المعري في أوائل شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربع مئة ، وعاده الطبيب المشهور ابن بطلان أبو الحسن المختار ، وأحاط به خاصة أهله الأقربين من بني إخوته وبني عمه ، ومَرَّ عليه يوم وثان والعِلَّة لا تفارقه ، فلما كان اليوم الثالث عرفوا أنها علة الموت ، عندئذ قال ابن أخيه القاضي أبو محمد وهو يهمس لمن حوله من الأهل في حسرة وكمد : أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت ، " وتوفي يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت في ربيع الأول ، سنة تسع وأربعين وأربع مئة في خلافة القائم بأمر الله تعالى " [١] ، عاش سِتًّا وثمانين سنة . ويُقَال إنه أَوْصَى أن يُكْتَبَ على قبره :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد [٢]

وقف على قبره بضعة وثمانون شاعرًا يرثونه ، وأُنشِدَ على قبره أكثرُ من ثمانين مرثية ، ولمدة سبعة أيام أقام مقرئو المعرة على قبره يتلون القرآن حتى أَتَمُّوا مئة ختمة .

---

(١) ابن الأنباري ، عبد الرحمن بن محمد : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، ط٣ ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٤٠٥هـ ، ص (٢٥٩) .

(٢) لم ترو في الديوانين .

المبحث الثاني : منزلته الشعرية .

أبو العلاء المعري شاعر له وزنه في ديوان الشعر العربي وبين فحول شعرائه ، وهو مدرسة لدارسي اللغة العربية وآدابها ، فلا يدخل أديب أو شاعر في زمرة الأدباء أو الشعراء إذا هو لم يمر بهذه المدرسة يعيش فيها زمنًا – طال أو قصر – ناظرًا ودارسًا ومتزودًا لشعر أبي العلاء المعري .

قال أبو العلاء المعري الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة ، وأكثر أسرة أبي العلاء قد قَرَضُوا الشعر فأجادوا قَرْضَهُ ، قال الجندي : "شاعر معرق في الشعر ، ومن بيت شعر " (١) .

إن أبا العلاء المعري بارع في الإفادة بما عنده من معلومات ، متفنن في استعراض ثقافته وسعة اطلاعه ، فهام في كل وَادٍ بشعره ، قال الزيات: " قال في أكثر أغراض الشعر " (٢) ، فكان جامعة للآداب والحكمة والفلسفة .

ترك أبو العلاء المعري تراثًا عظيما في الشعر والأدب، ظَلَّ موردًا لا ينضب للدارسين والباحثين على مر العصور ، فقد " شغل المعري الناس والنقاد الباحثين بشعره " (٣) ، وكان له أكبر الأثر في فكر كثير من المفكرين والعلماء والأدباء وعقولهم في شتى أنحاء العالم .

---

(١) الجندي ، محمد بن سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره ، (د.ط) ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣٨٢هـ ، المجلد الثاني ، ص (٩٤٦) .

(٢) الزيات ، أحمد بن حسن : تاريخ الأدب العربي ، ط٢٨ ، دار الثقافة ، لبنان ، (د.ت) ، ص (٣٤٩) .

(٣) صادق ، حامد ؛ أبو زيد ، سامي : محاضرات في الأدب العباسي (الشعر) ، (د.ط) ، دار ابن الجوزي ، الأردن ، ١٤٢٦هـ ، ص (٣٠٩) .

وأين تجد مثل أبي العلاء المعري شاعرًا من شعراء العربية قد تَصَدَّرَ للتدريس ، فقصده طلبة العلم يقرؤون عليه كتبه وكتب غيره من الأدباء ، قال الرحالة الفارسي ناصر خسرو : " ويجلس حوله دائمًا أكثر من مئتي رجل ، يحضرون إليه من الآفاق ، يقرؤون عليه الآداب والشعر " (١) .

ولأبي العلاء المعري شعر كثير ، قال الرحالة الفارسي ناصر خسرو : " وسَمِعْتُ أن له أكثر من مئة ألف بيت شعر " (٢) ، فقد قيل : إن أبيات (سقط الزند) تزيد على ثلاثة آلاف بيت ، وأبيات (اللزوميات) تزيد على أحد عشر ألف بيت ، وكتاب (استغفر واستغفري) نحو عشرة آلاف بيت .

مَرَّتْ حياة أبي العلاء المعري الفنية بمرحلتين اختلف فيهما شعره اختلافًا كبيرًا : مرحلة ما قبل العزلة ويُمَثِّلُهَا ديوانه (سقط الزند) ، ومرحلة ما بعد العزلة ويُمَثِّلُهَا ديوانه (لزوم ما لا يلزم) . وقد حاول المعري " أن يثبت قدرته على احتذاء أساليب القدماء في النظم والتأليف ، كما حاول أن يكون له موضع بارز في سفر المجدِّدين " (٣) .

يُعَدُّ ديوان (سقط الزند) باكورة النتاج الشعري لأبي العلاء المعري الذي نظمه في صباه وشبابه ، وأضاف إليه بعض قصائد نظمها في عزلته ، ويدور الديوان في دائرة الموضوعات التقليدية التي نعرفها في الشعر العربي من مدح وغزل ورثاء ووصف وفخر ، وقد حاز على إعجاب القدامى والمحدثين ، يقول الدكتور شوقي ضيف : " فإن أبا العلاء الشاعر ، إنما نلقاه في السقط " (٤) .

---

(١) حسين ، طه وجماعة من المحققين : تعريف القدماء بأبي العلاء عن سفر نامه لناصر خسرو ، ص (٤٦٣) .

(٢) المرجع نفسه ، ص (٤٦٣) .

(٣) حميد ، ماجد : البناء الموضوعي في رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري دراسة وتحليل ، من الموقع الإلكتروني http://fah.kufauniv.com ، بتاريخ ١٤٣٢/١٢/١٨هـ .

(٤) ضيف ، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر ، ط٩ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م ، ص (٣٩٥) .

و(لزوم مالا يلزم) ديوانه الذي نظمه بعد العزلة ، وهي الوثيقة الدقيقة التي سَجَّلَتْ في صدق خلاصة فكر المعري ومواقفه من الحياة والكون ، وهي أيضًا الصورة الواضحة التي تحدد معالم مذهبه الفني الذي استقر عليه بعد عزلة ، " إن ((اللزوميات)) مصدرٌ وافٍ لكثير من المعارف ، وهي بهذا تتجاوز حدود الشعر ودواوينه . إنه وثيقة مهمة أراد بها أن يظهر على رجال عصره من أهل العلم" (١) ، واللزوميات شيء جديد في الشعر العربي سواء أكان في شكله أم في مضمونه يقدم لأول مرة في تاريخ الشعر العربي عملا فنيًّا متكاملا يدور حول مضمون محدد ويلتزم شكلا ثابتًا ، وهي سمة مميزة لصنعة أبي العلاء المعري ، وعلامة بارزة في الشعر العربي انطلاقا من عنوانها فبالرجوع إلى التاريخ الأدبي نجد أن العرب لم يكونوا يعتنون بعنونة الأثر الشعري أو يقيمون لها بالا ، ولكن وجدت إرهاصات متفرقة تؤكد وجود العنونة ، وخير ما يُمَثِّل هذا (المعلقات) ، ثم بعد ذلك تطور مجال العنونة وبرز بصورة وصفية فوجدت مثلا (الفاضحة) ، كما وجدت تسميات لبعض القصائد تقوم على اشتقاق ذلك من قافيتها فيقال مثلا : (بائية) ، والملاحظ أن هذه العنونة لم تكن بقصد من الشعراء ، ولعل عنونة الأثر الشعري لم تبرز إلا على يد أبي العلاء المعري حين عمد إلى تسمية ديوانيه بـ (سقط الزند) و (لزوم ما لا يلزم) ، وهو بهذا رائد في مجال عنونة الأثر الشعري .

كان أبو العلاء المعري غزير الأدب ، حسن الشعر ، متضلعًا في فنون الأدب ، حتى أصبح في عصره حجة الأدب ، وموئل الشعر ، وبيت الحكمة . وثقافة المعري وسعة اطلاعه على مختلف الفنون الأدبية للسابقين ودواوين الشعراء ومذاهبهم واتجاهاتهم الفنية كان لها الدور في خلق إمكانياته ، قال ابن العديم : " وقرأت بخط بعض أهل الأدب وأظنه محمد ابن الخضر ، بن أبي مهزول المعروف بالسابق . قال : وكان ابن سعد يروي في ديوانه ، يعني ديوان المتنبي ، في قصيدته التي مطلعها :

---

(١) السامرائي ، إبراهيم : دراسات في تراث أبي العلاء المعري ، ط١ ، دار الضياء ، الأردن ، ١٤٠٩هـ ، ص (٤٦) .

*** أزائرٌ يا خيال أم عَائِدْ *** (١)

وذلك أنها لم تكن مما قرأه على المتنبي ، وهي مما أنفذه إليه :

ومـــوضـعـا في فـنـاء نـاحـيـة تحمل في الـتـاج هـامـة الـعـاقـد

فَرَدَّ عليه أبو العلاء ، وقد اجتمع معه بحلب وهو صبي :

***وَمُوضِعًا في فِتَانِ نَاجِيَةٍ *** (٢)

فلم يقبل ذلك ابن سعد ، ومضى إلى نسخة عراقية صعدت مع أبي علي بن أريس من العراق ، فوجد القول ما قاله أبو العلاء " (٣) .

وإذا أمعنا النظر في شعر أبي العلاء المعري ، وتَأَمَّلْنَا ما وصل إلينا في كلامه من أسماء الشعراء الذين اطلع على أشعارهم وأشار إليها في شعره ، تَبَيَّنَ لنا أنه جمع بين جودة الشعر ورواية الجيد والكثير من شعر غيره ، والاستشهاد بها وانتقادها ، فقد ورد عن ابن سنان الخفاجي أنه قال : " وكنت حاضرًا عند شيخنا أبي العلاء وقد قُرِئت عليه قصيدة لأبي الطيب فلما وصل القارئ إلى هذا البيت :

ولا الضَّعْفَ حتى يتبع الضِّعْفَ ضِعْفُهُ ولا ضِعْفَ ضِعْفِ الضِّعْفِ بل مثله أَلْفُ (٤)

قال : هذا والله شعر مدبر ، وكان من العصبية لأبي الطيب المتنبي على الصفة التي اشتهرت عنه " (٥) .

---

(١) سبيتي ، مصطفى : شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، المجلد الثاني ، ص (٣١٨) .

(٢) المرجع نفسه ، ص (٣١٩) .

(٣) حسين ، طه وجماعة من المحققين : تعريف القدماء بأبي العلاء عن الإنصاف والتحري لابن العديم ، ص (٥١٥) .

(٤) سبيتي ، مصطفى : شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، المجلد الأول ، ص (١٥٢) .

(٥) ابن سنان الخفاجي ، عبدالله بن محمد : سر الفصاحة ، (د.ط) ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ ، ص (١٠٨) .

والمتأمل في شعر أبي العلاء المعري يجدها تزخر بالكثير من أسماء الشعراء والأدباء ، والاقتباس من معانيهم وإيراد العبارات من أشعارهم ، فشعره مليء بالإشارات إلى التراث الشعري العربي وما جاء من الأخبار في الجاهلية والإسلام والعصرين الأموي والعباسي ، يقول المعري :

ليغْـدُ مع الضِّباب سليلُ حُجْرٍ وسائر قوله في ابن الضِّبابِ (١)

سليل حجر هو امرؤ القيس وقد مدح سعد بن الضباب ؛ لأنه أجاره من المنذر ملك الحيرة . ويقول المعري :

ألم تَرَ أعشى هُوذَةً اهتاج يَدَّعِي معونَتَهُ عند المقالِ بشيطانِ (٢)

حيث انتقد المعري رأي الرواة الذين ظَنُّوا أن الأعشى كان له شيطان شعر ، فينظم الأشعار على لسانه ، فهو يستخف بمثل هذا الرأي وبكل ما لا يصدقه العقل فيسفه هذه الآراء . ويقول المعري :

وَجَـدْتُ عـواريَّ الـحيـاة كثيرةً كـأنَّ بقاء المرءِ شعرُ حبيبِ (٣)

فالمعري يرى أَنَّ الإنسان يُعَاني مصائب الدنيا وكأنَّها شعر أبي تمام الذي كان يشوبه الغموض والتعقيد .

وأمثال ذلك كثيرة يضيق بنا المقام هنا عن إيرادها جميعًا ، ففي شعر المعري قدر كبير من هذه الإشارات التي أراد بها إظهار براعته وعرض مقدرته اللغوية والأدبية التي قَلَّ أن يكون لها مثيل .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٩٤) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٩٨) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٨٦) .

وأشعار أبي العلاء المعري مشحونة بالفصاحة والبيان ، ومودعة فنونًا من الفوائد الحسان ، ومحتوية على أنواع العلوم والمعارف ، والدارس لشعر المعري يقف على أن الرجل أشبه بدوائر المعارف ، خاصة فيما يتعلق بشؤون المجتمع والمذاهب والأدب .

تَمَكَّنَ أبو العلاء المعري من اللغة تمكنًا قَلَّ أن يلحقه فيه أحد ، وقد حماه من أن تتهافت معانيه أو تقع في غير موقعها الصحيح ، ووعى اللغة العربية وراضها ، وصَرَّفَ هذه اللغة في أغراضه وحاجاته الفنية ، فأبو العلاء المعري من أعلم الناس باللغة العربية ومن أكثرهم خبرًا بأسرارها وبمواطن الفصاحة والبيان من أساليبها ، يقول عبدالله الطيب : " كان المعري مقتدرًا في لغة العرب خبيرًا بأسرارها ، وكان من أخبر الناس بصياغة الكلام " (١) .

ولقد اتسع قاموس المعري لمفردات اللغة اتساعًا قليل المثال في تاريخ شعراء العربية ، وكان المعري محيطًا إحاطة واسعة باللغة وأساليبها ، وكثيرًا ما وصفه مترجموه باللغوي الشاعر ، فقد كان يفهم اللغة في آفاقها الواسعة غير المتزمتة ، وقد اِنْبَثَّ في شعره كثيرًا من الظواهر التركيبية والأسلوبية ، حيث وعى اللغة وعيًا وعاش فيها فكرًا وأسلوبًا .

ولَعَلَّ من البدهي أَنَّ خُلُودَ الشعر لا يتأتى من مكانة الشاعر ، بل من قدرته على بعث طاقات اللغة والتأليف بينها على نمط فريد ، ففي دعوة أبي العلاء المعري إلى العزلة نظرًا لشيوع النفاق بين الناس تظهر قدرته اللغوية ، يقول المعري :

طِبَاعُ الورى فيها النِّفاقُ فأقصهم ... وحيدا ولا تصحب خليلا تُنَافِقُهُ
وما تُحْسِنُ الأيام أن ترزق الفتى ... وإن كان ذا حَظٍّ صديقا يوافقه
يضاحك خِلٌّ خله وضميره ... عَبُوسٌ وضاع الود لولا مرافقه (٢)

---

(١) الطيب ، عبدالله : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ط٣ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٤٠٩هـ ، المجلد الثاني ، ص (٢٢٠) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (١٠٧) .

انصب حديث المعري على شيوع النفاق بين الناس حتى إن الإنسان مهما كان محظوظًا فلن يجد صديقًا يبادله المحبة ، لذا عمد إلى التصوير الاستعاري لإبراز ذلك المعنى في صورة تنم عن اليأس وعدم القدرة على تبديل سلوك الناس ، ولَمَّا كان الضحك دليلا على السعادة فقد عَبَّرَ به عن الوجه المضيء للخليل في حين عبر عن الوجه الخفي بالعبوس ، وبهذا استطاع أن يُجَسِّدَ ما هو معنوي في صورة المحسوس فالخِلُّ واقع في النفاق ، ولكي يُبْرِزَ هذا المعنى لجأ إلى الاستعارة حيث جعل الضحك ستارًا يُخْفِي المنافق وراءه ما تنطوي عليه نفسه .

ولأبي العلاء المعري مقام فريد بين شعراء العربية من حيث أسلوبه ، حيث جاء شعره وثيق الصلة بنفسه ، فهو ذو أصالة فردية اتضحت شخصيته في شعره ، فله عالمه الخاص الذي تتحقق فيه رؤيته وموقفه الفكري وبناؤه الفني ، فتجربته الشعرية تجاوزت الحدود التي كانت تنطلق منها قصائد الشعراء السابقين ، فلم تكن تجربته تعبيرًا فحسب عن مشاعر ذاتية تنشأ لظروف خاصة ، وإنما تجربة مكثفة تستكشف موقفه من الحياة ، فالرؤيا الشعرية عند المعري اختلجت في روحه أَلَمًا ، وتَحَوَّلَتْ بقدرته الفنية إلى خصوصية في تجربة شعرية مميزة ، تدفقت فيها روح الأديب وحريته ، وبعثت في نفوسنا أَثَرًا نتذوق به إحساسه وانفعاله في مادةٍ حَيَّةٍ مؤثرة على الدوام ، يقول المعري :

تعب كُلُّها الحياة فما أَعْـ ـجَبُ إلا من رَاغِبٍ في ازْدِيَادِ [1]

حكمة تنم عن إحساسه بالغربة ، فما أشقى حياته تلك المليئة بالآلام والأحزان والمنتهية بالموت ، وما أعجب هذا الإنسان الذي يعلم تلك الحقائق يقينا ، ثم لا يكف عن التشبث بالبقاء .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله : سقط الزند ، ص (٢٤) .

يُوحِي إليك أبو العلاء المعري في ألفاظه ومعانيه أنه شاعر اكتملت فيه صفة الشاعرية صدقًا في العاطفة ، ويأتيك المعري حكيمًا في شعره بما كان له من نظر في الناس وما كان يراه في الوجود ، وما توحيه إليه نظراته إلى الدنيا والآخرة ، فتجد فيه المفكر المتفلسف الحكيم ، يقول المقدسي : " فإن لأبي العلاء المعري من دقة التأمل وصدق التضحية ومعرفة الكون ما لا تراه لشاعر القبور والنشور : كان أبو العتاهية واعظ الموت ، والمتنبي خطيب الحياة ، أما المعري فحكيم الموت والحياة " (١) ، فالمعري طلب المعالي والمكارم ، وعكف على ذاته ، وفجر مواهبه وعبقريته فيما خلف من روائع الشعر .

وقد احتل التواؤم ما بين الصورة الشعرية وبين نفسيته وتجربته الذاتية ، بحيث جاء الإخلاص والصدق الفني عنده مجسدًا في عاطفة عالية تتجسد فيها الصور بما فيها ترابط وخيال فني وإبداع ، ومن ذلك قوله :

أَيُوعِدُنَا بالروم ناس وإنما هم النَّبْتُ والبيض الرِّقاقُ سَوامُ (٢)

يرفض المعري الخوف من الأعداء ، ويَنْفُثُ في أمته القوة والحماسة ، ويستهجن تخويف المرجفين أمته ملاقاتها الروم ، وعبر عن هذا الاستهجان حين رسم صورة متقنة للمعارك مع الروم ، فهم ليسوا أكثر من نَبْتٍ ، وسيوف المسلمين هي الإبل التي سَتَلْتَهِمُ ذلك النبات .

وليس بغريب أن نرى أبا العلاء المعري بارعًا مجودًا في التشبيه الذي لا يتوقف على مشاهدة بحاسة البصر ، كقوله :

إذا أُلِفَ الشيء استهانَ به الفتى فلم يره بؤسى يُعَدُّ ولا نُعْمَى
كإنفاقه من عُمْرِهِ ومساغه من الرِّيقِ عذبا لايُحِسُّ له طعما (٣)

---

(١) المقدسي ، أنيس : أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، ط١٧ ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ١٩٨٩م ، ص (٤١٠) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٠٨) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (٢٣٥) .

وإنما الغريب أن نجد في تشبيهاته المحسوسة من الدقة والإحكام وتصوير الحركة والألوان ما يعجز عن مثله البصراء ، كقوله :

رُبَّ ليل كأنَّه الصبح في الحسـ ـن وإن كـان أسـود الطَّيْلَسَانِ
قد ركضنا فيه إلى اللهو لَمَّا وقف النجم وِقْفَةَ الحيران (١)

رسم أبو العلاء المعري صورة جميلة لليل وألح إلحاحًا واضحًا على وصف الكواكب والنجوم ، حريصًا على تحديد هيئة كل كوكب وموقع كل نجم ، وكأنه يثبت قدرته على ما يقدر عليه المبصرون . والمعري يبهر " من له دراية بالفلك ، ويحار في الدقة التي يصف بها الشاعر المجموعات النَّجميَّة وطلوعها وشروقها الواحدة تلو الأخرى ، وهو الضرير الذي حُرِم متعة النظر إلى السماء " (٢) . وقد استعان المعري بهذا الحشد من التشبيهات الطريفة المبتكرة التي كان يراها مجالا رحبًا لابتكاراته وإضافته إلى القدماء ، والتي ربط فيها بين مكتسباته الثقافية في الأدب والعلوم وبين الأحدث التاريخية والأساطير القديمة مِمَّا وعته ذاكرة هذا الشاعر . فالصورة الشعرية لا تستمد قيمتها من كون مبدعها مبصرًا أو غير مبصر ، وإنما تستمد تلك القيمة من طريقة سبكها وتركيبها وقدرتها على التعبير عن إحساس الشاعر .

الصورة الشعرية تنوعت عند أبي العلاء المعري بتنوع ثقافته وإدراكه وتجاربه ، وكانت تتألف في ذهنه وخياله من كل ما وقع عليه فكره وعقله ، وما يرتبط بكل ذلك من مشاعر ومواقف وجدانية ، استطاع أبو العلاء المعري بما ملك من إبداع أن يمزج بينها في بِنَاءٍ فَنِّيٍّ متحد الأجزاء منسجم الأطراف .

لقد نجح أبو العلاء المعري نجاحًا كبيرًا في البناء الشعري ، إذ استطاع أن يمزج بين الفكر والإحساس ، وأن يمزج بين العاطفة والصورة والأداء اللفظي بصورة جعلت القصيدة نموذجًا فنيًّا جيدًا .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٩٧) .

(٢) مشارة ، إبراهيم : أبو العلاء المعري فلكيًّا ، ٢٠١٠م ، من الموقع الإلكتروني http://www.siriusalgeria.ahlamontada.net ، بتاريخ ١٤٣٣/١/٢٥هـ .

استطاع أبو العلاء المعري بعبقريته الفنية ، وبعقله اللماح ، وبثقافته الواسعة أن يُطَوِّعَ الشعر العربي للفلسفة ، وأن يُثْبِتَ قدرته على التعبير عن أدق الآراء الفلسفية وأعمقها ، وأن يُثْبِتَ هذه القدرة له على الرغم من كل القيود واللوازم التي فرضها عليه وألزم نفسه بها ، واستطاع أن يُقَدِّمَ من أعماق هذه التجربة ديوانًا في الشعر الفلسفي ، وهو ديوان (لزوم ما لا يلزم) ، فَعَبَّرَ فيه عن أفكاره العقلية ونظرياته الفلسفية ، واعتمد في ذلك على الثقافة العربية والإسلامية ، يقول معتمدًا على ثقافته الفقهية في التعبير عن بعض فلسفته :

ما الخيرُ صومٌ يَذُوبُ الصائمون له ولاصـلاةٌ ولاصـوفٌ عـلـى الـجسـدِ
وإنـمـا هـو تَـرْكُ الـشـر مُطَّرَحا ونفضُكَ الصَّدْرَ من غِـلٍّ ومن حسدِ (١)

ويقول معتمدا على ثقافته النحوية :

وتُـرْفَـعُ أجسـادٌ وتنصب مَـرَّةً وتُخْفَضُ في هـذا التراب وتُـجزمُ (٢)

ويقول معتمدا على ثقافته العروضية :

الدَّهرُ كالشَّاعرِ الْمُقوي ونحنُ بهِ مثلُ الفواصِلِ مَـخـفـوضٌ ومـرفـوعُ (٣)

وفي أبي العلاء المعري أكثر من جانب يدعو الناس للنَّظَرِ إليه ، فهو شاعر وأديب وحكيم وفقيه وفيلسوف ولغوي وناقد ، راصد لكل مجريات الحياة ، مُصَوِّرٌ كل ذلك في أدبه ، فكان فكره يزداد مع الأيام قوةً وتماسكًا ، و" يتميز أبو العلاء باطلاع شامل قل أن نجد نظيره ، وذاكرة عجيبة تستوعب ذلك الشمول بدقائقه وتفصيلاته ، ولديه كل أدوات الناقد من ذوق وقدرة على المقارنة والحكم " (٤) ، مما جعله يَتَحَوَّلُ من شاعر يَتَخَيَّل إلى ناقدٍ يُحَلِّل ويُعَلِّل .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٢٠٦) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢١٤) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٧٧) .

(٤) عباس ، إحسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ط١ ، دار الشروق ، الأردن ، ٢٠٠٦م ، ص (٣٧٩) .

عَبَّرَ أبو العلاء المعري في شعره عما تنفعل به نفسه في مختلف ظروفها وحالاتها ، كما صَوَّرَ فيه ما يشغل تفكيره اتجاه مختلف قضايا الحياة ، فأصبح من الشعراء الذين جعلوا شعرهم صورة حَيَّة لاتجاههم الفكري والنفسي ، فالقصيدة عنده ليست لوحة جامدة لا حياة فيها ولا حركة ، ولكنها لوحة حية تفيض بالحياة والنشاط والحركة ، وهو في صياغته لا يتقيد بالتقاليد الفنية الموروثة ، ولا يجعل لها سلطانًا على فَنِّهِ يَحُدُّ من حريته وانطلاقه ، ولكنه ينطلق في تحرر كامل غير عابئ بما وَرَّثَهُ الشعراء القدماء من تقاليد أو أصول ، فهو يُعَبِّرُ عن نفسه وعن شخصيته تعبيرًا صادقًا جريئًا لا تكلف فيه ولا استحياء ، ولَعَلَّ أبا العلاء المعري كان أحد هؤلاء الشعراء القلائل الذين تظهر شخصيتهم واضحة في شعرهم .

ومن يَتَأَمَّل شعر أبي العلاء المعري يُدْرِك أن علامة الاغتراب النفسية والاجتماعية هي جزء من اغترابه الثقافي والفلسفي والعقلي ، إذ اقتضت فلسفته الفكرية أن تضعه في مواجهة الوسط الثقافي والديني الذي يحيط به ، " فقد أدرك المعري أن الهوة عميقة بينه وبين أهل زمانه ، بين إنسان حر التفكير ، عزيز النفس ، رقيق المشاعر والأحاسيس وبين مجتمع باب فيه الشر متأصل ، فمعاناته جعلته يغترب وينأى عنهم " [1] ، ومن ثم كانت صور الاغتراب لديه أسلوبًا ثائرًا عَبَّرَ فيه عن حالات تغيير الوضع الاجتماعي وفق منطلق عقله ووفق الشروط الموضوعية التي ارتضاها والتي صارت مدار نزاع فكري واجتماعي بينه وبين المجتمع .

أَلَمَّ أبو العلاء المعري بفكر العرب وثقافتهم ، واستمد من تلك الثقافة رموزها الفلسفية ومعانيها ، وكان واسع الاطلاع على ثقافات عصره شديد الاتصال بها ، حتى لَيُخَيَّلُ لمن يقرأ شعره أنه لم يكد يترك جانبًا من جوانب المعرفة في عصره إلا اتصل به واستغله في شعره ، فكانت القصيدة عنده ليست خاضعة إلى القراءة الأولى ؛ لأن رموزها ذات دلالات

---

(١) بوعافية ، حياة : الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري (رسالة ماجستير) ، ٢٠٠٨م ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة ، الجزائر ، ص (٦٨) .

فنية موغلة في الخصوصية ومرتبطة بتأمل فلسفي عميق وبتراث العرب الأسطوري والفكري القديم .

لقد استطاع أبو العلاء المعري أن يختزن في أعماقه عَالَمًا متناقضًا غريبًا يجمع بين البداوة والحضارة ، ويتداخل مع المورث العربي بأصالته وعراقته والوافد الأجنبي بطرافته وجدته وتعقيداته الفلسفية وتشكيلاته العقلية ، وبهذا استطاع أن يُقَدِّمَ قصائد حضرية في أفكارها بدوية في صياغة هذه الأفكار ، تقوم على موازنة بارعة بين الفكرة العقلية الجديدة والأسلوب البدوي المورث ، واستطاع أن يُذِيبَ العنصر العقلي في شعره وأن يمزجه بالعنصر البدوي حتى تسري في عروقه فتخلق خَلْقًا جديدًا ، فخرج على الشعر العربي بانعكاس صادق لهذا الْمِزَاجِ الغريب بين عقل الحضري المثقف الواسع الثقافة وأسلوب البدوي في أصالته الفطرية وعراقته الموروثة .

امتلك أبو العلاء المعري من الخصال الثقافية ما يتجاوز حدود محيطه الزماني والمكاني ، ليكون حاضرًا في أي مسعى منشود لمثقف يريد أن يُوَحِّدَ بين الذات والنص ، واستطاع المعري بريادة معارفه العميقة تأصيل وعي الذات وصولا إلى وعي الاختيار .

أدرك أبو العلاء المعري تَقَدُّمَ الفكر وتفاوت الأجيال في مستويات الثقافة ، وكان الناس في هذا الشأن فريقين : فريق يقول : ما ترك الأول للآخر شيئًا ، والثاني يقول : ليس آخر على العلم من قول القائل : ما ترك الأول للآخر شيئًا ، وكان هناك إلى جانب القائلين بالوقوف عند قول الأوائل من يدعو إلى نقدهم وتجاوزهم ، وأبو العلاء المعري من هذا الفريق ، وفي لزومياته دعوة للتجديد الفكري يقول فيها :

لقد صَدِئَتْ أفهامُ قومٍ فهل لها صِقَالٌ ويحتاج الحسام إلى الصَّقْلِ (١)

---

(١) المعري : أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (١٨٠) .

فالشعر عند المعري وسيلة للفكر المتأمل ، وبوتقة يسكن فيها الوجدان الصادق ، وتعبير مشع عن الحقائق ، وهو بذلك يقدم رؤية فكرية جديدة ترتكز على العقلانية والتحليل المنطقي .

اِنْطَلَقَ أبو العلاء المعري بالشعر من النِّطَاقِ الإقليمي والقومي إلى رحاب الشعر العالمي ، ونقل الشعر نَقْلَةً يجب الوقوف عندها ، حيث جاء شعره تعبيرًا عن المجتمع والطبيعة متجاوزًا حدود الزمان والمكان ، يقول الجندي : "لم يَقْصُرْ شعره على أمة واحدة ، وإنما تناول في شعره أمما مختلفة ، فَتَصَدَّى لعاداتها وآدابها وعقائدها ، ولا أعرف أحدا من الشعراء أجدر بلقب (الشاعر العالمي) من أبي العلاء المعري " (١) ، واستطاع بعبقريته الفَذَّةِ أن يرتفع بشعره إلى مستوى إنساني رفيع ، وأن يَخْرُجَ من الدائرة المحدودة إلى دائرة العالمية التي لا حدود لها عن طريق الْمُزَاوَجة بين الفن والفلسفة ، وهذه القدرة الفذة على التصرف في اللغة وإخضاعها لأفكار الفلسفة العقلية الغريبة عليها ، " فأما أبو العلاء فَذٌّ في الأدب العربي كله . وصل من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربي قبله أو بعده . ومع ذلك فأبو العلاء فَذٌّ يُعَدُّ من هذه القلة الضئيلة التي يمتاز بها الأدب العالمي الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس " (٢) ، فالمعري ظاهرة فردية نادرة عَزَّ تكرارها في تاريخ الأدب على امتداد عصوره ، فهو يُصَنَّفُ بين العشرة الأوائل من عظماء الشعر العربي قديمًا وحديثًا وفي طليعة قائمة الشعراء العالميين .

وشخصية أبي العلاء المعري واحدة من أهم الشخصيات التي تَمَّ استحضارها في لغة الشعر العربي الحديث والمعاصر ، فاختلف الناس في توظيف هذه الشخصية فمنهم من أعطاها قيمة إنسانية عظمى في تاريخ البشرية ، ومنهم من أسقطها ، ومنهم من كانوا سلبيين في استحضار شخصية المعري ولم يوفقوا في استحضارها بشكل فَنِّيٍّ رَاقٍ ، وحَسْبُ أبا العلاء المعري إنصافًا له واعترافًا بدوره في تاريخ الشعر العربي أن نُسَجِّلَ له أنه ظَلَّ على امتداد القرون يحتل قمة شامخة متميزة بين قمم الشعر العربي .

---

(١) الجندي ، محمد بن سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء ، المجلد الأول ، ص (١٥) .

(٢) حسين ، طه : صوت أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، ١٩٨٣م ، المجلد العاشر ، ص (٤٧٦) .

ولو حاولنا تتبع منزلة أبي العلاء المعري الشعرية لضاق المبحث عن الإحاطة بآراء الدارسين وأحكامهم ، وحسبنا هذه الإشارات للدلالة على ما شغله المعري من مكانه رفيعة في الشعر .

الفصل الثاني : مظاهر التقليد في شعر المعري .

المبحث الأول : التقليد في سقط الزند .

١-معنى التقليد :

كَثُرَ في الدراسات الأدبية استعمال لفظ (التقليد) و (المقلدين) ، والتقليد لغة بمعنى المتابعة ، كما هو شائع في قولنا : الأدب التقليدي والأدباء المقلدون ، وفي القاموس المحيط : "ويتقالدون الماء : يتناوبونه " [١] ، وفي الصحاح : " ومنه التقليد في الدين ، وتقليد الولاة الأعمال " [٢] ، وفي لسان العرب : " ومقلدات الشعر : البواقي على الدهر " [٣] ، فمن معانيه إذن : المتابعة للسابق ، ويُقْصَدُ منها متابعة اللاحق للسابق في العطاء الفكري وفي سائر الفنون الأدبية .

و(المحاكاة) من الألفاظ البديلة عن لفظ (التقليد) في استعمال الأدباء فإن لفظها اللغوي يدل على ذلك ، فيقال : حكيت فلانًا وحاكيته ، أي : فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله .

وقد حَظِيَ الشعر العربي على أيدي العرب أنفسهم حُظْوة واسعة ، مطاوعًا للحياة التي تحوطه ، ولكن بداوة العرب لم تكن قد فارقتهم ، ولم يكن الزمن قد أتاح لهم من نفسه ما

---

(١) الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ، مادة (قلد) ، (د.ط) ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٢٠هـ ، المجلد الأول ، ص (٤٥٧) .

(٢) الجوهري ، إسماعيل بن حماد : الصحاح ، تحقيق أحمد عبدالغفور ، مادة (قلد) ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، لبنان ، (د.ت) ، المجلد الثاني ، ص (٥٢٧) .

(٣) ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، مادة (قلد) ، ط٢ ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، لبنان ، ١٤١٨هـ ، المجلد الحادي عشر ، ص (٢٧٧) .

يكفي لاستقرار الحضارة ورسوخ مظاهرها في النفس ، بل إن ما مُنِيَتْ به الأمة كان يدعو إلى شيء من تقديس الماضي والحنين إليه وتمجيد مُثُلِهِ .

والشعر ديوان العرب ، وقد كان العرب يحفظونه ويروونه ويفاخرون بشعرائهم ، فما بالنا بالشعراء الكبار الذين كانوا يحفظون منه مئات القصائد ويروونها حتى تنطبع في قلوبهم وعقولهم ، فكيف يكونون بِمَنْأَى عن التأثير بها ؟! فتأثر الشاعر بغيره من الشعراء قد يكون أمرًا لا مَفَرَّ منه ، ولكن المعيب حقًّا أن يعيش الشاعر على تقليد غيره من الشعراء .

ثم إن التقليد والتأثر أَمْرٌ طَبَعِيٌّ حَتْمِيٌّ في بدايات الأديب والإبداعية ، فالشاعر قبل أن يَسْمُو بشعره لا بد من مروره بمرحلة التقليد ، يتأثر بالشعراء الآخرين ويحاول تمثل تجاربهم حتى يهتدي إلى نفسه وأصالته ، ومسألة التقليد والتأثر في البداية لا تلغي أصالته وابتكاره .

٢-تأثر سقط الزند بالمدرسة الجاهلية :

أ-التقليد في الشكل :

١-الهيكل العام للقصيدة :

" تخضع كل قصيدة شعرية لبناء معين يَضْمَنُ لها تماسكها . هذا البناء يخضع في أغلب الأحيان للمستوى الدلالي ، الذي نستطيع بواسطته تقسيم القصيدة إلى وحدات شعرية مختلفة المضمون ، مُتَآلِفَةِ الإيقاع والوزن ، إلا أن اختلاف المضمون والدلالة لا يعني استقلالية كل

وحدة ، بل إن هذه الوحدات متماسكة ومنسجمة فيما بينها على مستوى البنية العميقة للدلالة والرؤية الشعرية " [١] .

وقد رسم شعراء الجاهلية للقصيدة التقليدية بُنْيَةً موروثة لم يَحِدْ عنها إلا القليل منهم ، فالتزم شعراء الجاهلية بعمود الشعر من الوقوف على الأطلال ، وذكر الديار والدمن ، ويصف في أثناء ذلك حبه ، ويتغزل بمحبوبته ، ثم يذكر رحلته في الصحراء ، ويصف راحلته – ناقته أو فرسه – وصفًا دقيقًا ، ثم يذكر الغرض الذي أنشأ القصيدة من أجله من المدح ، أو الرثاء ، أو الغزل ، أو الفخر . وهي البنية الثلاثية كما ضبطها ابن قتيبة .

وخير ما يُمَثِّلُ هذه البنية الجاهلية معلقة امرئ القيس ، حيث نجده يقف على الطلل يبكي ويستبكي ويذكر الحبيب والمنزل ، إذ يقول :

قِفَا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بِسَقْطِ اللِّوى بين الدخول فحومل [٢]

ثم نجده يتغزل بمعشوقاته ، ويُسْرِفُ في الغزل الواضح الفاضح عندما يحكي لنا ما دار في يوم دارة جلجل ، ويستمر في الغزل والمغامرات الغرامية في أكثر من خمسة عشر بيتا ، ثم ينتقل إلى معاناته مع الليل ووصف فرسه ، ويستمر امرؤ القيس في وصف فرسه ورحلة صيده ويفتخر بنفسه ويصف الصحراء مطرها وأشجارها وأطيارها وسباعها .

وأكثر قصائد ديوان (سقط الزند) تنهج المنهج التقليدي للقصيدة العربية ، فكان أبو العلاء المعري " يجري على ما جرى عليه المتقدمون في بناء القصيدة " [٣] ، ونجده جاريًا على سنن الأقدمين من الوقوف على الأطلال ، ووصف الديار والمحبوبة ، فمطالع قصائده

---

(١) البشير ، سراته : تجليات الواقع في القصيدة الجاهلية البناء الشعري نموذجا ، ٢٠٠٩م ، من الموقع الإلكتروني http://www.diwanalarab.com ، بتاريخ ١٤٣٣/٤/١٥هـ .

(٢) امرؤ القيس ، حندج بن حجر : ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، ص (٨) .

(٣) السامرائي ، إبراهيم : مع المعري اللغوي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، ١٤٠٤هـ ، ص (٢٠٣) .

ظَلَّتْ على الرغم من كل التغيرات محافظة على عناصر ثابتة تختفي وتظهر من جديد ، يقول المعري :

مغاني اللّوَى من شَخْصِكِ اليوم أطلالُ وفي النوم مَغْنًى من خيالك مِحْلالُ (١)

ففي مطلع هذه القصيدة يقف على الأطلال ويذكر طيف الأحبة ، ويقول مستهويًا إن منازلها خالية منها آثار قائمة ، ولكن لخيالها في نومه منزلا محلالا ، فمغاني محبوبته لم يبق منها سوى الأطلال ، وأما معانيها فهي على أكمل حال ، " فمشهد القفر المكاني يعني علامة من علامات الموت . فالطلل يجعل الشاعر شاهدًا حَيًّا على صورتين : صورة الحياة وصورة الموت الراهن ، وتماوج النفي بين نقيضين يزيد من حيرة الشاعر ويجعله يرسخ سطوة النسق المكاني ، فقد أوجد وسيلة ناجحة أخرجته من دائرية الانغلاق وسلطة المكان بحالة حلم " (٢) . فأشعر المتلقي بشعور الأنس في مكانه الخاص على الرغم من سلبية المكان ووحشته ، فيتشكل شعور بالحب للمكان الخاص ، وشعور بالكره للمكان العام ، ثم نجده يتغزل بمحبوبته ، ويسرف في الغزل بها وبريقها وبفمها ، ويذكر أن طَيْفَهَا يزوره سواء أكان مسافرًا في البحر أم في البر ، ويتحدث عن قومها وديارها إلى البيت الخامس والعشرين ، ثم ينتقل المعري إلى وصف الحمامة التي تَغَنَّتْ ببغداد في دار سابور ، فيقول :

وغَنَّتْ لنا في دار سابور قَيْنَةٌ من الوُرْقِ مِطْرَابُ الأصائل مِيهَالُ (٣)

فأيقظت فيه الشجن وحركت لاعِجَ الشوق ، وهو الغريب عن دياره ، لا خِلٌّ ولا أنيس ولا مال ، ثم يشير في البيت الثالث والثلاثين إلى الفتنة التي كانت نشأت بالشام ، فيقول :

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢١٩) .

(٢) الديوب ، سمر : جماليات النسق الضدي في شعر أبي العلاء المعري أنموذجا ، مجلة اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، العدد العاشر بعد المئة ، السنة الثامنة والعشرون ، ١٤٢٩هـ ، من الموقع الإلكتروني http://www.awu-dam.org ، بتاريخ ١٤٣٣/٥/٢٥هـ .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٢١) .

أَتُبْصِرُ نارًا أُوقِدَتْ لخويلد ودون سناها للنَّجَائِبِ إِرْقَالُ [١]

ثم ينتقل إلى الغرض الذي من أجله أنشأ القصيدة وهو ما أصابه في بغداد من كوارث ومحن وحنينه إلى العودة لوطنه ، فيقول :

فَأَذْهَلُ أني بالعراق على شفا رَزِيّ الأماني لا أنيس ولا مالُ [٢]

فيشير إلى أنه كان قريبًا من الموت ضعيفًا بعيدًا عن أهله وأقاربه ، ويتحدث في أثناء ذلك عن حنينه إلى وطنه ، فهو مضطرب لا يقر له قرار وملتبس بالهم ليله ونهاره ؛ فكلما دخل الليل حَنَّ إلى وطنه حتى جن ، ومتى جاء النهار ، ونظر في السراب ولمعانه زاد قلبه خفقانًا ، ثم يختم أبياته في القصيدة بمخاطبة وطنه الذي أزعج عنه على الرغم منه ، شاكيًا إليه الضر وسوء الحال الذي آل إليه في العراق ، ولئن لم يقيض للشاعر أن يكحل عينيه برؤية وطنه فليكن اللقاء في الآخرة .

ومن بين القصائد التي اِتَّبَعَ فيها المعري المباني الجاهلية نجد قصيدة مدحه الفُصَيْصِيّ ، إذ بدأها بمقدمة غزلية طويلة على طريقة الجاهليين ، لِيَخْلُصَ من بعد إلى الغرض الأساسي وهو مدح الفُصَيْصِيّ ، يقول المعري :

يا ساهر البرق أيقظ رَاقِدَ السَّمُرِ لَعَلَّ بالْجِزْعِ أعوانا على السَّهَرِ [٣]

ففي مطلع هذه القصيدة بدأ بالنسيب على طريقة القدامى ، ويفيض في وصف محاسن الحبيبة البدوية حتى البيت الواحد والعشرين ، ثم انتقل إلى مخاطبة الناقة التي حملته إلى الممدوح ، فيقول :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٢٢) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٢٢) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٦٧) .

بـاهـت بمَـهْـرَةَ عـدنانًا فقلـت لـهـا لولا الفُصَيْصِيّ كان المجد في مُضَـرِ (١)

وينتقل بعد ذلك من المدح الفردي إلى الجماعي ليُشِيدَ بقوم الممدوح وآبائه وأجداده في البيت التاسع والعشرين بقوله :

يا ابنَ الألى غيرَ زَجْر الخيل ما عَرَفُوا إذْ تَعْرِفُ العُرْبُ زجر الشَّاء والعكـرِ (٢)

فهم الطراد للخيل العتاق ، وهم المقرون للأضياف الموقدون النار يهتدي بها الفوارس الشجعان ، وسرعان ما يعود إلى مدح الممدوح في البيت الواحد والأربعين فيحوطه بالله من أعين الحساد لشجاعته وظفره بالأعداء فيقول :

أعـاذَ مَـجْـدَكَ عَبْـدَاللهِ خـالـقـه مِـنْ أعين الـشُّهْبِ لا مِـنْ أعين البشرِ (٣)

ثم ينهي قصيدته المدحية بأبيات لا تخلو من المبالغة والإسراف في إضفاء صفات غير ممكنة ، متمنيا له السعادة والمجد وطول العمر .

اِهْتَمَّ أبو العلاء المعري بحسن المطلع ثم حسن التخلص ثم حسن النهاية ، وهو ما ينطبق على هيكل القصيدة لديه بعامة ، ونلاحظ أن القصيدة عنده ذات موضوعات ومحاور يتصل أحدها بالآخر بروابط ، أهم هذه الروابط حسن التخلص الذي كان يتخذ منه سبيلا للمس محور آخر والدخول فيه ، ومن ذلك قوله :

أَعَنْ وَخْدِ القلاص كـشـفـت حـالا ومـن عـنـد الـظـلام طَـلَـبْـتِ مـالا (٤)

ففي مطلع هذه القصيدة يصف الرحلة والراحلة فالقلاص النوق الفتية ، والمخاطبة للنفس " أي تكشفين حال وخد القلاص ، وتطلبين مالا من عند الظلام ؟ وهذا استفهام ، في معنى

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٦٩) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٦٩) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٧٠) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (٦٠) .

الإنكار " [١] ، ويستمر في الوصف حتى يُوَجِّهَ الخطاب إلى النوق ، ويمضي في وصف النوق ورحلته إلى أن يخرج إلى موضوعه المباشر وهو المدح والتهنئة الذي من أجله أنشأ هذه القصيدة ، فالمعري وصف رحلته والراحلة حتى البيت التاسع ، وانتقل إلى الممدوح بتخلص حسن في قوله :

سألن فقلت مَقْصِدُنا سعيد فكان اسم الأمير لَهُنَّ فالا [٢]

فذكر المعري شجاعة الممدوح وصورها وأسبابها من قسي وسوابق جياد ، ثم يستطرد في وصف الجياد ونشأتها مع النعام وسرعتها وذكر أوصافها فيقول :

نَشَأْنَ مع النعام بكل دَوٍّ فقد أَلِفَتْ نَتَائِجُها الرِّئالا [٣]

ثم يعود إلى الممدوح في البيت الخامس والعشرين فيصفه بذكاء القلب وبالكرم والعدل ، ثم يذكر الليل وما فيه من طيف وخيال ، ويستطرد مرة أخرى في وصف الجواد الذي أيقظ الركب بصهيله ثم يأتي إلى ذكر البرق في المعرة ويصف حنينه إلى الوطن الذي نشأ فيه فيقول :

سَرَى بَرْقُ المعرة بعد وَهْنٍ فبات بِرَامةٍ يصف الكَلالا [٤]

ثم يعود إلى الممدوح ويذكر صفاته وشجاعته حتى البيت الثاني والستين ، ثم يستطرد في وصف سيف الممدوح حتى البيت الخامس والسبعين ، ثم يعود إلى الممدوح فينهي القصيدة بذكره في قوله :

---

(١) الخطيب التبريزي ، يحيى بن علي : الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط١ ، دار القلم ، سوريا ، ١٤١٩هـ ، المجلد الأول ، ص (٥٩) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٦٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٦١) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (٦٣) .

وَمُـرْ بـفـراق شيمتها الليالي تُـجِبْكَ إلى إرادتـك امتثالا [١]

بذلك أعلن المعري انتهاء قصيدته التي بلغت واحدًا وثمانين بيتًا ، وقد رأيناها تمتد وتنتقل من غرض إلى آخر إلا أن المعري حاول أن يجد رابطا يَصِلُ أجزاءها يصطنعه بحسن تعليله أحيانًا ، وأحيانًا يجعل من استطراده فرعًا من أصل حديثه عن الممدوح كما فعل في وصف سيفه ثم عاد إلى الممدوح .

لقد أحسن أبو العلاء المعري نهايات قصائده ، كما أحسن القول في مطالعها ، فمطالع قصائده كانت موفقة في معظمها ، إذ حسن المطلع ثم حسن التخلص ثم حسن النهاية ثلاث قضايا كانت تكون بناء القصيدة الجيدة وهيكلها المتناسق في الشعر القديم ، فالوحدة العضوية في شعرنا العربي كانت في الغالب تَتَمَثَّلُ في البيت أما القصيدة فتَجْمَعُهَا وحدة الوزن ووحدة القافية .

٢-المادة اللغوية (الشكل اللغوي) :

اِتَّسَعَ قاموس أبي العلاء المعري لمفردات اللغة اتساعًا قليل المثال في تاريخ شعراء العربية ، كما أشرنا سابقا إلى قول تلميذه التبريزي [٢] ، والشعراء قبل المعري منهم من اتسع قاموسه اللغوي ووعى مفرداته ، غير أن استخدامهم للمفردات لم يكن من أغراضهم الملازمة ، أما المعري فاستخدم اللغة استخدامًا يخدم فنه وغرضه .

استطاع أبو العلاء المعري أن يستوعب القسم الأكبر من المعجم العربي فيصرفه في أسجاعه وقوافيه ، وقد ساعده على ذلك ذاكرته وحبه في القراءة والاطلاع ، " فثقافة أبي العلاء الفنية مُسْتَمَدَّةٌ من جميع ما عرفه العرب ... وفنه في اللغة والنحو والصرف

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٦٦) .

(٢) ينظر الفصل الأول من البحث ، ص (١٥) .

والعروض ... " [١] ، فالعلوم اللغوية هي أظهر الفنون التي درسها المعري ، فقد كان واسع الاطلاع على اللغة وسننها وشواردها .

ألفاظ أبي العلاء المعري يغلب عليها طابع البداوة ، فقد كان يميل في شعره إلى استخدام الألفاظ البدوية ، ومن ذلك قوله :

جـاء الـربيع وَاطّبـاكَ الْـمَرْعَـى واسْتَنَّتِ الـفـصـال حـتـى الـقَـرْعَـى [٢]

فهذا نموذج بسيط يؤكد أن ألفاظ المعري كانت أقرب إلى البداوة على الرغم من حَضَرِيَّةِ المعري وعَبَّاسِيَّتِهِ في مجال الألفاظ ، فإنه يُرَى أنه كان مقلدًا للبداوة .

وقد أَكَّدَ الدكتور طه حسين وجود النَّزْعَةِ البدوية في ألفاظ المعري ومعانيه وتقليد السابقين في ذلك ، إذ يقول : " رأيناه يتشدد في محاكاة الأقدمين من العرب . فيؤثر الألفاظ البدوية الجزلة ، والمعاني البدوية الفخمة ، ولا يَتَحَضَّرُ في شعره إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرار ، فهو إذا كتب إلى خازن دار العلم ابتدأ قصيدته على طريقة أهل البادية فقال :

لمن جيرة سِيمُو النوال فلم يُنْطُوا يُـظَلِّلُـهُـم مـا ظـل يُنْبِتُـهُ الـخَـطُّ
رَجَوْتُ لـهم أن يـقـربوا فـتباعـدوا وأن لايَـشِطُّـوا بالـمـزار فـقـد شَـطُّـوا
يـمـانـون أحـيـانـا شـآمـون تـارة يُـعالُـون عـن غَـوْرِ الـعـراق لِيَنْحَطُّـوا
بـنـازلـة سَـقْـطَ الـعـقـيـق بـمـثـلـهـا دعا أدمع الكندي في الـدِّمَنِ الـسقطُ [٣]

فانظر إليه ألست ترى منه في مرآة هذا الشعر أعرابيا في طمريه يحدو بلفظ الجزل " [٤] ، فَحَرِصَ المعري على بداوة اللفظ وآثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي .

---

(١) عبود ، مارون : أبو العلاء المعري زوبعة الدهور ، ط٤ ، دار الثقافة ودار مارون عبود ، لبنان ، ١٩٨٠م ، ص (٢٧) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبد الله : سقط الزند ، ص (٢٨٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (١٦٧) .

(٤) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (٢٠٢) .

ونجد أبا العلاء المعري جاريًا على سنن الأقدمين من الشعراء فيكثر في شعره ذكر النياق والمطايا ، ومما يلازم ذكر المطايا ذكر السيف والرمح والدرع ، ومما يبرز في شعره ذكر الضواري والطيور والأرقم والقطا والنعام والنسر والغراب ، يقول المعري :

طـار النّـواعبُ يـوم فـاد نـواعيـا فَنَـدَبْنَـهُ لـمـوافـقٍ ومـنـافِ (١)

حيث اتخذ المعري من الغراب رمزًا للتعبير عن صور الرثاء وأطال الحوار معه وأطال أوصافه . ويقول المعري :

أَعَـاذِلَ إن صُـمَّ الـقنـا عـن نـعيـه فـوا حسدا مـن بعده للـقنـا الصُّـمِّ
بكى السيف حتى أَخْضَلَ الدمع جفنه على فـارس يُرْوِيهِ من فارس الدُّهمِ (٢)

أدخل المعري الرمح والسيف فرعين في محور الحياة والموت بوصفهما رمزين لشجاعة المرثي فيكونان من المحاور اللغوية بتعديده أوصافهما وخصائصهما في حياة المرثي .

لقد بدأ الليل في حياة المعري منذ السنة الرابعة من عمره فبدت مأساته التي لم تفارقه حتى آخر لحظاته ، فإحساسه الحاد بالليل والسواد وفقد البصر ثم بالنهار والضوء والبصر من أكثر ما تردد في شعره وإن كان التصريح بذكر العمى لم يرد كثيرًا في (سقط الزند) إلا أننا نلمح حدة إحساسه بذلك في مواضع من السقط ، وقد صَرَّحَ بمأساته وتَمَنِّيهِ أن يكون له بصر في قوله :

فَـلَـيْـتَ الليـالي سـامحتني بنـاظـرٍ يراك ومن لي بالضّحَى في الأصـائلِ
فـلـو أن عـيني مَـتَّعَتْـهَا بنـظـرة إليك الأمـاني ما حَـلُمْتُ بـغـائلِ(٣)

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٤٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٣٥-٣٦) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (١٤٧) .

هذه المأساة التي عاشها المعري ، وشعوره الحاد بها ، جعل أكبر محاور قاموسه الليل والنهار وما لازمهما وتابعهما وقارنهما من ألفاظ وصفات ، فالليل وتوابعه وصفاته وألوانه وحالاته ثم النهار وتوابعه ولوازمه كل ذلك كان المحاور الرئيسة في قاموسه ، فما ذكر الليل أو الظلمة إلا وذكر ما يناقضها ويقابلها من نهار أو لمعان وكأنه يريد أن يخرج من ليله ولو بخياله .

كان شعر أبي العلاء المعري حافلا بالثقافة اللغوية بصورة لافتة ، فقد كان شديد الاهتمام باللغة ، واسع الإحاطة بها ، بارعًا في التعامل مع المفردة اللغوية أو مع اللغة وكأنها كائن حي ، فله قدرة فذة على التصرف بها ، والمتأمل شعره في (سقط الزند) يجده يبحث في حقائق اللغة ، وينقب عن أسرارها ، ويقلب وجوه الألفاظ ومعانيها ، فأحاط المعري بمفردات اللغة ، وشواردها ، ونوادرها ، واطلع على أساليب البلغاء ، وأسرار البلاغة ، فإذا حاول أن يأتي بمعنى وجد لديه الكلم الصالح للدلالة عليه والأساليب اللائقة لإفراغه فيها .

اِهْتَمَّ أبو العلاء المعري بألفاظه وانتقائها اهتمامًا عظيمًا ، وقد اِسْتَحْسَنَ الجندي استخدام المعري للألفاظ وأَكَّدَ أن في شعره " طائفة كثيرة من الألفاظ ، كل منها مُقَدَّرٌ على قَدْرِ المعنى ، ولا يستطيع أحد ثان أن يجد في اللغة على سعتها خيرًا منها أو ما يقوم مقامها كقوله : ...

وقوله :

تكاد سوابقٌ حملته تُغْنِي عن الأقدار صَوْنًا وابتذالا (١)

وقوله :

نهارٌ كأن البدر قاسى هَجِيرَهُ فعاد بلون شاحب من سِهَامِهِ (٢)

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٦١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٠٥) .

وقوله:

ونحن السَّفْرُ في عُمْرٍ كَمَرْتٍ تصافن أهله جُرُعَ الحمام [١]

.... فكل من كلمة ... ((الصون والابتذال)) ... ، و ((السهام)) ...و((تصافن)) ... ، لا يجد الإنسان خيرًا منها في موقعها ، ولا ما يقوم مقامها ، وهذا النوع كثير في شعره" [٢] .

٣-التقليد في الأسلوب والصورة الشعرية :

والمعري في (سقط الزند) جزل الأسلوب ، ومتين التركيب ، وفخم العبارات ، فقد احتفل بالجانب المظهري فأصبحت الرصانة أو الجزالة أو متانة السبك هي السمة الغالبة في شعره ، وجمعت أبياته بين أناقة التأليف ، وحسن الانسجام ، ورشاقة الألفاظ ، ونبل المعاني ، ومن ذلك قوله :

ألا في سبيل الْمَجْدِ ما أنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحَزْمٌ ونائلُ [٣]

نموذج لأسلوبه الشعري الذي يَتَّكِئُ على ثقافة لغوية عريضة ، وقدرة على التصوير ، وجودة في الأفكار ، وجاءت صياغته الفنية تعبر عن تجارب فكرية وشعورية عميقة لإحساسه بالصدق الفني من خلال وضوح تجربته ورؤيته للحياة من مختلف جوانبها الفكرية والاجتماعية .

اتخذ أبو العلاء المعري الشعر العربي القديم مصدرًا يستمد منه صوره ، فالتراث الشعري القديم من أهم مصادر الصورة عنده ، لذلك نجد كثيرًا من صوره ترديدا لآثار قراءته وتوليدًا مما استخدم قبله من الشعراء التي لم يكن ليستطيع أن يُبْدِعَهَا بطريقة أفضل لو اعتمد على نفسه فحسب ، فقد كان مُقَلِّدًا للشعراء الجاهليين في معانيهم وصورهم الشعرية .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٥٤) .

(٢) الجندي ، محمد بن سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء المعري ، المجلد الثاني ، ص (٩٣١-٩٣٣) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٨١) .

وصور أبي العلاء المعري الشعرية غلب عليها طابع البداوة ، فقد تَفَنَّنَ في تصوير الإبل وحنينها ، وكأنه ينطق على لسانها ، ويتعاطف معها ، وتَخَيَّلَ حنينها ورغاءَها تلاوة زبور أو إنشاد شعر ، يقول المعري :

تَـلَـوْنَ زبـورا في الـحنين مُـنَـزَّلا عـلـيـهـن فـيـه الـصبر غير حَـلالِ
وأنشـدن من شـعر المطايا قصيدة وأودعنها في الشوق كُلَّ مقالِ (١)

وكان الدرع من أكثر الأشياء التي التفت المعري إلى تصويرها ، فَضَمَّنَ قصائده ثروة ضخمة من مجازات العرب القدامى ، يقول المعري :

وقـد أَهْـوَتْ إلى درعـي لميسٌ لِتَـمْـلأ مـن جـوانبـها الإِدَاوهْ (٢)

فشبه الدرع بالضحضاح من الماء ، وصورة طريفة للجارية تريد أن تملأ أداوة الوضوء فتلمس الدرع تظنها الماء .

وتشبيه الدرع بالماء من الصور التقليدية في الشعر العربي القديم ، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها قول النابغة في وصف الدرع :

عُـلِينَ بِكِـدْيَـوْنٍ وأُبْـطِـنَّ كَـرَّةً فَهُـنَّ وضـــاء صـافيـاتُ القلائلِ (٣)

وقد اعتمد أبو العلاء المعري على الماء في كثير من صوره وهي ظاهرة واضحة في شعره ، فهو إلى جانب تصويره الكثير للدرع بالماء يصف الصباح بالماء أيضًا في مثل قوله :

أفاضَ على تاليهما الصُّبْحُ مـاءهُ فغير من إشـراق أحمـر مُشْبَعِ (٤)

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٣٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٨٥) .

(٣) النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية : ديوان النابغة الذبياني ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٤١١هـ ، ص (١٥٦) .

(٤) المعري ، أحمد بن عبد الله : سقط الزند ، ص (١٥٩) .

فالآفاق تَحْمَرُّ في أول النهار فإذا قَوِيَ ضوء الصباح ذهبت الحمرة ، فجعل الصباح كأنه ماء غسل تلك الحمرة .

ويُوَسِّعُ أبو العلاء المعري دائرة استخدامه للماء فينقله إلى الإبل ، إذ يقول :

سَرَتْ بيَ فيه نـاجيات مِياهُـهَـا تَجِمُّ إذا مـاء الركـائب غـارا (١)

حيث إن الإبل كلما جَهِدَتْ في السير أخرجت الجَهْدَ منها أضعاف ما مضى ككثرة الماء إذا جَمَّ .

وهذا تأكيد استخدام الماء في تشكيل الصور وخاصة من خلال وصف الدرع بالماء ووصف الصباح به أيضًا ، وينبغي أن لا يُنْظَرَ إليه في كل الأحوال على أنه من قبيل التعبير التقليدي أو التصوير العادي ؛ لأنه من الممكن أن نعثر على دلالات خصبة إذا عرفنا الأشياء التي يرتبط بعضها مع بعض في تفكير المعري ، ففي الأبيات التي ورد فيها وصف الدرع بالماء يبدو عنصر الأنوثة على شيء كثير من الوضوح .

كان خيال المعري خصبًا وإحساسه مرهفًا ، وكثيرًا ما كانت صوره تُؤَلِّفُ مواضع متوهجة في بناء القصيدة لديه ، يقول المعري :

عَلِّلاني فـإن بِيضَ الأمـانـي فَنِيَتْ والظلام ليس بفاني (٢)

قصيدة طويلة يشغل الوصف مقدمتها ، حَلَّتْ فيها الألفاظ الراقصة والموسيقى العذبة محل الألوان والظلال وتواكبت فيها التشبيهات البديعة ، يصف المعري فيها الليل والنجوم وصفًا يبلغ درجة كبيرة من الروعة والإبداع ، فهو يَرْسُمُ صور النجوم وأوضاعها وأحوالها ، فالهلال يَهْوَى الثريا ، وسهيل كوجنة الحب في اللون وقلب المحب في الخفقان ، وهكذا نرى خياله في رسم الصور الوصفية والتجريدية ، فقد ألح المعري إلحاحًا واضحًا

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١١١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

على وصف الكواكب والنجوم وكان حريصًا على تحديد هيئة كل كوكب وموقع كل نجم ، وكأنه يثبت قدرته على ما يقدر عليه المبصرون ، فالمعري رغم فقد حاسة البصر لم يفقد بعض مدركاتها إما حقيقة أو تصورًا يعوضه ما فقد ويَخْلُقُ له بعض الثقة .

٤-التقليد في الموسيقى الشعرية :

تُعَدُّ الموسيقى الشعرية بما تحمله من وزن وقافية وإيقاع من العناصر الأساسية في البناء الفني للشعر ، بحيث لا ينفك منها ولا يمكن الاستغناء عنها ؛ لأنه دونها يفقد قيمته وأثره ، ومن البدهيات أن الوزن والقافية يمثلان المظهر الموسيقي في القصيدة ، وأن وحدتهما هي سر إحساسنا بجمال إيقاع الشعر ، فالنفس طبعت على التلذذ بتكرار النغمة الواحدة في العمل الأدبي ، والوزن والقافية ليس قالبًا فحسب يصب فيه الشاعر تجربته ، وإنما هو جزء لا يتجزء من العمل الفني ، وذلك لأن الموسيقى ليست زينة عارضة أو حلية ثانوية ، وإنما عنصر مهم ولازمة في إقامة البناء الشعري ، ولا شك في أن موسيقى الشعر لا تتشكل فحسب من الوزن والقافية لأن هناك ألوانا من الإيقاع تعرف بالموسيقى الداخلية أو الخفية لها أهميتها في هذا المجال وبخاصة عندما يلتحم كل منها في نسيج القصيدة الكامل .

والعمل الفني لا ينفصل فيه الشكل عن المضمون ، وهذه الحقيقة تؤكد أن الوزن ليس قالبًا خارجيًّا فحسب يَصُبُّ فيه الشاعر تجربته ، ويفرضه على تلك التجربة فرضًا ، وإنما هو جزء لا يتجزأ من العمل الفني ، فالوزن ليس حدًّا شكليًّا فحسب ، ولكنه اتساق للألفاظ في نظام موسيقي خاص يمنحها قدرة على الإيحاء والتصوير .

اشتمل ديوان (سقط الزند) على ثلاث عشرة ومئة قصيدة أو مقطوعة منها سبع وثمانون قصيدة وست وعشرون مقطوعة ، موزعة بنسب متفاوتة بين عشرة بحور عروضية وفي مقدمتها يأتي الطويل ، فثلث شعر (سقط الزند) من البحر الطويل فهناك ست وثلاثون قصيدة من الطويل ، وتسع عشرة من الكامل ، وسبع عشرة من الوافر ، واثنتا عشرة من البسيط ،

وإحدى عشرة من السريع ، وتسع في الخفيف ، وأربع في المتقارب ، وثلاث في المنسرح ، وفي مخلع البسيط واحدة ، وفي الرجز واحدة .

وهكذا يبدو أن أبا العلاء المعري كغيره من الشعراء السابقين لم يُحْدِثْ أوزانًا جديدة في الشعر ، وأنه قد آثر في الأغلب ما آثره شعراء العربية من سابقيه من أوزان يغلب عليها الطويل والبسيط والكامل والوافر .

إن موسيقى القافية من أسس بناء القصيدة العربية في إطارها التراثي ، فهي ركيزة البنيان الإيقاعي في شعرنا العربي ، ولا ننكر الصلة الوثيقة بين القافية وموسيقى الشعر ، فهي من العناصر الأولى في إيقاعه ، ولَعَلَّ قيمة القافية في الإيقاع هي ضبط خطواتنا في القراءة أي مساعدتنا على تحديد الأجزاء أو المقاطع التي تكون وحدة البناء في القصيدة ، وهي إلى جانب ذلك تكسب الكلام إيحاءً خاصًّا وظلالا موسيقيَّة وتضيف القافية بموسيقاها قوة إلى الموسيقى التي يُحْدِثُها الوزن . وقد بدت القافية في ديوان (سقط الزند) من مصادر الموسيقى الهامة فهي صورة من صور التزام شكل القصيدة وإيقاعها الموسيقي .

والناظر في استخدام أبي العلاء المعري للحروف رَوِيًّا يرى أنه في ديوان (سقط الزند) كان يُكْثِرُ من استخدام الحروف التي تجيء رَوِيًّا بكثرة في أشعار الشعراء السابقين كاللام والراء والميم والنون والدال والعين ، والحروف التي لم يستخدمها رَوِيًّا كالثاء والشين والخاء والذال والظاء والغين ، فإنها من الحروف النادرة الشيوع في كثير من أشعار العرب ، وقد تحاشاها أبو العلاء المعري في ديوانه (سقط الزند) وربما كان ذلك من أثر التقاليد الفنية .

وحرف الروي في الشعر يجيء متحركًا أو ساكنًا ، وقد قَسَّمَ القدماء القافية تبعا لذلك إلى قسمين : مطلقة وهي التي يكون فيها حرف الروي متحركًا ، ومقيدة وهي التي يكون فيها حرف الروي ساكنًا ، وقد كانت القافية المطلقة في أشعار

(سقط الزند) هي الأكثر والأغلب على القافية المقيدة ، وكان من أوضح الحروف الساكنة الهاء ، يقول المعري :

عليك السَّابِغَاتِ فإنهنه يُدافِعْن الصوارم والأسِنَّهْ (١)

تَفَنَّنَ المعري في استعمال هاءات السكت ، فهاء السكت هذه التي في العروض والضرب تَمْنَحُ البيت قوة معتدلة هي الجزالة بنفسها .

ويبدو أن نُدْرَةَ استخدام المعري للقوافي المقيدة لا تُعْزَى إلى تقليد القدامى بقدر ما تُعْزَى إلى حرصه وحرص الشعراء القدامى على تحسين موسيقى أشعارهم ، فقد كانوا يتجنبون أي وقفة مفاجئة على قوافيهم ، إذ كانت الحروف المتحركة تُتِيحُ لهم أن يحققوا لأبياتهم نهايات أفضل من تلك النهايات التي تتيحها لهم القوافي الساكنة وأكثر منها رقة .

من الواضح أن موسيقى الشعر لا تتحقق من الإيقاع العام الذي يتولد من الوزن والقافية فحسب ، ذلك أن وراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية ، فليس الوزن والقافية كل موسيقى الشعر ، فموسيقى الشعر لا تتشكل من الوزن والقافية ، فهناك ألوان من الإيقاع تسمى الموسيقى الداخلية لها أهميتها في هذا المجال .

وقد أدرك أبو العلاء المعري ما يَتَطَلَّبُهُ الشعر من تنعيم ، فوفر كل ما يعين على تجويد الرنين في شعره ، وشعر (سقط الزند) يَحْفِلُ بالعديد من الأنماط الموسيقية التي ينفرد كل منها بجمال خاص يزيد من إحساس المتلقي بالرنة الموسيقية للقصيدة ، فالصوت " ظاهرة طبيعية نُدْرِكُ أثرها قبل أن نُدْرِكَ كُنْهَهَا " (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٣١٦) .

(٢) أنيس ، إبراهيم : الأصوات اللغوية ، (د.ط) ، نهضة مصر ، مصر ، (د.ت) ، ص (٥) .

والتكرار ظاهرة من ظواهر الشعر القديم والحديث ، يقوم على تفجير الجديد من الطاقات الدلالية ، على عكس ما قد يوحي به في الظاهر ، حيث إنه " يساهم في توسيع المدلول تكثيفًا أو تخفيفًا أي مدى وعمقًا " (١) ، ولقد اتخذت هذه الظاهرة مجالها في بناء القصيدة لدى المعري في كثير من المواقف والمواضع ، فلقد استخدمها بكل ألوانها وأشكالها المعروفة فاستخدم التكرار اللفظي والتكرار المعنوي في مجال الألفاظ والعبارة ثم التكرار في الصور والتشبيهات ، فضلاً عن تكرار الحروف ، وبناء على هذا التشكل الإيقاعي ، ندرك الأثر الصوتي في إحداث البعد الإيقاعي ، وفي تكثيف العلاقة بين الدال والمدلول ، ولعل التكرار تَجَلٍّ واضحٌ لإحداثيات الإيقاع في النص الشعري ، وقد ظهر التكرار جَلِيًّا في المعالجة الصوتية ، إذ تَمَثَّلَتْهُ بعض قصائد المعري حرفا وكلمة وتركيبا ، فهو يرى على سبيل المثال في حرف السين منبها إيقاعيًّا وصوتيًا لإظهار الواقع ، إذ إن حرف السين شديد الوقع ويلفت الانتباه فهو احتكاكي مهموس ، يقول المعري :

إنَّ حُزْنًا في ساعة الموت أَضْعَـا فُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ (٢)

فالاتساق واضح بين البنية الصوتية التي تتكرر في صوت الحرف وما تنبثق عنه من دلالة من جهة ، والحالة المهيمنة من جهة أخرى ؛ إذ عَبَّرَ الاحتكاك والهمس عن لفت النظر تجاه التقابل بين حالتي الموت والحياة . ويقول المعري :

مَـعـانٌ مـن أحـبتـهـا مَـعـانُ تُجِيبُ الصاهلات به القيانُ (٣)

فكلمة (معان) الأولى موضع بعينه ، أما كلمة (معان) الثانية فهو المنزل أو المكان المعمور الذي كثر فيه الناس ، والتكرار هنا للتجنيس الذي يراد به انسجام موسيقى البيت . ويقول المعري :

---

(١) الطرابلسي ، محمد الهادي : خصائص الأسلوب في الشوقيات ، (د.ط) ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٨١م .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٤) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٧٣) .

تكـاد سُيُوفُهُ مـن غير سَـلٍّ تُجِدّ إلى رقـابهـم انْسِلالا (١)

إن الاختلاف الصوتي ينوع الموسيقى وينوع معاني الإيحاء ، يقول المعري :

عَـلِّلاني فإن بيض الأمـــاني فَنِيَتْ والظلام ليس بفاني (٢)

فالمد في كلمة (عللاني) تناسب شكواه من فناء آماله ، على حين خلت كلمة (فنيت) من المد لتحاكي انقضاء الآمال ، فهي تقع سريعة في النطق لتدل على الفناء السريع ، وكلمتا (الأماني) و(بفاني) يمتد فيهما الصوت ليحدث تضادًّا بينهما وبين كلمة (فنيت) ، والمد في كلمتي (الظلام) و(فاني) يُوحِي الصوت إيحاءً قويًّا بأن هذا الظلام مُمْتَدٌّ لا نهاية له ، فَصِلَةُ المعري بالموسيقى وبالإمكانات الصوتية للغة لم تكن فحسب صلة الشاعر بعنصر من عناصر إبداعه ، بل كانت صِلَةَ العَالِمِ المتمكن بمجالات عمله وآفاق تَخَصُّصِهِ .

ب- التقليد في الأغراض والمعاني الجزئية :

يقوم التصور المنهجي في هذه المسألة على التمييز بين الغرض والمعنى الجزئي . فالغرض الشعري هو الهدف الذي يسعى إليه الشاعر في قصيدته أو الفن الذي يريد أن يعرضه ، وأغراض الشعر العربي القديم خمسة : المدح والهجاء والرثاء والفخر والنسيب . ونجد ابن سلام يذكر لفظة (بيوت) بوصفه مرادفًا للغرض الشعري فيقول : " بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومديح ، ونسيب ، وهجاء " (٣) ، وتطالعنا لفظة (الأركان) وذلك في قول ابن رشيق : " بُنِيَ

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٦١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

(٣) ابن سلام الجمحي ، محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه محمود شاكر ، (د.ط) ، مطبعة المدني ، القاهرة ، (د.ت) ، المجلد الأول ، ص (٣٧٩) .

الشعر على أربعة أركان ، وهي : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والرثاء " [١] . والمعاني الجزئية هي كل غرض جزئي ورد في شكل وسيلة لغرض أكبر منه ، فالوصف في الجاهلية مثلا كان أسلوبًا ووسيلة مهد لغرض المدح ، وكذلك نجد الحماسة والحكمة والكرم فهي كلها معانٍ جزئية يُوَظِّفُهَا الشاعر لخدمة الغرض الأصلي .

١- الأغراض :

للشعراء سنن متبعة يقتفي المتأخر منهم أثر المتقدم ولهم أغراض محدودة لا يتعدونها، وأبو العلاء المعري في هذا الديوان غلب عليه أسلوب الجاهليين في بعض أغراض الشعر ، ودَرَجَ على الطريقة التي دَرَجَ عليها الشعراء الجاهليون ، فنظم في الموضوعات التقليدية من مدح ورثاء وفخر وغزل ، يقول الفاخوري : " وهو إن مدح أو فخر أو وصف أو رثى ، مُتَوَكِّئٌ على معاني من سبقه ، جاد في تصيد صورهم وتركيبها تركيبًا علائيًّا فيه تضخيم وتجسيد وتمثيل وواقعية حسية " [٢] .

-المدح :

يَشْغَلُ المدح القسم الأكبر في ديوان (سقط الزند) ففيه أربع وثلاثون قصيدة في المدح ، منها تسع عشرة موجهة إلى أشخاص معروفين وخمس عشرة لم يُشِرْ إلى أصحابها ، وقد مدح المعري الملوك والأمراء والعلماء والشعراء والكبراء وغيرهم بصفات الشجاعة والفروسية والجلد والكرم والمهابة والذكاء والكمال ونحو ذلك من الصفات التي كان الشعراء الجاهليون يصفون ممدوحيهم فيها ، فمدح المعري تَقْلِيدِيٌّ جارى فيه من سبقه ، يقول المعري في مدح الأمراء الحمدانيين :

---

(١) ابن رشيق ، الحسن بن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، ط١ ، دار المعرفة ، لبنان ، ١٤٠٨هـ ، المجلد الأول ، ص (٢٤٦) .

(٢) الفاخوري ، حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) ، (د.ط) ، دار الجيل ، لبنان ، (د.ت) ، ص (٨٤٩-٨٥٠) .

أَعَنْ وَخْدِ القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طَلَبْتِ مالا [١]

ففي مطلع هذه القصيدة يصف المعري الرحلة والراحلة فالقلاص النوق الفتية ، ويمضي في وصف النوق ورحلته إلى أن يخرج إلى موضوعه المباشر وهو المدح . وعندما يُفْتَتَحُ سفر الشعر العربي القديم يقف عمود الشعر العربي في وجه القارئ شامخًا على مطلع قصائد المدح ، وكأنها السمة التي يعرف بها الشعر العربي الجيد المكتمل على مر العصور ، وكأن القصيدة الخالية من ذلك ناقصة أو مبتورة أو هي قصيدة لم تنل من النضج والاكتمال حَظَّهَا الأوفر .

وَوَصْفُ الإبل والرحلة إلى الممدوح شائعٌ في شعر المدح عامة ، كما هو شائع في مدائح أبي العلاء المعري ، يقول المعري مادحًا سعيد بن شريف :

إلامَ وفيم تَنْقُلُنَا رِكَابٌ وَتَأْمُلُ أن يكون لنا أوانُ [٢]

وصف المعري الراحلة والرحلة ويظهر أن تلك الرحلة رحلة مُتَخَيِّلَةٌ يتبع فيها المعري تقاليد الشعراء الجاهليين أكثر من كونها استثارة لعطف ممدوحه وهزة على السماح والعطاء .

-الرثاء :

الرثاء قليل في ديوان (سقط الزند) ، فرثى المعري أمه بقصيدتين ، وواحدة في رثاء والده ، وواحدة في شخص مجهول ، والأربع الأخريات في بعض الأشراف والعلماء الذين كان يعرفهم ، وأجود مراثيه داليته المشهورة في رثاء صديقه أبي حمزة الفقيه الحنفي ، وهي من أروع قصائد هذا الديوان فهي نتاج مرحلة ما بعد العزلة وتُمَثِّلُ نضج أبي العلاء المعري فنيًّا ، وإننا في هذه القصيدة أمام كلمتين هما : الموت والحياة ، ومع انحياز المعري إلى الموت ومفرداته ،

---

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله : سقط الزند ، ص (٦٠) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٧٣) .

إلا أن الثقل التوزيعي لمفردة الموت ومشتقاتها الدلالية لا تَتَجَلَّى إلا بمقارنتها بالحياة وتناسلاتها ، فبضدها تتمايز الأشياء ، يقول المعري :

غير مُجْدٍ في مـــلتي واعتقادي نَـــوْحُ بـــاك لا تـــرنـــم شـــادِ (١)

يقول الدكتور طه حسين : " نعتقد أن العرب لم ينظموا في جاهليتهم وإسلامهم ، ولا في بداوتهم وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء " (٢) ، ومع ذلك فليس من السهل قبول تلك الأحكام التي تجعل من هذه القصيدة أجود قصيدة في شعر الرثاء عند العرب قديمه وحديثه ؛ لأن في ذلك تجاهلا لنماذج ممتازة في الشعر العربي .

ومرثيات المعري ذات ألفاظ سهلة ، وعبارات محكمة ، أسلوبها يمتاز بعمق المعاني وترتيبها وتحليلها ، وكان المعري يُكْثِرُ في رثائه من الحكمة مُتَأَثِّرًا بالشعراء الجاهليين ، فالمعري يَجْرِي على سُنَّةٍ مألوفة في الشعر العربي القديم ، يقول المعري :

تَـعَـبٌ كُـلُّـهـا الـحياة فـمـا أعْـ ـجَبُ إلا مـن راغـبٍ في ازديادِ (٣)

فما أشقى تلك الحياة المليئة بالآلام والأحزان والمنتهية بفجيعة الموت ، وما أعجب هذا الإنسان الذي يعلم تلك الحقائق يقينا ثم لا يكف عن التَّشَبُّثِ بالبقاء ، وإذا كان هذا هو المصير المحتوم ففيم حرص الإنسان على الحياة . إنه يعود إلى الحكمة ويحاول أن يَتَعَمَّقَ فيما انتهى إليه من إحساسه بالغربة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٣) .

(٢) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (٢١٦) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٤) .

ومن مظاهر التقليد في مرثياته ما جاء في رثائه لوالده ، والذي يقول فيه :

أبي حَكَمَتْ فيه الليالي ولم تزل رماح المنايا قادرات على الطَّعْنِ (١)

فهذه الصورة التي تحدث فيها عن موت أبيه صورة مألوفة قد جرى لفظها على الألسنة وكَثُرَ حضورها في الأذهان فالصورة هنا بَيِّنَةُ التقليد

-الفخر :

والفخر من الموضوعات التي طرقها المعري في ديوانه (سقط الزند) ولكنه قليل في هذا الديوان ، والمعري فخر بخصال افتخر الشعراء قبله بها فهو يفتخر بالعفاف والإقدام والحزم والتفوق والمضاء وعظم المنزلة ، يقول المعري :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ (٢)

وفي بعض مواضع فخر المعري يَتَحَوَّلُ هذا الفخر الفردي إلى الفخر الجماعي ويذكرنا بفخر الشعراء الجاهليين ، ومن ذلك قوله :

أَتَمْشِي القوافي تحت غير لِوَائنا ونحن على قُوَّالِهَا أمراءُ (٣)

يُعَبِّرُ فخر المعري عن ميل طبيعي إلى الأنفة والعزة ، وهذا صوت قوي ومفاخر ومباهٍ بالمجد والعبقرية ، فالمعري في ذلك لا يكاد يختلف كثيرًا عن شعراء العرب الجاهليين .

-الغزل :

يتضمن ديوان (سقط الزند) قصيدتين في الغزل بوصفه موضوعًا مستقلاً ، تقول بنت الشاطئ : " وفي (سقط الزند) أغان للحب ، شدا فيها أبو العلاء بغزليات تذوب رقةً وشجوًا

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٣٠) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٨١) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (١٧٧) .

ووجدًا . ومنها ما يستأثر بالقصائد كاملات " [١] ، وأما بعض غزله فكان مطالع لعدد من القصائد في أغراض مختلفة مُقَلِّدًا للشعراء الجاهليين بالبدء بالنسيب ، وأما بقية غزله فأبيات أخرى في غير المقدمات .

غزل المعري المستقل جاء في قصيدتين ، القصيدة الأولى اللامية التي مطلعها :

ما يوم وَصْلِكِ وهـو أقصر من نَـفَسٍ بـأطـول عيشـةٍ غـالـي [٢]

يُحَدِّثُنَا المعري عن محاولته الفاشلة في الوصول إلى من يهواها ، طمعًا في الوصال وتلذذًا بالجمال ، فكان الصَّدُّ من تلك التي هَوِيَهَا هو الرد الصادر بسبب فقد بصره .

أما القصيدة الثانية فهي التي مطلعها :

أَسـالَتْ أَتِيَّ الـدمع فـوق أسيل ومـالـت لِـظِـلٍّ بـالـعـراق ظليل [٣]

يزور طيف الحبيبة المعري فيتذكر المعري أيامًا خلت ، ويتلهى بالصبابة ، لكن من دون جدوى ، فمحبوبته غادرته مُصوّبة السير باتجاه العراق .

وأما غزله غير المستقل فقد جاء في تضاعيف شعره الآخر في المطلع خاصة على طريقة القدامى الذين سبقوه أو عاصروه ، وهو غزل تقليدي يغلب عليه طابع التكرار والاجترار ، ومن ذلك قصيدة مدحية يطالعنا المعري بأبيات غزلية استهل بها مدحيته :

مَـعَـانٌ مـن أَحِبَّتِنَا مَـعَـانُ تُجِيبُ الـصـاهـلات به الـقِيانُ [٤]

---

(١) بنت الشاطئ ، عائشة بنت عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٣٩٢هـ ، ص (٦٧) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٠٧) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢١٠) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (٧٣) .

يُفْصِحُ المعري عن مكنون حبه لأولئك البدور الأحبة من ذوات الجمال الآسر البدوي ، فيسكب الدمع ذليلا ، لكن هيهات اللقاء بهن وقد شاب الرأس وبعدت الشُّقّة .

وحاكى أبو العلاء المعري الجاهليين في غزله فيرى في محبوبته مزايا تجعلها تفوق جمال الحمائم والظباء ، يقول المعري :

زارتْ عـليـهـا للـظـلام رِوَاقُ ومــن النجـوم قـلائــد ونِـطَـاقُ
والطَّوْقُ من لُبْسِ الحمام عهدته وظبــاء وَجْـرَةَ مـالـهـا أطـواقُ (١)

وحاكى المعري مذهب البدو وتطرق إلى الغزل في البدويات ، لأن أدباء بغداد كان يعجبهم ذلك ، يقول المعري :

تَحَلَّى النَّقَا دُرِّيْنِ دمعـا ولـؤلؤا وَوَلَّـتْ أصيلا وهي كالشمس مِعْطَالُ (٢)

وصف المعري طيف الخيال ، وبكاء الفتاة على الكثيب وافتتن بالنادرة ، وكان يُضْفِي على ذلك مرارة عاطفية ، وحلاوة فكاهية ، ومن المعروف أن ما كان يذكره من أوصاف وأسماء بدوية في غزله لم يكن يَمُتُّ إلى واقع حياته الشامية المدنية ، ولكنه كان يَتَّبِعُ في ذلك تقاليد الشعر العربي القديم .

٢- المعاني الجزئية :

-الوصف :

يُعَدُّ الوصف من الموضوعات الشائعة في الشعر العربي ، وهو باب واسع طرقة الشعراء السابقون على اختلاف اتجاههم ومواهبهم . والوصف في حقيقة الأمر هو عمود الشعر وعماده ، بل إن أغلب أغراض الشعر داخلة في الوصف ، فالمدح وصف نبل الرجل وفضله ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٠١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٢١) .

والهجاء وصف سوءات المهجو وتصوير نقائصه ومعايبه ، والنسيب وصف النساء والحنين إليهن والشوق إلى لقائهن ، والرثاء وصف محاسن الميت . وهكذا تبين لنا أن الوصف يكاد يدخل في أغراض الشعر بِرُمَّتِهِ ويكون في خدمة هذه الأغراض .

عند استعراض شعر أبي العلاء المعري الذي يضمّه (سقط الزند) نجد أن ثمة شعرًا وصفيًّا قائمًا بذاته وتغلب عليه النزعة الحسيَّة التقريرية ، ومن أمثلته وصف الدروع ، وأن ثمة شعرًا وصفيًّا آخر غير قائم بذاته وتغلب عليه النزعة الوجدانية ، ومن أمثلته وصف مظاهر الطبيعة . والحق أن ديوان (سقط الزند) حافل بوصف الحيوان والطير وأدوات الحرب وغير ذلك من موضوعات حسيّة أو معنوية . ومما يلحظ أن أكثر وصف المعري لم يأت مستقلا عن موضوعات أخرى بل جاء في الأغلب لخدمة المدح والرثاء والفخر والغزل .

وقد غلبت النزعة التقليدية على شعر الوصف عند المعري ، فكثر فيه وصف المطايا والرحيل والسيف والرمح والدرع ، فالمعري حين عرض لوصف المبصرات حَرِصَ كل الحرص على تقليد القدماء فيما قالوه ، يقول المعري :

ليلتي هذه عَرُوسٌ من الزّنْـ ـجِ عليها قلائدٌ من جُمَانِ (١)

فتشبيه المعري الليل بالزنجي والنجوم بالدرر قديم قد اتخذه الشعراء معنى شائعًا يبذلونه ويصرفونه في أغراضهم ، فليس لأبي العلاء المعري في هذا التشبيه إلا جعله الليلة عروسًا قد لبست من النجوم قلائد من جمان ، فالمعري يَسْتَطْرِفُ شيئًا تليدًا .

وصف أبو العلاء المعري الدروع وأظهر خصائصها وقيمتها وضرورة الادراع بها للوقاية من الأذى ، وصحيح أن الدرع لاتقي من الموت إذا جاء الأجل إلا أنها تدفع عن لابسها

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

والمدرع بها أذى ضربات السيوف وطعن الرماح ورشقات النبال ، يقول المعري بلسان امرأة توصي ابنها بلبس الدرع وترك الزواج :

عليك السَّابِغَاتِ فَإِنَّهُنَّهْ يُدَافِعْنَ الصَّوَارِمَ والأَسِنَّهْ (١)

تحث الأم ابنها على ضرورة اقتناء الدرع السابغة لدفع الأسنة والرماح والصوارم بوصف الدرع ذخيرة البدوي .

ولعل من أبدع الوصف وأرقه عبارة وأجزله لفظًا وأسماه معنى وأدقه تشبيهًا وتشخيصًا وصف المعري وما فيه من جمالات وإيحاءات تتمثل بالنجوم والكواكب والقمر ، إذ في معرض مدح أبي إبراهيم موسى بن إسحاق يَتَفَرَّدُ المعري بنفسه وينظر إلى السماء ببصيرته النافذة ، فَيُطْلِعُنَا على أسرار الليل ، وقد هرب النوم عن جفونه فراح يتأمل جمال الكون ، ويراقب سجو الليل ويرنو إلى الزهر الكواكب والنجوم الثواقب ، فيحصي الكواكب واحدًا واحدًا خالعًا عليها من ذاته وإحساسه ما جعل المشهد حَيًّا ناطقًا يضج بالحياة والحركة والنور ، يقول المعري :

رُبَّ ليل كأنه الصبح في الحسـ ـن وإن كان أسود الطَّيْلَسَانِ (٢)

ويظهر لنا مِمَّا سبق أن أبا العلاء المعري في (سقط الزند) كان ذا نزعة تقليدية تأثر بالشعراء الجاهليين وسايرهم من حيث المضمون والشكل وقلدهم في الموضوعات والأغراض ، ورغم وجود تلك المحاكاة ظَلَّ شعاعه الإبداعي متوهجا بما أدخله من أنماط التلوين والتصرف في الألفاظ والمعاني والصور والصياغة والأسلوب ، فأضاف إلى المواد التي رسخت في ذهنه من شعر الجاهليين عناصر جديدة وهذا عنوان أصالته وشخصيته المبدعة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٣١٦) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

٣-سقط الزند امتداد لمدرسة أبي تمام :

أ-خصائص مدرسة أبي تمام (المدرسة المقلدة المجددة) :

مدرسة أبي تمام مدرسة مُقَلِّدَةٌ مُجَدِّدَةٌ أَسَّسَهَا أبو تمام وسار على هَدْيِهَا البحتري وطَوَّرَهَا المتنبي ، وهو ذاك المذهب المقلد المجدد الذي أعاد الاعتبار للقيم العربية الأصيلة ووَظَّفَهَا توظيفًا جديدًا ، فكان التقليد على مستوى الشكل إذ حافظ على الوعاء والتجديد في مستوى المعنى إذ شحن بمعان جديدة .

-مؤسس المدرسة :

انفرد أبو تمام بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإمامًا متبوعًا وشهر به حتى قيل : مذهب أبي تمام ، فأبو تمام لم يكن شاعرًا عاديًّا وإنما كان شاعرًا يتميز بأنه صاحب مذهب في الشعر ، هذا المذهب طَبَّقَهُ أبو تمام في شعره دون أن يَدَّعِيهِ ادعاء كما فعل أبو نواس ، فهو لم يَثُرْ على هيكل القصيدة العربية ، ولم يحارب الوقوف على الأطلال ، ولم يعزف عن الرسوم الدوارس لينصرف إلى وصف الخمرة ، بل نظم قصيدته على الشكل الذي تعارف عليه الشعراء ، ونظمه هذا كان يَنْطَوِي على عناصر جديدة أو جريئة هي التي أطلق عليها النقاد اسم مذهب أبي تمام ، فأبو تمام من أشهر شعراء العربية وهو صاحب مذهب شغل الباحثين في عصره وبعد عصره وهو ذاك المذهب المجدد المقلد ، فأعاد الاعتبار للقيم العربية الأصيلة ووَظَّفَهَا توظيفًا جديدًا .

ظَلَّ أبو تمام في كثير من قصائده محافظًا على نهجها القديم ، فقد ابتدأ أكثر مدائحه بمخاطبة الأطلال ، والتحسر عند مشاهدتها ، ثم ينتقل إلى غزل يصف من خلاله المحبوبة ، ثم يخرج إلى وصف الرحلة إن كان قد رحل إلى الممدوح ، ثم يبدأ في مدح ممدوحه مباشرة ، فاحتفظ أبو تمام بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب ، وأودعها كثيرا من

لفتاته وخواطره النادرة التي تدل على سعة خياله وتأمله الطويل ، وأخضع التفكير للشعر ، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق .

وتتوهج في مقدمات قصائده قطع كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتدادًا لا حد له ، اعتداد النفوس الكبيرة التي تسعى إلى الكمال واجدة لذاتها في هذا السعي مهما كلفها من جهد مضن ومهما لقيت من خطوب ، فيملأ شعره نفس قارئه فتوة وقوة بما يُصَوِّرُهُ من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب ، وما ظفر به من مجد فَنِّيٍّ ، فَهَيَّأَ له ازدهارًا رائعًا تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق وبالشعر العربي قديمه وحديثه .

ومع بداية القرن الثالث نجد تَطَوُّرًا في المستوى البنيوي للقصيدة ، فأبو تمام طَوَّرَ في بُنْيَةِ القصيدة بما يتلاءم مع طبيعة المرحلة وطبيعة العصر وحياة المدنية والترف ، فبعد أن كانت قصيدة المدح تبدأ بالطلل ، والنسيب ، فوصف الرحلة والراحلة ، استبدل بها الحديث عن القصور المأنوسة ، ووصف الرياض ومناظرها البهيجة في الربيع ، يقول أبو تمام في مدحه للمعتصم :

رَقَّتْ حواشي الدهر فهي تمرمرُ وغدا الثرى في حليه يَتَكَسَّرُ (١)

وكان يبدأ قصائد المدح أحيانًا بالحكمة المناسبة للحدث كما فعل ذلك في قصيدته المشهورة :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حدِّهِ الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريبِ (٢)

إن كلام السيف وأخباره أصدق من أخبار الكتب ، وإن حده المرهف البتار هو الذي تعقد عليه أقطاب المعارك ، وهو الذي يقرر حسم القتال ، ويظهر نتائج الحروب ويُجَلِّي الحقائق ؛

(١) عطية ، شاهين : شرح ديوان أبي تمام ، (د.ط) ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، (د.ت) ، ص (١٤٧) .
(٢) المرجع نفسه ، ص (١٨) .

لأنه يقوم على الفعل وليس الافتراض والجدل ، وبذلك يكون أبو تمام قد رَدَّ على المنجمين في بلاد الروم الذين ادعو أن مدينتهم لن تفتح عنوة ، وفي أثناء القصيدة يُسَجِّلُ الشاعر الأحداث التي عاصرها ، والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء ، " وهي إلى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة " [١] ، فأصبحت قصيدة المدح وثيقة تاريخية ذات قيمة كبيرة إلى جانب الحكم التي يَبُثُّهَا في مدائحه .

ولَعَلَّ الخروج على البناء التقليدي " لم يكن يقصد منه مهاجمة تعدد الأغراض في القصيدة وتفكك أجزائها ، بقدر ما كان يقصد به تغيير بداية القصيدة التي تعتمد على وصف الأطلال والديار إلى بداية أكثر تمشيًا مع حاجات الحياة الجديدة في عصره " [٢] ، وظهر التصنع في هذه المرحلة في أظهر صوره ، فَتَحَوَّلَ الشعر إلى صناعة و تكلف بعد أن كان يَصْدُرُ عن طبع وعفوية من الشاعر العربي الجاهلي ، فنجد أحد نقاد هذه المرحلة يَرْسُمُ للشعراء الطريق في قول القصيدة المدحية وهو ابن طباطبا أثناء حديثه عن صناعة الشعر وكيفية بنائه فيقول : " يحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة ، فَيَتَخَلَّصُ من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماحة ، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافي والنوق بألطف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلا وممتزجًا معه ، فإذا استقصى المعنى ، وأحاط بالمراد الذي يسوق القول بأيسر وصف ، وأخف لفظ لم يحتج إلى تطويله وتكريره " [٣] ، ويَرَى أنه ينبغي للشاعر إذا أراد المدح أن يلجأ إلى الابتداء بذكر البكاء على الديار فهي طريقة احترازية ، ولكن الشاعر الجاهلي كان شاعرًا أُمِّيًّا

---

(١) ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ط١٦ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، ص (١٦٢) .

(٢) بدر ، عبدالمحسن طه : التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث ، (د.ط) ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ١٩٩١م ، ص (٢٥٧) .

(٣) ابن طباطبا ، محمد بن أحمد : عيار الشعر ، تحقيق محمد زغلول ، (د.ط) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٠م ، ص (٢٠) .

محدود الثقافة بحدود صحرائه ، وشاعر العصر العباسي شاعر مثقف أخذ من كل علم بطرف فهو عالم باللغة والنحو ، محيط بالفلسفة وعلوم المنطق والطب والأديان والمذاهب وغيرها ، فأفاد من كل تلك العلوم وضَمَّنَهَا شعره حتى وهو يُقَلِّدُ أسلافه الجاهليين في طريقة بناء قصائده .

وخلاصة القول أَنَّ أبا تمام أعاد بناء القصيدة كما كانت عليه في العصر الجاهلي ، ولكنه صبغها بروح العصر العلمية وطبيعته الثقافية ، " وهي إضافات تكثر وتقل حسب ملكات قائلها وحسب مخزونها الثقافي ومدى إعجابه بمظاهر الحياة الجديدة " (١) ، وظَلَّتْ القصيدة عند أبي تمام وثيقة الصلة بالقصيدة الجاهلية من الناحية البنيوية الخارجية ، لكنها تحمل داخلها تحولات فرضتها طبيعة العصر وثقافته ، فكانت قصائده ذات بناء تقليدي جاهلي لكنها تَحْمِلُ إضافات حضارية وثقافية كثيرة .

أبو تمام شاعر مثقف ثقافة واسعة ، ولم يكن أبو تمام متصلا بثقافة واحدة من ثقافات عصره وإنما اتصل بكل الثقافات التي كانت معروفة ، سواء أكانت الثقافة العربية القديمة من شعر وأخبار وأنساب أم الثقافة الإسلامية الجديدة من قرآن وحديث وفقه أم الثقافة الفارسية أم الهندية أم اليونانية ، وفي شعره تظهر هذه الثقافات المختلفة ظهورًا واضحًا قويًّا ، فهو يستغلها فيه استغلالا كبيرًا ويعتمدها اعتمادًا شديدًا .

فأحيانًا تظهر الثقافة التاريخية في شعره ، وأبو تمام واسع الاطلاع على التاريخ وهو يستلهم منه استلهاما بارعًا في شعره ، سواء أكان تاريخ العرب أم تاريخ المسلمين أم تاريخ غيرهم من الأمم ، يقول أبو تمام :

لا تنكري أن يشتكي ثقلَ الهوى بدني فما أنا من بقيَّة عادِ
كم وقعةٍ لي في الهوى مشهورةٍ ما كنت فيها الحارثَ بن عبادِ (٢)

---

(١) ضيف ، شوقي : العصر العباسي الثاني ، ط١١ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، ص (٢٠٣) .

(٢) عطية ، شاهين : شرح ديوان أبي تمام ، ص (١٢٥-١٢٦) .

فهو هنا يستلهم التاريخ القديم في حديثه عن قوم عاد العمالقة ، ويستلهم التاريخ الجاهلي في حديثه عن الحارث بن عباد الذي اعتزل حرب البسوس .

وكما يستلهم أبو تمام التاريخ يستلهم النحو ويستخدم ألفاظه ومصطلحاته أيضًا ، فيقول أبو تمام في وصف الخمر مستلهما ألفاظ النحو :

خَرْقَاءُ يلعب بالعقول حبابُها كتلاعبِ الأفعالِ بالأسماءِ (١)

كان أبو تمام يفهم الشعر على أنه صناعة عقلية يَمْتَزِجُ فيها العقل بالشعور أو الفكر بالعاطفة ، فالشعر ليس عملا فنيًّا خالصًا يستمد مادته من العاطفة وحدها ، ولكنه أيضًا عمل عقلي يستمد مادته من العاطفة كما يستمدها من العقل ، فأساس العمل الفني الْمُزَاوَجَةُ بين العقل والشعور ، أو بين الفكر والعاطفة ، وهو في سبيل تحقيق هذه المزاوجة لم يكن يُبَالي بأن يُحَمِّلَ اللغة أكثر مما تطيق ، ولم يكن يبالي بأن تصل معانيه إلى قدر من الغموض يجعلها تصعب في فهمها على أولئك الذين لم يصلوا في ثقافتهم إلى المستوى الذي وصل إليه ، ولكن هذا الغموض في حقيقته أمر لا يرجع إلى غموض الفكرة في ذهنه ولا إلى التواء العبارة عنده ، وإنما يرجع إلى المزاوجة بين الثقافة والفن ، فقد جاء عمق الفكرة بطبيعة الحال من تلك الثقافات العقلية الواسعة التي اتصل بها ، واستوعبها في عقله ، ومضى يستغلها في شعره ذلك الاستغلال الواسع ، فأبو تمام لا يستريح إلى المعنى القريب ولا يطمئن إلى الفكرة السطحية ، ولكنه يحرص على النفاذ إلى داخل الفكرة ، والتغلغل في أعماقها ، والحقيقة أن أبا تمام كان يُوغِلُ في طلب معانيه ، ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يحتاج تفهمها إلى تَأَمُّلٍ ومشقة ، فاعتنى بألفاظ شعره وانتقاها انتقاء ، فجاء معظمها متسما بالفخامة والجمال ، وجاء الكثير منها غريبًا حُوشِيًّا ، فقد كان هائمًا

(١) المرجع نفسه ، ص (١٥) .

بالغريب ، يَتَتَبَّعُ حُوشِيَّ الكلام ، ويتعمد إدخاله في شعره ، ولعل إكثار استعمال الغريب راجع إلى كثرة محفوظه من الشعر القديم ، ورب كلمة حوشية استطاع أن يَتَأَلَّفَهَا فيجعل منها كلامًا رائعًا ، كقوله :

قَدْكَ اتَّئِبْ أربيت في الغُلواء كم تعذلون وأنتم سُجَرائِي (١)

واعتنى أبو تمام عناية كبيرة بالمعاني ، وتفنن في توليدها واختراعها ودقتها وإجادتها والتعمق فيها والملاءمة بينها وبين الألفاظ ، واستطاع بذكائه وفطنته أن يستخدم ثقافته بطريقة فذة ، فصارت أهم المصادر الفنية التي أمدت شعره بالمعاني الزاخرة بالعمق ، فغاص بها على الصور العقلية الفنية بوشائج نابضة من البديع والزينة اللفظية وقد جعله هذا متميزًا عن غيره من الشعراء ، فقد اختط لنفسه طريقًا غير مألوف ، عماده العبارة الراقصة ذات المعاني العميقة والصور الجريئة ، وبهذا استطاع أن ينتزع إعجاب الكثيرين من رجال الدولة والأدب والنقاد ، وقد جاء إعجابهم هذا من الطريقة التي نسج عليها أبو تمام شعره ، وذلك عندما أسال في عروقه تركيبات للمعاني وعمد إلى المجرد فَجَسَّمَهُ وصنعه من مواد حسية مركبة فعالج في تراكيبه ما دَقَّ من المعاني ، يقول أبو تمام :

رَعَتْهُ الفيافي بعدما كان حقبةً رعاها وماءُ الروض ينهلُّ سَاكِبُهْ (٢)

فإنك تحس غرابة الأداة وكأنها تخالف مخالفة تامة تلك الأداة من الطباق التي رأيناها عند الشعراء السابقين ، ذلك أن أبا تمام لا يلجأ إلى المطابقة والمقابلة بين الأشياء كما توحي لنا الذاكرة ، بل يعود إلى عقله وفلسفته ، فيعمل فكره ، ويكد ذهنه حتى يستخرج هذه الصورة الغريبة من التضاد ، فإذا بعيره يَرْعى ويُرْعى ، يرعى الفيافي وترعاه الفيافي ، وهو رعي غريب استحوذ على جهد عنيف حتى استطاع أن يستخرج هذه الصورة المتناقضة .

---

(١) المرجع نفسه ، ص (١٤) .

(٢) المرجع نفسه ، ص (٤٨) .

والحق أن فنون البلاغة العربية قد نشأت منذ أن عرف العرب الكلام وتذوقوه ، واختاروا الألفاظ والمعاني والصور ، فقد كان يظهر في كلامهم بين الفينة والأخرى ألوان من الجناس والطباق وغيرهما مما عرف فيما بعد باسم (البديع) ، مما يدل على أنهم عنوا بإحسان الكلام والتفنن في معانيه وصوره ، وقد شاع ذلك وذاع حينما تَكَوَّنَ الذوق الكلامي ، ونَمَتْ مداركه وتباهى القائل بقوله ، والشاعر بشعره ، ومَيَّزَ السامعون والحافظون والمحكمون بين قول وقول وأسلوب وأسلوب ، مِمَّا حمل القائلين على تجويد المقالة وتنقيح الشعر ، فبرز الصناع المتكسبون أمثال : النابغة ، وزهير ، والأعشى ، وارتفع شأن الكلام وتنافس فيه المتنافسون وجلس لتمييزه والفصل فيه النقاد والمحكمون ، وهكذا فقد عرف الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي ألوان البديع بفطرتهم ، وسلكوا إليها أقرب السبل من غير تكلف ولا قصد ، ثم نما النظر في ألوان البديع والبيان ، وزاد فهم العرب للشعر ومقدرتهم على التميز بين صوره وأساليبه ، وهذا تطور طبيعي للشعر العربي ، ثم كانت نشأة البديع فأصبح عِلْمًا له قواعده ، وقد كانت أنواعه تلوح في الأساليب العربية القديمة مفرقة متباعدة تستدعيها المناسب ويقتضيها المقام ، ثم عرف العرب الفلسفة والمنطق وذهبوا في تعميق المعاني مذاهب بعيدة .

والحق أن أبا تمام ومن شايعه وجرى على مذهبه كانوا متمكنين من اللغة ولا تنقصهم المهارة في استعمالها وانتقاء الألفاظ الملائمة للصور والأساليب ، فَفَنُّ القول أحيانًا لا يحيا بغير الجهد والقيود والصناعة .

ومعلوم أن القدماء اهتدوا إلى البديع وطَوَّعُوهُ في شعرهم إلا أنه كان عَفْوَ الخاطر يأتي من دون تعمد ، وربما قرأت في شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وقد سبق مسلم بن الوليد أبا تمام بكثرة البديع في شعره ، إلا أن أبا تمام أفاد من طريقة غيره من الشعراء لا سيما مسلم بن الوليد واتخذه مذهبًا وزاد عليه ، وهو أول من وَسَّعَ البديع لأن بشار بن برد أول من جاء به ، ثم جاء مسلم فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام

فأفرط فيه وتجاوز المقدار . ومضى أبو تمام يُزَاوِجُ بين الثقافة العقلية والبديع الفني ، ويَمْزُجُ الألوان العقلية العميقة القاتمة بألوان البديع المشرقة الزاهية ، ولكنه خالف مسلم بن الوليد ومن سبقه من أصحاب البديع بأنه بالغ فيه مبالغة شديدة ، وعَقَّدَ فيه من ناحية أخرى تعقيدًا شديدًا ، فلم يكن أبو تمام يستخدم ألوانه البديعية في صورة بسيطة ، وإنما كان يَشُقُّ على نفسه في استخدامها ، ويبذل في سبيل ذلك كثيرًا من الجهد والعناء حتى تستقيم له على الصورة التي تحقق له مذهبه الفني ، ومن هنا لم تكن هذه الألوان ترد في شعره بصورة عفوية ، وإنما كان يقصد إليها قصدًا ، ويتعمدها تعمدًا ، لقد مضى أبو تمام إلى هذه الألوان يبالغ في استخدامها ، ويحشدها حشدًا في قصائده ، ويَظَلُّ يَمْزُجُ بينها ويُرَكِّبُ منها ألوانًا جديدة تبدو في أحيانٍ كثيرة غير مألوفة للذوق العربي على نحو ما نرى في هذه الأبيات التي ينتشر فيها الجناس انتشارًا واسعًا :

متى أنت عن ذهليَّةِ الحي ذاهلُ وقلبك منها مدَّةَ الدهر آهلُ

تطلُّ الطلول الدمع في كُلِّ موقف وتمثلُ بالصبر الديار المواثلُ (١)

يخالف أبو تمام أصحاب البديع الذين سبقوه في ذلك الإفراط المبالغ فيه في استخدام الجناس ، فألوان الجناس تحتشد في كل بيت بصورة غير مألوفة للذوق العربي ، وهو في سبيل هذه المبالغة يتكلف أحيانًا ويتعسف حتى يُؤَلِفَ أكثر ما يمكن تأليفه من صور الجناس ، فهو يشتق من (ذهيلة) كلمة (ذاهل) ليقيم بينهما جناسًا ، وكذلك بين (الطلول وتطل) وبين (المواثل وتمثل) وهكذا تتكدس ألوان الجناس وتتزاحم في أبياته .

ومع الجناس يظهر الطباق ولكن الطباق يتحول عند أبي تمام إلى صورة تخالف ما يعرفه القدماء من طرق استخدامه ، بما فيه من مبالغة وعمق وتعقيد ، وهي تلك الصورة التي يطلق عليها العلماء (نوافر الأضداد) ، يقول أبو تمام :

---

(١) المرجع نفسه ، ص (٢٤٠) .

مطرٌ يذوب الصحو منه وبعده صحوٌ يكاد من الغضارة يقطرُ
غيثانِ فالأنواءُ غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمَرُ (١)

فأبو تمام لا يستخدم الطباق استخداما عاديًّا ولا يجعل التضاد فيه تضادًا لفظيًّا فحسب ، وإنما يستخدمه استخدامًا معقدًا بما يلونه به من ألوان عقلية مختلفة تجعل المقابلة المعنوية عنصرًا أساسيًّا في الصورة إلى جانب المقابلة اللفظية .

إذن مذهب أبي تمام مذهب فَنِّيٌّ متكامل أو مدرسة فنية متميزة تُحَوِّلُ العمل الفني إلى صنعة بديعية تخضع لمقاييس دقيقة ، فأبو تمام يغوص في المعاني العقلية غوصًا ثم يرفعها إلى السماء ، ويُعْمِلُ خياله البعيد فيها ، ويختار من الألفاظ ، ويُعْنَى ببديعها وجناسها ، فَتَمَّ له من معانيه العميقة وخياله المرتفع وألفاظه المتجانسة المزخرفة نوع جديد من الشعر لم يسبق إليه ، حيث استطاع أن يُشَكِّلَ شعره بنوع من التنظيم والتنسيق البديعي بعيدًا عن الفوضى ، واستطاع من إيصال شعره بأسلوب متلاحم معنى ومبنى وبأسلوب بديعي .

-البحتري سائرًا على مدرسة أبي تمام :

كان البحتري يَتَشَبَّهُ بأبي تمام في شعره ويَحْذُو مذهبه ويَنْحُو نحوه من البديع الذي كان أبو تمام يستعمله ويراه صاحبًا وإمامًا ، وكان البحتري يلائم بين شعره وبين روح العصر عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبي تمام .

ولم يكن البحتري محتاجًا إلى أن يقوم بدور الرائد المكتشف كما قد فعل أبو تمام ، فقد كفاه صاحبه ، ولم يبق أمامه إلا التحسين والتزيين والتجويد وإزالة خشونة الكشف والابتداء التي نجدها عند أبي تمام ، فأبو تمام يذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعًا وكرهًا ويأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، ويوغل في الغوص على المعنى ، ثم يحاول أن يعرضه عرضًا غريبًا عن المألوف في صور مبتكرة ،

---

(١) المرجع نفسه ، ص (١٤٨) .

بعدئذ يحاول أن يزحم البيت الواحد من القصيدة بأوجه الصناعتين اللفظية والمعنوية ، وأما البحتري فكان أملح صنعة ، يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، ويتناوله على الأوجه الظاهرة من المعنى ثم يسوقها في أسهل ما يمكن من التركيب مع الاقتصاد في أوجه الصناعة لا تظهر عليه كلفة ولا مشقة .

وقد حاول البحتري في كثير من جوانب فَنِّهِ أن يُقَلِّدَ أبا تمام في تصنيعه وأن يسير على طريقه ، وعَبَّرَ عن ذلك الجانب في صناعته الشعر وإعجابه ، إذ يقول :

وَبَدِيعٍ كأنه الزَّهْرُ الضَّا حِكُ في رَوْنَقِ الربيع الجديدِ (١)

تَرَسَّمَ البحتري خَطْوَ أبي تمام ومضى على أثره في البديع ، وقد قام فن البحتري على زخرف بديعي يأخذ به في اقتصاد وذوق ، وعلى موسيقى ساحرة تغمر جميع شعره ، وتأتي عن حسن اختيار الألفاظ والتراكيب التي لا يشوبها تعقيد ولا غرابة ولا خشونة ، بل تجري مُؤْتَلِفَةً في عناصرها وتسلسلها ، موافقة للمعنى تشتد في موقع الشدة ، وتلين في موقع اللين ، يقول البحتري :

أتاك الربيع الطَلْقُ يَخْتَالُ ضاحكًا مِنَ الحسن حتى كاد أَنْ يَتَكَلَّمَا (٢)

ضَمَّنَ البحتري هذا الوصف لوحات عديدة جمع فيها ألوانا مختلفة من مباهج الطبيعة . وقد كانت أوصافه في الطبيعة على الإجمال قليلة الحظ من الابتكار تقليدية في أغلبها ، غير أن البحتري تمكن من ترقية هذا التقليد إلى درجة رفيعة من التفوق والشخصية والأصالة . ووصل بالزخرفة إلى سبيل طريقة سهلة تجعلها كفيلة بالتعبير الصحيح عن عقلية عصره وما كان يَنْطَوِي عليه من ترف وسرف .

---

(١) البحتري ، الوليد بن عبيد : ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، المجلد الأول ، ص (٦٣٦) .

(٢) المرجع نفسه ، المجلد الرابع ، ص (٢٠٩٠) .

وهذا الامتداد لا يعني أن البحتري ظَلَّ دائرًا في فَلَكِ أستاذه ، فالحق أنه على الرغم من الوشائج الكثيرة التي تربط بينهما ، إلا أنه قد صار لكل منهما في النهاية شخصيته التي قد تصل في تمييزها عن شخصية الآخر ، ومعنى ذلك أن البحتري اتصل بمذهب أبي تمام وسار على نهجه واقتفى أثره ولكن تأثره بمذهب أبي تمام وقف عند الجوانب الظاهرة ولم يتغلغل في أعماق شعره .

-المتنبي مطورًا لمدرسة أبي تمام :

اعتمد أبو تمام والمتنبي على العقل اعتمادًا شديدًا ، واستخدما الخيال وسيلة لتحقيق ما يريده العقل ، وحرصا على تعمق المعاني واستقصائها بطريقة قد تَصْدِمُ الذوق الفني المألوف لما فيها من مبالغة ، بل إن ما بدأه أبو تمام من إضافته الأشياء صفات تُعَدُّ غريبة عليها مع تصويره لها تصور الأشخاص حتى إنه ليتحدث معها ، هذا الاتجاه الذي بدأه أبو تمام بالغ فيه المتنبي أَشَدَّ المبالغة ؛ لأن وقوفه عند المعاني كان أطول بكثير من وقوف أبي تمام ، هذا الوقوف الطويل يضطره إلى أن يتعمق أكثر مما كان أبو تمام يفعل ، فصارت المعاني لديه شخوصًا يقف منها موقف المتحدث الذي يخاصمها ، ويطيل معها الخصومة ، وأَجْرَى في هذه المعاني حياة وحركة من شأنها ألا تُجْرَى إلا في الكائنات الحية حتى إنها صارت تفكر وتناقش على أصول المنطق .

اِتَّجَهَ المتنبي إلى الإكثار من ضرب المثل وحسن التعليل ، وساعده على الإجادة في هذا المجال تلك الحركة العقلية المزدهرة في العصر وما أحاطت به وهضمته من الثقافات المتنوعة ، وتَفَرَّعَ عن نزعة التمثيل والتعليل نزعة أخرى تتصل بها وهي استخدام البراهين العقلية للتدليل على ما يريد الشاعر ، وبروز أثر الآراء الفلسفية نتيجة لإقباله على الثقافة العلمية التي ملأت جوانب عصره ، فأصبحت عند المتنبي مذهبًا متميزًا اقترب فيه كثيرًا من الفلسفة.

حاول المتنبي أن يستوعب الأفكار والصيغ الفلسفية في قصائده ونماذجه حتى يتخلص قليلا من صيغ الفن الثابتة ، وإن الإنسان لَيَحُسُّ دائما عند المتنبي أنه كان يبحث عن صيغ جديدة للتعبير ، ولكنه لم يكتف بأن يخضع هذا البحث لتجاربه الخاصة في التعبير عن وجدانه وأفكاره ، إذ ذهب يقترض طائفة من الصيغ الفلسفية ، وبذلك انصب كثير من تجديده على تغيير القيود ووجود التكلف ، وقد رأيناه يستخدم الثقافة الفلسفية استخدامًا فنيًّا غريبًا ، على نحو قصيدته المشهورة في مدح سف الدلة الحمداني [١] ، واستخدم فيها نوافر الأضداد الذي أحاله عن حقيقته الفلسفية وجعله وسيلة من وسائل الزينة في صناعته ، وحَرِصَ عليه المتنبي لأنه كان يودعه جانبا من سر تفوقه وسر تصنعه ، إذ كان يحتال احتيالا شديدًا على شارات التعبير الفلسفي وسماته ويدخلها في نماذجه ، كما نرى في مثل قوله :

الجيشُ جَيْشُكَ غير أَنَّكَ جَيْشهُ في قلبه ويمينه وشِمَالِهِ [٢]

فالبيت ليس فيه غرابة ولا تعقيد ولذلك يَبْدُو يسير الفهم ، ولكن إذا أَمْعَنَّا النظر وجدنا فيه شيئًا يشبه أن يكون تعقيدًا ، إذ يجعل المتنبي ممدوحه جيشًا ، ويجعل الجيش جيشه ، وفي الوقت نفسه يجعله جيش الجيش ، فهو جيش دائر على نفسه ، أو هي فكرة فيها دور كما يقول أصحاب الفلسفة ، وليس من شك في أن المتنبي عمد إليها عمدًا وتَصَنَّعَ لها تَصَنُّعًا .

كان المتنبي مثقفًا ثقافةً واسعةً بكل ما عُرِفَ لعصره من معارف وآراء ، وقد اتجه بشعره إلى أن يستوعب أساليب هذه المعارف والآراء ، وأن يُمَثِّلَ عناصرها المتنوعة حتى ينال إعجاب العلماء والمثقفين لعصره ، وهذا هو كل ما أصابته حرفة الشعر

---

(١) مطلع القصيدة :

لا الحلم جاد به ولا بمثاله لولا اذكار وداعه وزياله

(٢) سبيتي ، مصطفى : شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، المجلد الثاني ، ص (٣٨) .

من تطور في صياغتها عند المتنبي ، فإن القصيدة لم تَعُدْ تُعَبِّر عن خواطر وجدانية ، بل أصبحت تعبر أيضًا عن ثقافة حتى تظفر بالنجاح في بيئات المثقفين والعلماء ، وإن الإنسان ليُخَيَّلُ إليه أنه لم يكن هناك تعبير غريب أو أسلوب غير مألوف في بيئة إلا وقد تكلفه المتنبي في شعره ، فمن ذلك جمعه الدنيا على دُنَى صنيع أصحاب التناسخ ، كما في قوله :

تتقاصرُ الأفهامُ عن إِدْرَاكِهِ مِثْلَ الذي الأفلاكُ فيه والدُّنَى (١)

وهذه المبالغة الغريبة التي نجدها عند المتنبي يمكن أن يعلل لها من جانب آخر هو ما شاع في بيئة الأدباء والنقاد من الدعوة إلى المبالغة والغلو ، غير أنه يلحظ أن شاعرًا لم يبلغ من ذلك ما بلغه المتنبي ، وعَمَّمَ هذه المبالغة في شعره ولم يقف بها عند موضع خاص ، فنحن نراها تتسرب من المدح إلى الموضوعات الأخرى ، وكأنها لون جديد يريد أن يُوَشِّيَ به شعره ، وأن يطرز بها قصائده ، بل إنه ليبدي إزاء استعماله نوعًا من الإصرار الحماسي ، حتى ليحس الإنسان عنده في كثير من الأحيان بضرب من السقوط ، يقول المتنبي :

لو كان عِلْمُكَ بالإله مُقَسَّما في الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لَفْظُكَ فيه ما أنزل الـ ـفرقان والتوراة والإنجيلا (٢)

يحس السامع أن المعاني كأنها أَعْيَتِ المتنبي فذهب إلى استصغار أمور الأنبياء ، فكان يستطيع أن يبلغ من وصف ممدوحه ما يريد دون أن يكلف نفسه هذا العناء من المقارنة والمفاضلة بينه وبين الأنبياء . فإن الشعر إذا أفرط فيه الشاعر إفراطًا شديدًا إلى درجة الغلو والمغالاة سقط إلى مستوى دون مستوى طبيعته الحقيقية .

---

(١) المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص (١٩٦) .

(٢) المرجع نفسه ، ص (١٩٢) .

ب–مظاهر تأثر سقط الزند بمدرسة أبي تمام :

كان أبو العلاء المعري واسع الثقافة كثير الاطلاع على الأدب العربي ، كما تكشف عنايته الكبيرة بدراسة فحول الشعراء العرب في مختلف العصور السابقة وبصفة خاصة أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي ، التي عمد إلى شرحها في شروح أسماها : ذكرى حبيب وعبث الوليد واللامع العزيزي ، فكانت بين مؤلفاته المعروفة .

يُعَدُّ ديوان (سقط الزند) من الناحية الفنية امتدادًا لمذهب هؤلاء الشعراء الثلاثة الذي كان أبو العلاء المعري مفتونًا بهم في صدر حياته الفنية فتنة شديدة ، وقد حاول المعري في هذا الديوان " تقليد من سبقه بمجاراة أبي تمام في استنباط المعاني ، والمتنبي في كثرتها ، والبحتري في دقة التصوير وبعد الإيحاء " [١] . لقد بدأ أبو العلاء المعري حياته تلميذًا مجتهدًا في مدرسة أبي تمام ، وفي هذه المرحلة المبكرة من حياته مرحلة ما قبل العزلة مضى المعري في شعره على مذهبهم الفني ودار معهم في فلكهم الموضوعي ، واتخذ من طريقتهم الفنية مثلا يَحْتَذِيهِ ويحاول تقليده . وحول تَأَثُّرِ أبي العلاء المعري بأبي تمام يقول خليف : " وعلى امتداد هذا الديوان نحس أننا نتنفس جَوَّ أبي تمام " [٢] ، وقد تجاوز الألفاظ إلى الأساليب الفنية والصور الشعرية .

وقارئ (سقط الزند) يشعر بمدى العلاقة بين المعري والمتنبي في كثير من المواضع والصور والأفكار ، فالمعري قَلَّدَ فيه المتنبي وتأثر به تأثرًا كبيرًا وقد كان معجبًا به وبشعره ، حيث بدأ أبو العلاء المعري حياته الفنية في الشعر بتقليد المتنبي إذ كان يتعصب له تعصبًا شديدًا ، و(سقط الزند) هو خير ما يُفَسِّرُ هذا الطور من تقليده إذ نراه ينظم

---

(١) الدردوري ، ليلى : فيلسوف الشعراء وشيخ المعرة أبو العلاء المعري ، ٢٠١٢م ، من الموقع الإلكتروني http://www.m3araj.com ، بتاريخ ١٤٣٣/٦/١٣هـ .

(٢) خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، (د.ط) ، مكتبة غريب ، القاهرة ، (د.ت) ، ص (٢١٧) .

على طريقة المتنبي ، ونلحظ ظهور روح المتنبي في كثير من أشعار أبي العلاء المعري حتى إنك لتقرأ قوله :

ألا في سبيل الْمَجْدِ ما أنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ (١)

فَيُخَيَّلُ إليك أنك تقرأ في ديوان المتنبي ، فكان اِتِّكَاؤُهُ فيه واضحًا على المتنبي .

وشعر أبي العلاء المعري في (سقط الزند) أشبه بشعراء زمانه ، وقد سَلَكَ فيه طريقة أبي تمام والبحتري وأبي الطيب المتنبي ، فهؤلاء الشعراء الثلاثة كانوا نماذج المعري المفضلين ، وكانت آثارهم واضحة في (سقط الزند) ، وأبو العلاء المعري يُعَدُّ التطور الناضج لمنهج هؤلاء الشعراء الثلاثة ، ولم يكن هذا الاتباع وهذه الآثار تقليدًا سطحيًّا ساذجًا كما هو لدى الكثير من الشعراء في أوائل تجاربهم الشعرية ، فقصائد المعري تَنِمُّ عن مقدرته اللغوية وتمكنه منها ثم أسلوبه في صياغتها واضح فيها ، إلا أن دارسه يحس بآثار هؤلاء الشعراء الثلاثة في هيكل القصيدة عنده وفي بنائها ولغتها .

بَنَى أبو العلاء المعري بعض قصائد في ديوان (سقط الزند) بِنَاء عقليًّا يقترب من بناء أبي تمام والمتنبي ، وظَلَّ مشدودًا إلى جَوِّ أبي تمام والمتنبي ، فقد اعتمد الثقافات العقلية في بناء شعره واتخذ منها قاعدة يقوم عليها ، ومادة أساسية في تشكيلاته ، واستطاع المعري أن يُذِيبَ هذه المادة العقلية في أعماق نسيجه الفني ، فالثقافات العقلية جعلها مقومًا أساسيًّا من مقوماته وقاعدة أساسية قام عليها بناؤه الفني ، يقول المعري :

غير مُـجْدٍ في مـلتي واعتقادي نَـوْحُ بـاكٍ ولا ترنم شادِ (٢)

فهذه القصيدة من نتاج مرحلة ما بعد العزلة التي تُمَثِّلُ نضج أبي العلاء المعري فنيًّا وفكريًّا ، وفيها يبدو وكأنه يستشرف الحياة من أعلى قمة إنسانية وينظر إليها نظرة شاملة ، يحاول

---

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله : سقط الزند ، ص (١٨١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٣) .

من ورائها أن يَسْتَشِفَّ أسرار الكون وأن ينفذ إلى أعماقه ، ليستخلص منها القوانين الثابتة التي تتحكم في حركة الحياة ، وأن ينظر من رؤية فلسفية إلى قضية الموت والحياة ، ولقد فرضت هذه الحقيقة النفسية والعاطفية والكونية نفسها على أبي العلاء المعري ، فقام برصد اللاجدوى في كل شيء ، وهو حينما يفعل ذلك بقوله : (غير مجد) إنما يبدأ من حيث اكتمل موقفه النهائي من الوجود فكرًا وشعورًا ، ذلك أن المعري قد تأكد لديه بما لا يدع مجالا للشك بل إنه قد اتخذ ذلك اعتقادًا بأنه لا جدوى في البكائيات والغنائيات ولا في الحزن والسرور طالما ستكون النهاية الموت ، وهذا الذي يَنْعَى مَيْتًا يتساوى لديه بمن يُبَشَّرُ بمولود ، وهل أدل من تساوي النعي والبشير والأحزان والمباهج مِنْ أَنَّ صوت الحمامة لدى قوم نوحًا مبكيًا ولدى آخرين شدوًا مبهجًا في الوقت ذاته ، أما أبو العلاء المعري فلا يحزنه تحديد هوية صوتها لتساوي الأمرين كليهما وحتمية الفناء ، لقد ارتفع بنظرته في قضية الموت والحياة إلى أفق فسيح يمتزج فيه الإيمان الديني بالفكر الفلسفي ، وتتحول هذه النظرة التي بدأت متشائمة حزينة إلى رؤية جديدة تتجاوز ظاهر الحياة الذي تدركه الحواس إلى سرها الكامن في أعماقها ، فليست الحياة فناء كما تبدو في ظاهرها ولكنها في حقيقتها انتقال من عالم عمل إلى عالم جزاء وليس الموت نهاية حزينة ولكنه صورة من النوم يستريح الجسم فيها من تعب الحياة وأعبائها .

وتنهج قصائد ديوان (سقط الزند) المنهج التقليدي للقصيدة العربية فتبدأ بمقدمات تتنوع تنوع المقدمات المعروفة في الشعر العربي من طَلَلِيَّةٍ أو وصف الشيب والشباب ، يخرج منها أحيانًا إلى وصف الصحراء ومشاهدها ، وأحيانًا إلى موضوعها مباشرة ، وفي بعض قصائده نراه – على طريقة مدرسة أبي تمام – يبدأ بمجموعة من الحكم تَشْغَلُ المقدمة كلها ، ومن ذلك قوله :

أرى العَنْقَاءَ تَكْبُرُ أن تُـصَـــادا فـعـانِدْ مـن تُـطِيقُ لـــه عِـنَادا [١]

فما تريده الأيام منك ممتنع عليك كامتناع صيد العنقاء ، والعنقاء هي " التي يُضْرَبُ بها المثل ، فيقولون : عنقاء مغرب . وتزعم العرب أنها كانت طائرًا عظيمًا ، فاختطفت جارية أو صبيًّا ، فدعا عليها حنظلة بن صفوان ، وهو نبي أهل الرس ، فغابت إلى اليوم " [٢] ، فعاند من تقدر على عناده ، وأما الدهر فلا قدرة لك على معاندة أمره ، وليس لك إلا الرضا والتسليم . وليكن العناد سمة من سمات المرء فإن لم يستطع معاندة الكبار فليعاند الصغار ، وإن لم يُلِمَّ بالنار ذات الوقود فليحصد الرماد ، وليكن الجهاد ومقارعة الأحداث والثبات في وجه الشدائد معلما من معالم إثبات الذات وتحقيق الوجود ، وليمعن المرء في الطلب بجد وثبات وما عليه أن لا يكون موفقًا في طلبه فالمهم الإصرار ومواصلة الكفاح والتشمر للمعالي بكل همة وإخلاص .

وفي بعض قصائده نراه يبدأ على طريقة المتنبي بالفخر بنفسه ، وكأنه يريد أن يفرض نفسه على سامعيه منذ البداية ، يقول المعري :

أفوقَ البدر يُـوضَـعُ لي مـهاد أم الـجـوزاء تـحت يدي وِسَـادُ [٣]

ولم يتوقف تأثر المعري عند حدود أبي تمام والمتنبي بل امتد إلى البحتري الذي رَكَّزَ أبنيته وأخيلته وتعبيراته الجزلة الفخمة التي تُغْرِي المعري باستعمال ما يقترب منها أو باستعمالها بذاتها ، ومن ذلك قول البحتري :

نَشْـوَانَ يَـطْرَبُ للسُّؤَالِ كـأنما غَـنَّاهُ مـالـك طَيِّئٍ أو مَـعْـبَـدُ [٤]

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١٨٥) .

(٢) حسين ، طه وجماعة من المحققين : شروح سقط الزند ، ط٣ ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ١٤٠٦هـ ، المجلد الثاني ، ص (٥٥٣) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٨٥) .

(٤) البحتري ، الوليد بن عبيد : ديوان البحتري ، المجلد الأول ، ص (٦٢٩) .

أخذه أبو العلاء المعري وزاد فيه زيادة لا تخفى ، فقال :

فما ناح قُمْرِيٌّ ولا هَبَّ عاصف مـــن الريح إلا خَالَه صَوْتُ سائلِ (١)

فالبحتري جعل ممدوحه يطرب لصوت السائل طرب المنتشي من المغنى المجيد ، والمعري كلما سمع صوتًا من تطريب حمام خاله صوت سائل لمزيد اعتنائه بالسؤال وولعه بالنوال .

أكثر أبو العلاء المعري الحديث عن طَيْفِ الحبيبة ، ولقد يزور طيف الحبيبة الشاعر في منامه ، فيتذكر أيامًا خلت ويَتَلَهَّى بهذه الصبابة ، يقول المعري :

وأرسلت طيفا خـــان لَمَّا بَعَثْتِهِ فـلا تَثِقِي مـــن بـعده بـرسـولِ (٢)

وفي موضع آخر يتحدث المعري عن طيف الحبيبة وقد أَلَمَّ به ليلا ، فبدت فيه الحبيبة مُتَّشِحَةً بأجمل وشاح من استبرق وحرير ، فيما صويحباتها من بنات البادية يتلففن بالوبر الخشن ، يقول المعري :

زارتْ عـــليهـا للـظـلام رِوَاقُ ومـن الـنـجوم قـلائـد ونِـطَـاقُ (٣)

هذا الطَّيْفُ الذي أكثر الحديث عنه المعري ، يُذَكِّرُنا بما فعله من قبل البحتري ، فالمعري اقتفى أثر البحتري في ذلك ، فطيف الحبيبة هو كل ما بقي للشاعر من سلوى وعزاء يجد فيه ما يذكره بالماضي السعيد .

انتشر الغريب انتشارًا واسعًا في ديوان (سقط الزند) ، فاستخدم المعري الغريب والنادر في شعره ، وتَخَيَّرَ من الألفاظ ما لم يألف أهل عصره ، وحشد في أبياته

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٤٥) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢١٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٠١) .

مجموعة من الألفاظ الغريبة ، فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ، يقول المعري :

تَـضَيَّفَنِـي الــذوابل مُكْرَهـاتٍ فترحل مـا أُذِيقت مـن لَمَـاجِ (١)

فقد استعمل (لماج) على ما فيها من غرابة وعدل عن استخدام كلمة (طعام) .

واستمد بعض ألفاظه من لهجات بعض القبائل التي تندرج تحت الألفاظ الغريبة ، كقوله :

لمن جيرة سِيمُوا النوال فلم يُنْطُوا يُظَلِّلُهم مـا ظل ينبته الخَطُّ (٢)

فوضع (أنطى) موضع (أعطى) ، وهي لغة قضاعية قرئ بها في القرآن الكريم .

وكأن أبا العلاء المعري أراد أن يُبْرِزَ اللغة العربية وأن يُحْيِيَ هذه الكلمات حتى لا تموت مع مرور الزمن ، فنبش قبور الكلمات الميتة لإحيائها ونَفْضِ الغبار عنها ونقلها إلى القالب التعبيري ، فمن الواضح أن دائرة الغريب تتسع من عصر إلى عصر بسبب البعد عن منابع الأدب وضعف الاتصال باللغة العربية وعلومها .

شهد العصر العباسي ازدهارًا واضحًا في مختلف مظاهر الحياة ، كما نشطت الحركة العلمية ، ووضعت مصطلحات كثيرة وجديدة في مختلف فروع المعرفة وتَسَرَّبَتْ بعض تلك المصطلحات إلى لغة الشعر ، لهذا لا تخلو منها أشعار أبي تمام والمتنبي والمعري وغيرهم ، ولكن أبا العلاء المعري كان من أكثر هؤلاء الشعراء استخدامًا لتلك المصطلحات في شعره ، واستطاع المعري بلباقته وحذقه أن يُرَوِّضَ الشعر حتى أخضعه لقبول الحكمة والعلم ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٥٥) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٦٧) .

واستمد من مسائله ومصطلحاته مَعَانِيَ بديعة وحِكَمًا رائعة بأسلوب تهوي إليه أفئدة الأدباء ، يقول المعري :

فدونكم خَفْضَ الحياة فإننا نَصَبْنَا المطايا بالفلاة على القطعِ (١)

حيث جمع المعري إلى التظرف باصطلاحات العلم دلالة على الحسرة بفراق بغداد وحب الخير لأهلها في أحسن لفظ وأرق أسلوب . ويقول المعري :

ما زاغ بَيْتُكمُ الرَّفيعُ وإنما بالوَجْدِ أدركه خَفِيُّ زِحافِ (٢)

استخدم المعري من علم العروض (الزحاف) خامة شبه بها تماسك بيت الشريف إِكْبَارًا من شأن ابنيه المرتضى والرضي لا تقليلا من شأنه . ويقول المعري :

تلاقٍ تَفَرَّى عن فراق تذمُّهُ مآقٍ وتكسير الصحائح في الجمعِ (٣)

استخدم المعري الصرف (تكسير الاسم الصحيح في الجمع) مادة شبه بها تشبيهًا ضِمْنِيًّا كيف يكون تلاقي الأحبة تفرقًا .

فأبو العلاء المعري أدخل في لغته الشعرية المصطلحات العلمية وأخرج تلك الكلمات من دائرة العلم إلى الخَلْقِ الفني ، فاللغة في يد الأديب ليس وسيلة لنقل الأفكار وإنما هي خَلْقٌ فني في ذاتها ، وهذا يعني أن المصطلحات العلمية ألفاظ كغيرها من ألفاظ اللغة وأن من حق الأديب أن يستعمل منها ما يحتاج إليه ليحدد الفكرة التي يريد التعبير عنها ، ويوضح التجربة التي انفعل بها ، وقد استطاع أبو العلاء المعري حقًّا أن يستغل مصادر اللغة وثرواتها إلى أقصى درجة ولا تكاد تجد شاعرًا في العربية بلغ درجته من توظيف مصادر اللغة في الشعر .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٢٩) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٥٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٢٤) .

اعتنى أبو العلاء المعري عناية كبيرة بالمعاني وتَفَنَّنَ في توليدها ودقتها وإجادتها والتعمق فيها والملاءمة بينها وبين الألفاظ ، واستطاع أن يستخدم ثقافته بطريقة فَذَّةٍ ، فصارت من أهم المصادر الفنية التي أمدت شعره بالمعاني الزاخرة بالعمق ، وهي تتصل باستخدامه الصور الغريبة والتراكيب التي تؤدي إلى صور غريبة أو غامضة لا تُعْطِي في أول قراءة وقد تكثر فيها التأويلات والوجوه ، وهذا يتصل اتصالا في كثير الأحيان بتصرفه باستخدام المشترك اللغوي أو قد يكون في تصرفه باستخدام تراكيب نادرة أو لهجات بعيدة أو معانٍ توحي بالغرابة لعدم وضوحها ، هذا الغموض الفني كان مزيجًا من آثار أبي تمام في غموض صوره ودقة استخدامه للغة ، وأبي الطيب المتنبي بتوسعه في إدخال النظرات الفلسفية إضافة إلى توسعه في استخدام أساليب اللغة ولهجاتها ، فعلى الرغم من كون اللغة لدى المعري كانت طيعة وتصرفه فيها واسعًا إلا أن اتساع خياله وتزاحم الصور الذهنية في نفسه كان يدفعه إلى سلوك أساليب تستوعب كل هذا الاتساع والتزاحم ، وكانت محاولات تطويع لغة الشعر باستخدام الفلسفة والعمق والتأمل لدى أبي تمام والمتنبي قبل المعري فكان هذا الغموض الفني .

ولقد استوعب المعري كل ذلك وتوسع في مجال الغموض الفني في استخدام الصور الشعرية أو المعنى الدقيق في التركيب المتسع لاحتمالات ووجوه في الفهم ، وهذا اللون من الغموض عُدَّ من صفات الشعر الجيد فرداءة الشعر أن يكون واضحًا في ألفاظه ومعانيه ولا تحتاج إلى جهد في فهمه ، وجيد الشعر ما لم يعطك من نفسه من القراءة الأولى وتجد شيئًا من النشوة في جهدك لفهمه وتأمل صوره ومعانيه ، يقول المعري :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السَّمُرِ لعل بالْجِزْعِ أعوانا على السهرِ (١)

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٦٧) .

في صدر البيت على الرغم من وضوحه وتَخَيُّلِ صورته غموض شغيف تستطيع أن تمسكه في ذهنك دون أن تجسده في ألفاظك لذا تستطيع أن تذهب في تفسيره مذاهب ، فـ (ساهر البرق) ليل نائم ينام فيه ، فإذا قيل برق ساهر أي يسهر عليه من رآه أو هو أن تجعل حركة البرق ولمعانه يقظة وسهرًا ، أو هو ذو السهر على معنى أن يسهر الناس به ، وهكذا يكون هذا النوع من الغموض دون تعقيد إلا أنها تؤدي إلى صورة يمكن أن يُرَى فيها وجوهٌ عدةٌ من المعنى والتفسير . ويقول المعري :

مـياهٌ لـو طرحت بـها لُـجَيْنًا ومُشْبِهَـهَـا لَـمُيِّزَتِ انتـقـادا (١)

إن هذه المياه لشدة صفائها تُبْدِي ما تحتها أي أن الباء بمعنى (في) وقد أَنَّثَ اللجين على معنى الفضة فعادت عليه تاء التأنيث في قوله : (لَمُيِّزَتْ) ، ويمكن أن نذهب مذهبًا طريفًا بأن الباء للتجريد والضمير في مشبهها راجع إلى مياه فيكون بمعنى : أن هذه المياه تشبه في صفائها اللجين بحيث لو طرحتها جانبًا وهي كأنها لجين وطرحت مشبهها وهو اللجين لاحتجت للتمييز بينها وبينه إلى إجالة نظر وإطالة فكر .

إن أبا العلاء المعري لم يكن مبتدع الصنعة البديعية في الشعر العربي ، فقد سبقه إلى ذلك مسلم بن الوليد وحاول أن يضع معالم الصنعة البديعية باستعماله أطرافًا من الجناس والتورية والطباق والمقابلة والتكرار ، وذلك لِيُلْبِسَ نهجه القديم من الشعر لباسًا يوائم عصره ، ولا يخفى أن أبا تمام أكثر من الصنعة البديعية حتى أنه أصبح أسلوبًا فنيًّا اتخذه أبو تمام فيما بعد بتكرار الكلمات إما بلفظها دون تغيير حروفها أو باختلاف في بعض تلك الحروف كما أكثر من استخدام الطباق والجناس والمقابلة ، ولا نستطيع أن نُغْفِلَ في هذا المجال إعجاب المعري بمذهب أبي تمام و إطلاعه الواسع على شعره .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٠٥) .

وأبو العلاء المعري سَلَكَ مذهب الصنعة البديعية إلا أنه زاد فيه وأُولِعَ به وُلُوعًا لفت نظر دارسيه ، حتى لتحس وأنت تقرأ شعره بانعكاس مشاعره في الرضا والسخط والهزء بتلاعبه في ألفاظه وإظهارها هذا المظهر ، ولو قرأنا أكثر قصائد (سقط الزند) لوجدنا حشدًا من المجانسة اللفظية التي تشغل تفكير القارئ فيما وراء هذه المجانسة من المعنى والصورة ، وهذا الحرص يعني في كل الأحوال مظهرًا من مظاهر الصنعة بل يعكس في كثير من الأحوال اهتمام المعري بالإيقاع وغرامه به وشغفه بالصوتية الموسيقية المتوازية المعادة ، ومن أكثر أنماط الجناس استخدامًا في شعر المعري الجناس بين القافية وحشو البيت أورد العجز على الصدر ، يقول المعري :

ولَمَّا رأيت الجهل في الناس فاشيًا تجاهلت حتى ظُنَّ أني جاهلُ (١)

فقد جمع المعري فيه بين المصدر والفعل واسم الفاعل (جناس اشتقاقي) ، وأحدث رد العجز على الصدر ضربًا من التنوع الموسيقي الخلاب . ويقول المعري :

وإن خَلَطَتْنِي بالتراب منية فبعض ترابي من مودتكم خِلْطُ (٢)

أتى المعري في شطره الأول بالفعل خلطتني وبالشطر الثاني بالمصدر وهما يشتركان في أصلٍ واحدٍ مما أَكْسَبَ البيت جمالا في موسيقاه ، كما نراه يكرر كلمة تراب في الشطرين تكرارًا يُضَاعِفُ من ثروته الموسيقية ويَسْمُو بها .

وقد مدح القدماء هذا النوع من التكرار (رد الأعجاز على الصدور) الذي جاء بمسميات متنوعة ، إذ هو تَوْشِيحٌ عند قدامة بن جعفر (٣) ، وهو التبين عند أبي هلال العسكري ، فقد قال عنه : " وهو أن يكون مُبْتَدَأُ الكلام يُنْبِئُ عن مقطعه ، وأوله

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١٨٢) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٧٠) .

(٣) قدامة ، قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ ، ص (١٦٨) .

يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه ... وخير الشعر ما تسابق صدوره وأعجازه ، ومعانيه ، وألفاظه " [١] ، وعلى الرغم من مدح القدماء لهذا التكرار إلا أن المنبه الأسلوبي يرى فيه ابتعادًا عن كسر المتوقع أو إثارة المتلقي ؛ لأن فيه توقعًا من المتلقي لما سيرد في العجز بناء على إيحاء الصدر ، يقول المعري :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السَّمُرِ لعـل بالْجِزْعِ أعوانا على السهرِ [٢]

لون من الموسيقى حين تتقابل كلمات متناقضة أو متخالفة في المعنى فيحدث نَوْعٌ من التداعي والتبادر في سياق التعبير ، فالجمع بين ساهر وراقد مثلا في البيت ، فصيغة اللفظتين واحدة وهي فاعل وكلاهما مضاف ، أولاهما تنتهي بالراء والأخرى تبدأ به ، وهذا كله يُحْدِثُ حين إنشاده لونًا من الانسجام إضافة إلى تقابل المعنى وما يصحبه من التبادر فيجعل القارئ أو السامع يعيش في صورة البيت دون عناء في التفكير بروابط الألفاظ السياقية .

ومن الواضح أن كثرة ممارسة أبي العلاء المعري لشعر أبي تمام والبحتري والمتنبي ومدارسته لهم جعلته يعرف كل خصائصهم ويَسْتَشِفُّ كل عناصر مذهبهم ، فتأثر المعري بهؤلاء الشعراء الثلاثة أمر وارد ، فالمعري كان أقرب إلى مدرسة أبي تمام ، وهي صنعة ظهرت في (سقط الزند) وظَلَّتْ باقية في (اللزوميات) ، ومع أن المعري قد استقل بمذهب فَنِّيٍّ متميز يختلف عن مذهب أبي تمام ، فإنه لم يَبُتَّ حباله نهائيًّا من هذا المذهب ، فَظَلَّ مشدودًا إلى صنعة أبي تمام البديعية .

---

(١) أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق مفيد قميحة ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٠٩هـ ، ص (٤٢٥) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٦٧) .

المبحث الثاني : التقليد في اللزوميات .

١-مفهوم اللزوم :

اللزوم مُجَرَّدُ وصف لوضع أو علاقة بين أمرين يلزم أحدهما الثاني فلا يفارقه ، " لزم الشيء لزوما : ثبت ودام ... لازمه ملازمة ولزاما : داوم عليه ... التزم الشيء أو الأمر : أوجبه على نفسه " (١) ، فهي تعني أن الشاعر يختار ظاهرة تلزم كامل النص وهي في الأصل غير لازمة ، فلفظ اللزوم يتميز بخلو معانيه من مفاهيم التَّشَدُّدِ والإكراه ، والإلزام ملازمة ومداومة واعتناق وموافقة وتكلف ، و" التزم الشيء اعتنقه ولم يفارقه " (٢) ، فيبرع من ذات النفس بما لا يلزم ؛ أي دون إلزام من الطرف الآخر .

ويُعَرِّفُ القزويني اللزوم بقوله : " هو أن يجيء قبل حرف الروي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع " (٣) .

وجعل ابن المعتز اللزوم من محاسن الكلام والشعر ، وجعله مضافًا إلى أبواب البديع الخمسة التي يعدها كافية لمن أراد الاكتفاء بها من المتأدبين ويُعَرِّفُ اللزوم بأنه " إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له " (٤) ، غير أنه يعترف له بالسيادة على فعله ، فهو مختار وقصد فعله عن وعي وإدراك ، وقد عَدَّ اللزوم من محاسن الكلام والشعر ، وفي ذلك إدراك منه للقيمة الجمالية والأسلوبية للظاهرة .

---

(١) أنيس ، إبراهيم وجماعة من الباحثين : المعجم الوسيط ، ط٢ ، المكتبة الإسلامية ، تركيا ، ١٣٩٢هـ ، المجلد الثاني ، ص (٨٢٣) .

(٢) رضا ، أحمد : معجم متن اللغة ، (د.ط) ، دار مكتبة الحياة ، لبنان ، ١٣٨٠هـ ، المجلد الخامس ، ص (١٧٣) .

(٣) القزويني : محمد بن عبدالرحمن ، شرح التلخيص في علوم البلاغة ، ط٢ ، دار الجيل ، لبنان ، ١٤٠٢هـ ، ص (١٩٣) .

(٤) ابن المعتز ، عبدالله بن المعتز : البديع ، شرح وتحقيق محمد عبدالمنعم ، ط١ ، دار الجيل ، لبنان ، ١٤١٠هـ ، ص (١٧٥) .

وقد نَبَّهَ ابن سنان الخفاجي مثل ابن المعتز إلى القيمة الجمالية للظاهرة إذ يقول : " وقد التزم بعض الشعراء في القوافي إعادة ما لا يلزمه إعادته طَلَبًا للزيادة في التناسب ، والإغراق في التماثل " (١) .

٢-السياق اللزومي :

لقد أَوْرَدَ المعري ظاهرة اللزوم على شكل تركيب إضافي (لزوم ما لا يلزم) ، وهي تحتمل أن يكون المضاف إليه فيها (ما لا يلزم) مفعولا به والفاعل محذوف من الكلام الذي أصله لزوم الشاعر ما لا يلزم ، كما يحتمل أن يكون المضاف إليه هو الفاعل في الأصل أي ما لا يلزم يصبح لازمًا ، وهذا المعنى هو الأقرب للصواب .

فاللزوم عند المعري ليس لزوم الوجود ، وإنما لزوم الإعادة بعد الوجود ، يقول المعري : " إنما أوقعوا التسمية على ما تلزم إعادته ، فإذا فقد أخل ، وهذه حركة لا يجوز عندهم أن تكون غير الفتحة ولا حاجة إلى ذكرها فيما يلزم " (٢) .

معنى (لزوم ما لا يلزم) أن يأخذ الشاعر نفسه بالتزام حروف وحركات القافية لا تطلبها القواعد المعروفة في علم القافية ، وإنما يلتزم بها وينتجها في جميع أبيات القصيدة الواحدة زيادة في موسيقى الإيقاع وتأكيدًا لمهارته اللغوية .

وقد بَدَتْ ظاهرة اللزوم في شعر بعض الشعراء قبل أبي العلاء المعري ، مثل الأعشى ، وكثير عزة ، وعمرو بن معد يكرب ، فكل من هؤلاء قد لَزِمَ حرفًا قبل حرف الروي ، " غير أنه لا مراء في أن المعري أول من اتخذ هذا النوع صناعة احترفها شطرا من

---

(١) الخفاجي ، عبدالله بن محمد : سر الفصاحة ، ص (٢١١) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١٢) (المقدمة) .

عمره "[١] ، و" يعتبر (يعد) أبو العلاء المعري عادة أبا اللزوم الأول وصانعه الأساسي ، بل لعله مُبْتَدِعه "[٢] ، فالمعري التزم طريقته ونظم عليها ديوانًا ضخمًا وبالغ حتى أخذ نفسه باستيفاء حروف المعجم كافة وما يلحقها من الحركات والسكون .

و(لزوم ما لا يلزم) ديوان ضخم يُعَدُّ من أضخم دواوين الشعر العربي إذ يَضُمُّ بين دفتيه أحد عشر ألف بيت ، يُصَوِّرُ اتجاه أبي العلاء المعري الفني ويُمَثِّلُ حياة أبي العلاء المعري تمثيلا صادقًا ، وهي مَصْدَرٌ وَافٍ لكثير من المعارف .

صَدَّرَ المعري ديوانه (لزوم ما لا يلزم) بمقدمة حَدَّدَ فيها مقاصده ، وأهدافه ، ومنهجه ، ووضح فيها آراءه ، ومواقفه ، ومن أهم القضايا التي جاءت في هذه المقدمة :

-بيان غرض الكتاب .

-معنى تسمية لزوم ما لا يلزم .

-تاريخ لزوم ما لا يلزم ونماذج من النصوص السابقة .

-ما لزمه المعري أو تكلفه في هذا الديوان .

-أنواع القوافي .

-حَدَّدَ اللزوم أو عدد الحروف التي يمكن أن يلزمها الشاعر .

رَتَّبَ أبو العلاء المعري النظم في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) على ثلاثة عشر ومئة فصل ، وقد جعل لكل حرف من حروف الهجاء-ما عدا الألف-أربعة فصول على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الألف فلها فصل واحد ؛ لأنها لا تكون

---

(١) الرافعي ، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٣٩٤هـ ، المجلد الثالث ، ص (٣٦٠) .

(٢) عبدالعظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ط١ ، دار الفارابي ، لبنان ، ٢٠٠٨م ، ص (٦٥) .

إلا ساكنة ، فلم يُرَتِّبْ ديوانه حسب الأغراض والمواضيع ، ولم يفرد لكل غرض أبياتا خاصة ، بل ربما تناول في القصيدة أغراضًا متعددة ، وإنما رتبه على حروف الهجاء ، فابتدأ بحرف الهمزة ثم الألف ثم الباء إلى آخر حروف الهجاء على حسب ترتيبها ، وقد رتب حروف الهجاء على ترتيب الحركات ، فيبدأ أولا بالحرف المحرك بالضم ثم الفتح ثم بالكسر ثم بالسكون .

٣-مظاهر التقليد :

أ-الهيكل العام للقصيدة :

اِشْتَمَلَ ديوان (لزوم ما لا يلزم) على نحو ست مئة وألف قصيدة أو مقطوعة منها نحو تسع وألف مقطوعة ونحو ثمانين وخمس مئة قصيدة ، وهذا يعني أن نسبة المقطوعات تبلغ ثلثي اللزوميات .

تقصر اللزومية حتى تكون بيتين اثنين ، ومن ذلك قوله :

نرجو الحياة فإن هَمَّتْ هواجسنا بالخير قال رَجَاءُ النفس إرْجَاءَ

وما نفيق من السُّكْرِ المحيط بنا إلا إذا قيل هذا الموتُ قد جاءَ (١)

أو تطول اللزومية حتى تبلغ ستة وتسعين بيتا ، كما في لزوميته التي مطلعها :

تَـرَنَّمْ فـي نـهـارك مـستعينا بـذكر الله فـي الـمـترنِّمَاتِ (٢)

ومن المعروف أن القصيدة العربية قد ثبتت في عصورها الأولى على شكل فَنِّيٍّ يكاد يلتزمه الشعراء ، فقد كانت هذه القصيدة تشتمل على أكثر من غرض شعري ، ففيها يقف

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، الجزء الأول ، ص (٣٨) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٢٩) .

الشاعر على الأطلال ويتوقف ، ويبكي ويستبكي ، ثم ينتقل إلى النسيب والغزل ، ثم إلى الوصف والمديح .

دارت أغلب قصائد ومقطوعات (لزوم ما لا يلزم) حول تمجيد الله عزوجل والنقد الاجتماعي والحكمة ، فامتازت بوحدة الموضوع ، ومن ذلك قوله :

اِنْـــفَـــرَدَ الله بـــسلـطـانـه فما له في كل حال كِفَاءْ (١)

وقد حافظ أبو العلاء المعري على البحور والأوزان الطويلة التي عُرِفَتْ في العصر الجاهلي مثل : البسيط والطويل والكامل ، القوافي الجاهلية القديمة نفسها ، وظَلَّتْ قصائده وثيقة الصلة بالقصيدة الجاهلية من الناحية البنيوية الخارجية ، لكنها تحمل داخلها متحولات فرضتها طبيعة العصر وثقافة الشاعر .

ب–المادة اللغوية :

كانت البادية في هذا العصر تمدّ الحاضرة بكثير من الشعراء ذوي السليقة العربية السليمة ، وكان يقابلهم في المدن شعراء لم ينشؤوا في البادية ، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم ، وتمثلت في دخائلهم ، حتى أصبحوا لا يقلّون عن شعراء البادية فصاحةً وبيانًا . ولعلماء اللغة فضل في تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلامي وظلّوا يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة الْمُثْلَى ، ولم يعرض اللُّغويُّون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان هَمُّهُم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه الوعرة المليئة بالحوشي والألفاظ الغريبة .

تَشَدَّدَ أبو العلاء المعري في محاكاة الجاهليين فمال في ديوانه (اللزوميات) إلى استخدام الألفاظ البدوية ، فَحِرْصُهُ على بداوة اللفظ تجاوزت (سقط الزند) إلى (اللزوميات) ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٤٣) .

وقد أَكَّدَ الزيات أن أبا العلاء المعري في (اللزوميات) " آثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي ، ورَكِبَ القوافي الصعبة والتزم ما لا يلزم ، وتَشَدَّدَ في اتباع القياس " (١) ، فعلى الرغم من حضرية المعري ، وعباسيته في مجال الألفاظ ، إلا أنه كان أحيانًا مُقَلِّدًا للبداوة ، يقول المعري :

عَفْوُكَ للعالَم لا تُخْلِيَنْ حُنْظُبةً منه ولا عُنْظُبَه
لا ظبةُ الصارم باشرتُها فيك ولا زرت لِحَجّي ظُبَه (٢)

فـ(الحنظبة) دويبة صغيرة ، و(العنظبه) الجرادة الكبيرة ، والـ(ظبة) الأولى هي حد السيف، والـ(ظبه) الثانية اسم موضع ، فجمع المعري بين البداوة والحضارة واستطاع أن يُقَدِّمَ قصائد حضرية في أفكارها بدوية في صياغة هذه الأفكار ، تقوم على الموازنة بين العقل الحضري والأسلوب البدوي في أصالته الفطرية وعراقته المورثة .

وقد انتشر الغريب في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) ، فنراه يحشد فيها مجموعة من الألفاظ الغريبة ، كقوله :

ويارازيَّ مالخيـ ـل لاتمنعُ شالوسَكْ
أخاف الدَّهر أن يُبْدِ لَ نعماء الغنى بوسكْ (٣)

فَتَخَيَّرَ المعري من الألفاظ ما لم يَأْلَفْ أهل عصره ، وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف أن المعري " يتصنع الإغراب في ألفاظه ، وعَمَّ ذلك في جميع أشعاره وكتاباته ، حتى يشعر الإنسان في أحوال كثيرة بأنه يقرأ في متن من متون اللغة العويصة ، ولقد كان المظنون أن يبتعد بهذا الإغراب في اللغة عن اللزوميات ، فإن ما فيها من وعظ لا تلائمه الألفاظ الغريبة إذ هو يوجه عادة إلى الجماهير وهي لا تعرف الألفاظ العويصة ،

---

(١) الزيات ، أحمد بن حسن : تاريخ الأدب العربي ، ص (٣٥٠) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٧٥) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (١٤٣) .

ولكن أبا العلاء اتخذ من هذه الألفاظ الغريبة لازمة دائمة في صناعة لزومياته ولم يستطع التخلص منها " [١] .

وكان التزام المعري بالقيود الخاصة التي فرضها على نفسه وبخاصة التزام ما لا يلزم في القافية دافعًا دفع به إلى الغريب من الألفاظ لكي يُوَسِّعَ مجال اللغة ، فهذا التكلف اضطر أبا العلاء المعري إلى المبالغة في اصطناع الغريب ليقوم له بما يحتاج إليه من القافية .

وفي بعض الأبيات يأتي بالكلمة الغريبة ثم يتولى شرحها في البيت نفسه، يقول المعري :

نوديت ألويت فانزل لا يراد أتى سَيْري لِـوى الرمل بل للنبت إلواءُ [٢]

حيث فَسَّرَ المعري كلمة (ألويت) ، وذكر لها معنين : الوصول إلى لوى الرمل ، وتكسر النبات بعد جفافه ، وصَرَّحَ بأنه يريد المعنى الثاني ليتخذ منه رَمْزًا للشيخوخة التي تنتهي إلى الموت . ويقول المعري :

مَـنْ لي بـإمليسية أعنـي بـهـا وجناء تقطع في الدُّجَى الإمليسا [٣]

فَسَّرَ المعري كلمة (إمليسية) بأنها الناقة الملساء نسبة إلى الإمليس وهي الصحراء .

---

(١) ضيف ، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر ، ص (٣٩٨-٣٩٩) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٣١) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٩) .

جـ-التقليد في الأسلوب والصورة الشعرية :

قضية الوضوح والغموض في الشعر قضية قديمة قِدَمَ الشعر نفسه ، وتنبت أولى جذورها ضاربة في أعماق القدم منذ نشوء الأدب الجاهلي ، حيث كانت السمة الغالبة على الأدب آنذاك الوضوح نظرًا لأن تفكير العربي بعفويته يميل إلى الوضوح وينفر من الغموض ، ولأن الحياة البدوية لها أثرها في طبع فكر البدوي بالبساطة والوضوح ، فجاء تبعًا لذلك أدبه بعيدًا عن الغموض قريبًا من الوضوح ، لكن وإن كان الوضوح هو السمة الغالبة في الشعر الجاهلي فقد تسرب إليه شيء من الغموض . وبالرغم من أن جذور القضية تمتد إلى العصر الجاهلي إلا أن ظاهرة الغموض كانت وليدة العصر العباسي نظرًا لما اعترى هذا العصر من عوامل الانفتاح والتَّحضر ولاختلاط بالآخرين ، فأصابت موجة الغموض بعض الشعر وخصوصًا عند الشاعر أبي تمام ، ويكاد يكون أبو تمام الشاعر الوحيد الذي تسبب غموض شعره في إيجاد مكان لقضية الغموض الشعري في خارطة النقد العربي القديم .

وقد تألَّق الغموض في فضاء قصائد أبي تمام وهو يعبِّر عن همٍّ حضاريٍّ جديد عايشه في تجربته وشكَّله في قصائده ، ولهذا جاءت أشعاره منطوية على غموض نسبيّ يتراوح بين الشفافيّة والكثافة وفق درجة مجاوزته للبنية الدلاليّة السائدة وتخطِّيه لعمود الشعر . وغموض أبي تمام لا يرجع في حقيقته إلى غموض الفكرة في ذهنه ، ولا إلى التواء العبارة عنده ، وإنما يرجع إلى المزاوجة بين الثقافة والفن ، وكان أبو تمام لا يستريح إلى المعنى القريب ، ولا يطمئن إلى الفكرة السطحيّة ، ولكنه يحرص على النَّفاذ داخل الفكرة والتغلغل في أعماقها ، يقول أبو تمام :

وَلِهَتْ فأظلم كلُّ شيءٍ دونها وأَنَارَ منها كلُّ شيءٍ مُظْلِمِ (١)

(١) عطية ، شاهين : شرح ديوان أبي تمام ، ص (٢٩٤) .

ومعنى هذا البيت أن هذه الفتاة ولهت فأظلم ما بيني وبينها بسبب ما نالني من الجزع لولهها ، ثم وضح لي منها ما كان مستترًا عني من حبها إياي ، فأضاء ذلك ما التبس دوني .

لجأ المعري إلى الغموض في أسلوبه ، والحق أن ظاهرة الغموض ليست شيئًا سيئًا في مجملها ، فهناك غموض أقرب إلى مفهوم البيان يمكن أن يُسَمَّى الغموض الفني الذي يبحث في الألفاظ والمعاني دلالات متجددة ، وهذا الغموض الفني له وظيفة تخدم الوضوح المنشود ، يقول المعري :

ألم ترني عرفت وعيد رَبٍّ أقلّ تكلُّمي وأطال ضِمْزِي (١)

فكلمة (ضمزي) هنا تقابل التكلم ، وليس القارئ بحاجة إلى كثير من الجهد ليستدل على أنها تعني الصمت ، فالغموض هنا أسلوب في الاستثارة المرغوبة لذهن المتلقي .

كَرَّرَ المعري المعاني في شعره ، ولكنه أحيانًا يأتي بالمعنى وفيه زيادة تزيد اللفظ والمعنى رونقًا وجمالا ، ومن ذلك قوله :

يَدُلُّ على فضل المماتِ وكونه إراحةَ جسم أن مسلكه صَعْبُ (٢)

ويقول المعري :

ويَدُلُّني أن المماتَ فضيلةٌ كونُ الطريق إليه غير مُيَسَّرِ (٣)

حيث استدل في البيت الأول على فضل الموت وأن فيه راحة الجسم ، واستدل في البيت الثاني على فضل الموت بصعوبة الطريق .

والغالب على أسلوب المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) المتانة وقوة الأسر والجزالة ، وقد تَحَدَّثَ دارسو أبي العلاء المعري عن جزالة أسلوبه أو متانة تراكيبه ، وألصقوا أوصاف

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (٩) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٥١) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٣١٠) .

الجزالة والرصانة والمتانة والفخامة بعباراته الشعرية [١] ، يقول الدكتور طه حسين: " أكثر اللزوميات متين اللفظ ، فخم الأسلوب ، وقليل منها السهل الرقيق " [٢] ، فالجزالة ملحوظة في اللزوميات ؛ وذلك لأن اللزوميات تُمثِّلُ نضج أبي العلاء المعري في الشكل المسبوك والهدف المنشود ، يقول المعري :

سَـــرَيْنَا وطـالـبنـا هــاجـعٌ وعند الصباح حَمِدنا السُّرَى [٣]

جَدَّتِ الآمال في تضليل العقول وتسفيه الأحلام واجتهدت في التغرير بالناس منتهزة غفلة الحق عنهم ، فبلغت الأمر الذي أرادته وأدركت الغاية التي ابتغتها، وانقاد الناس لهذه الآمال فسروا في ظلمة الليل يَرْتَسِمُونَ خطوها ، حتى إذا ما انمحت هذه الظلمة وأدبر ذلك الليل وبدأ صباح الحق أبلج وضاحًا حَمَدُوا السُّرَى واطمأنوا إلى غاية ليس بينها وبين ما كانوا يؤملون إلا ما بين الموت والحياة من الاختلاف . ويقول المعري :

إنَّ الـشبيبة نــارٌ إن أردت بـها أمرا فبادِرْهُ إن الدَّهْر مُطفِئُها [٤]

يدعو المعري إلى الإسراع إلى ما يَخْلُقُ بالإنسان من نفع الناس معرضًا عما لا خير فيه ، وأن يبادر بذلك أحسن الأوقات وأشدها ملاءمة له وهو وقت الشباب ، فالشباب أوفق وقت لاستيفاء الحاجات واقتضاء اللذات ، وما الشباب إلا كالنار يجدر بمن يريد الانتفاع بها أن ينتهز فرصة اشتعالها وتَلَظِّيهَا ، ولئن أصاب قوة الشباب وهن الشيب فلن تستطيع أن ترد ذلك الضعف قوة ولا أن تُحَوِّلَ هذا الخمود استعارًا . ويقول المعري :

---

(١) يبدو أن ما يعنيه الدارسون بما أسموه الجزالة أو المتانة أو الرصانة أو ما شابه ذلك من الصفات هو غلبة طابع من جهارة الإيقاع وبداوة اللفظ وإحكام العبارة .

(٢) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (٢٢١) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٤٥) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (٣١) .

فَشِمْ صارما واركزْ قناة فللردى يَدٌ هـي أولـى بالحِمَام وأَدْربُ (١)

يأمر المعري بإغماد السيوف وإركاز الرماح ، وأن لا يبلغ من الإنسان حب الحياة والشغف بها أن يَتَعَجَّلَ بعضهم منايا بعض ، فإن للموت الطبيعي يَدًا أمهر من أيديهم في القتل وحسامًا أَمْضَى من سيوفهم في الهام وسِنَانًا أثقب من أسنتهم للصدور ، فالموت سيريح بعضهم من بعض .

وهناك أبيات جمعت حسن الوصف إلى قوة الأسلوب ورشاقة الألفاظ ونبل المعاني وطيب الجرس ، يقول المعري :

إن الأعلاء إن كـانـوا ذوي رَشَـدٍ بـمـا يُـعَـانُـونَ من داء أطـبَّاءُ (٢)

فالعليل طبيب إذا عرف علته واستقصى حقيقة الداء الذي يعانيه ، فلا بد من معرفتك علتك في هذه الحياة واستقصاء حقيقة ما يصيبك فيها من أذى وما يُلِمُّ بك فيها من مكروه وأصل هذا كله حاجتك التي لا تنقضي وتتبعك لتحقيق ما تثير الحياة في نفسك من رغبات ، والرجل اللبيب هو الذي يشفي نفسه من الحاجة ويكفها عن تتبع المآرب . ويقول المعري :

خُـذِي رأيي وحـسبك ذاك مِنِّي عـلـى مـا فـيّ من عِوَجٍ وأَمْتِ (٣)

يُقَدِّمُ أبو العلاء المعري رأيه للناس ويرى أنهم لا يملكون أن يطالبوه بأكثر من هذا الرأي ، بل هو يرى أن الناس يجب أن يأخذوا رأيه على ما فيه من عوج وأمت ، وليس لهم أن يقوموه ولا أن يقوموا رأيه وإنما لهم أن يقبلوا منه هذا الرأي أو أن يردوه عليه ، فالمعري يعرف أنه مِعْوَجٌّ ويعرف أن فيه أَمْتًا وانحرافًا ، ولكنه يعرف أن ذلك يعنيه ولا يعني غيره .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٥٤) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٣١) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (١٢٩) .

وفي أسلوب المعري كثير من السهل الممتنع ، يقول المعري :

إذا افترقت أجزاؤنا حُطَّ ثقلُنا ونحمل عِبئا حين يلتئم الشّعبُ (١)

فأمر هذا العالم بين جمع وتفريق وتباعد وتقارب ، والحياة من أهم عناصر الجمع بعد التفريق والتقريب بعد التباعد ، والموت ينقض ما جمعت ويفرق ما ألفت ، فمن كره الجهد وتبرم المشقة وسئم العنف واحتمال الأثقال فسبيله أن يُؤْثِرَ الموت ؛ لأنه يَحُطُّ عنه كل ثقل ، ويلقي عنه كل عبء ، ولأنه يبدأ فيحط عنه ثقل نفسه قبل أن يحط عنه ثقل غيرها من الأشياء ، فالمعري يُصَوِّرُ التئام الجسم الحي على أنه شر يصدر عنه الجهد والتعب ، ويُصَوِّرُ افتراق هذه الأجسام على أنه خير تصدر عنه الراحة والهدوء .

وأحيانًا تشيع الجزالة في القصيدة كلها وتنتشر بين قوافيها ، يقول المعري :

لأمواهُ الشبيبة كيف غِضْنَهْ وروضات الصِّبَا كاليبس إِضْنَهْ (٢)

فالتصريع بين (غضنه) و (إضنه) ارتفع إلى هذه الجزالة في شطريه ، وتأتي الجزالة في القصيدة كلها من التزام ما لا يلزم ، فهاء السكت هذه التي التزمها المعري في آخر كل بيت بعد هذه النون المفتوحة وبعد هذه الضاد الساكنة ، تمنح البيت قوة معتدلة هي الجزالة بنفسها ، فضخامة في الضاد ثم خفة في النون ثم حلاوة في هذه الهاء الساكنة ، فيصور المعري حكمته في هذه الحياة بتصوير جزل لا يلين كل اللين ولا يعنف كل العنف وإنما يتوسط في ذلك .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٥١) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٨٩) .

وقد يُعَلَّلُ ما لُوحِظَ من قوة الأسلوب وأناقة التأليف إلى ما عُرِفَ عن أبي العلاء المعري من أنه أَكَبَّ في صباه وشبابه على الاطلاع على كتب الأدب ، وكانت له حافظة عجيبة ، فَحَصَّلَ ذخيرة أدبية ضخمة نفعته طوال حياته وانطبعت في مخيلته أساليب العرب في أشعارهم وبخاصة أساليب كبار الشعراء الذين أعجب بهم .

اِتَّخَذ أبو العلاء المعري الشعر العربي القديم مصدرًا يستمد منه صوره ، فالتراث الشعري من أهم مصادر الصورة عنده ، إذ إن ثقافة المعري وسعة اطلاعه على مختلف الفنون الأدبية للسابقين له في تاريخ الأدب العربي كان لها الدور في خلق إمكانياته وقدراته ومنحه المعلومات المرئية ، ويظهر أثر أبي العتاهية في صور أبي العلاء المعري ، يقول المعري :

أرى الأيام أنضاءَ البرايا ... عليها منهمُ أشباح سَفْرِ
فما يَبْرُقْنَ من زَوْلٍ عجيب ... ولا يَفْرَقْنَ من صبح ونفرِ
يَسِرْنَ بمن حملن الدهر حتى ... يُنخن بهمْ إلى أبيات حَفْرِ (١)

حيث إن المعري يُصَوِّرُ الأيام بالرواحل التي تقل الناس على ظهورها وتقطع بهم تلك الصحراء ، وهذا نجد مثله عند أبي العتاهية ، حيث يقول :

إنَّمَا الدنيا مناخ لِرَكْبٍ ... يُسْرِعُ الْحثَّ بشد الرِّحَالِ (٢)

لقد رفض أبو العلاء المعري أخلاق مجتمعه في كثير من الأحيان ، فَسَخِرَ من هذا المجتمع ، كالمتنبي الذي رأى مجتمعه وقد اختلت قيمه فساد الجهلاء وتطاول السفهاء ، ولأبي العلاء المعري تشبيه ساخر صَوَّرَ فيه الأمة كقطيع غاب راعيه ، يقول المعري :

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢٩٨) .

(٢) أبو العتاهية ، إسماعيل بن القاسم : ديوان أبي العتاهية ، (د.ط) ، دار بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ ، ص (٣٦١) .

يـا أُمَّـةً مـن سَفَاهٍ لاحُـلـومَ لـهـا ... مـا أنت إلا كَضَأْنٍ غـــاب راعـيـها [١]

وكأني به قد استرجع سخرية أبي الطيب المتنبي ، إذ يقول :

أَغَايَةُ الدين أَنْ تُحْفُوا شـواربـكـم ... يا أُمَّةً ضحكت مِـــنْ جَهْلِهَا الأمـــمُ [٢]

وقد بالغ مارون عبود في توضيح أثر المتنبي في شعر أبي العلاء المعري في ديوان (لزوم ما لا يلزم) فهو يقول: " إن أبا العلاء ربيب المتنبي في خطوط فلسفته الكبرى " [٣] .

وهناك مصادر أخرى استمد منها أبو العلاء المعري صوره ومعانيه ، ومنها الدين وبخاصة القرآن الكريم ، " وأبو العلاء من أكثر الشعراء اقتباسا من القرآن " [٤] ، يقول المعري :

تـــقـــواك زادٌ فـــاعـــتـــقـد أَنَّـه ... أفضلُ مـا أودعتَهُ في السقـاءْ [٥]

فقد شَبَّهَ التقوى بالزاد ، وهو مستمد من قول الله تعالى :﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٦] . ويقول المعري :

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (٣٤١) .

(٢) سبيتي ، مصطفى : شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، المجلد الثاني ، ص (٢٦٥) .

(٣) عبود ، مارون : أبو العلاء المعري زوبعة الدهور ، ص (٢٤) .

(٤) زنجير ، محمد بن رفعت : فن التشبيه في الشعر العباسي ، ط١ ، دار الأمان ودار اقرأ ، الإمارات وسوريا ، ١٤٢٣هـ ، ص (١١٦) .

(٥) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٤٢) .

(٦) سورة البقرة ، آية (١٩٧) .

والناس مثل النبت يُظْهِرُهُ الحيا ويكون أول هُـلْكِهِ الإظهـارُ (١)

فقد شَبَّهَ المعري الناس بالنبت ، وهذا شيء قد نطق القرآن به في قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٢) .

ولئن كانت هذه الصور القرآنية معروفة ، فإنها ترجمت عن روح الشاعر الإسلامية الأصيلة وثقافته الدينية العميقة .

وعى أبو العلاء المعري الإسلام ، وأفاد منه في جوانب مختلفة من إبداعه الفني ، ولذلك نجده يستمد منه جملة من صوره الفنية ، يقول المعري :

جـليسُ الخير كالدَّاريّ ألقى لـك الـريا كـمُنتسم الـعَـرَارِ

ولـكـنْ ضِدُّهُ في الربع قين أطـار إليك مُـفْتَرِقَ الـشرارِ (٣)

فالجليس الصالح ينفع صاحبه ويَدُلُّهُ على الخير فهو كحامل المسك الذي ينفع أصحابه برائحته الطيبة ، وأما الجليس السوء فهو مُضِلٌّ كنافخ الكير الذي يؤذي نفسه وجليسه ، وهذه الصورة مستمدة من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك ، إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير ، إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة " (٤) .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٢٥٤) .

(٢) سورة نوح ، آية (١٧) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٣٠٦) .

(٤) مسلم ، مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، ط١ ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٢٧هـ ، حديث رقم (٢٦٢٨) ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ، المجلد الثاني ، ص (١٢١٥) .

ومن مظاهر التقليد عند أبي العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) ذكر الناقة والخيل والثور الوحشي والطير والنعام في صوره الشعرية ، ومن ذلك تشبيه للزمن تارة بالناقة ، حيث يقول :

ساعاتُنا تحت النفوس نجائبٌ وخـدَتْ بـهـن بعيدة الإطلاقِ (١)

وتارة بالخيل ، حيث يقول :

أغارتْ عليهمْ خيولُ الـزمان كـأن خُـيـولـهـم لـم تُـغِـــرْ (٢)

حيث جعل للزمان خيولا قد أغارت بها على الناس وترك فيهم مصائب .

ويقول المعري :

أو نـــــاشـــطٌ يـتـبـغَّـى فـي مُـقْـفِـر الأرض عِـــرْبَـه (٣)

فالناشط الثور الوحشي يطلب يبس البهمى وهو نبات كالشعير إلا أنه أصغر ورقًا وأقصر ساقًا . ويقول المعري :

وكذاك حكمُ الدهرِ في سُكَّانِهِ عَـيْـرٌ لـه أذن وهيق أصـلـمُ (٤)

فالهيق ذكر النعام ووصفه بالصلم لصغر أذنيه كأنهما قطعتا .

فغلب على أبي العلاء المعري أسلوب الجاهلية في بعض أغراض شعر اللزوميات ، فهو يطبع على غرار شعرائها في هذه الأغراض ، لذلك نراه يصف الناقة والخيل والسيف والدرع وما شاكل ذلك حتى يُخَيَّلُ لك أن صاحب هذا الشعر أعرابي عريق في أعرابيته ، ولا شك في أن سبب ذلك كثرة ما يحفظه من كلام أهل الجاهلية .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (١٢٤) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٣٣٧) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٧٧) .

(٤) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٢٨) .

وأضفى العنصر الإيحائي الذي توافر في عدد من المقطوعات في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) على صوره كثيرًا من الغنى وجعلها تتصف بصفات الصور الحية ، يقول المعري :

ولائحُ هذا الـفجر سيف مُـجَرَّدُ أعان به صَـرْفَ الزمان معينُ (١)

إذ (ولائح الفجر) لم تعد نجومًا وفجرًا ، وإنما خلع المعري عليها من إحساسه وعاطفته وإدراكه ، فاختلط بروحه ، والنجوم قد ارتبطت بالأسنة والسيف فأصبحت رُمُوزًا توحي بموقفه .

والواضح أن مواد الصورة الشعرية عند أبي العلاء المعري كانت تتألف في ذهنه وخياله من كل ما وقع عليه فكره وعقله وما يرتبط بذلك من مشاعر ، واستطاع المعري أن يَمْزُجَ بينها في بناء فني متحد الأجزاء منسجم الأطراف .

د–التقليد في الموسيقى الشعرية :

تعد الموسيقى الشعرية بما تحمله من وزن وقافية وإيقاع من العناصر الأساسية في البناء الفني للشعر بحيث لا ينفك منها ولا يمكن الاستغناء عنها ؛ لأنه بدونها يفقد قيمته وأثره ، والوزن ليس مجرد قالب خارجي يصب الشاعر فيه تجربته ، وإنما هو جزء لا يتجزأ من العمل الفني ، فهو اتساق للألفاظ في نظام موسيقي يمنحها قدرة على الإيحاء والتصوير .

وأشعار أبي العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) أكثر غنى بالموسيقى فقد كانت أكثر حَظًّا من الأوزان إذا ما قيست بأشعار ديوانه (سقط الزند) ، وبحر البسيط كان أوسع الأوزان انتشارًا فيها إذ نظم المعري فيه نحو سبع وعشرين وأربع مئة لزومية ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٧٦) .

ويليه الطويل الذي نظم فيه ثمانيًا وسبعين وثلاث مئة لزومية ، ثم الكامل الذي نظم فيه سبعًا وعشرين ومئتين ، ثم الوافر الذي نظم فيه إحدى عشرة ومئتين ، ثم المتقارب الذي نظم فيه أربعًا ومئة لزومية ، ثم السريع ثلاثًا ومئة لزومية ، ثم الخفيف الذي نظم فيه خمسًا وسبعين لزومية ، بينما كان نصيب المنسرح سبعًا وأربعين لزومية ، وكان نصيب الرمل عشرًا ، وكان نصيب الهزج سبعًا ، وللرجز خمس لزوميات ، والمجتث في أربع ، ولم يأت المديد إلا في لزوميتين ، وأما الأوزان التي لم ينظم فيها شيئًا مطلقًا فكانت المضارع والمقتضب والمتدارك .

نلحظ أن أبا العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) استخدم أوزانًا لم يستخدمها في ديوان (سقط الزند) مثل : الرمل والهزج والمديد ، وإن كان هذا الاستخدام قليلا جِدًّا ، ويبدو أن هذا الاستخدام النادر أو القليل لهذه الأوزان الثلاثة يأتي استكمالا أو تنفيذًا للخطة التي التزم بها أبو العلاء المعري النظم من كل البحور العروضية وعلى كل حروف المعجم رَوِيًّا ، وقد أشار المعري إلى شيء من ذلك في مقدمة اللزوميات " وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو القطعتين ليكون قضاء حق التأليف " [1] .

وهكذا يبدو أن أبا العلاء المعري كغيره من الشعراء السابقين لم يَسْتَحْدِثْ أوزانًا خاصة في الشعر العربي ، وأنه قد آثر في الأغلب ما آثره شعراء العربية من سابقيه ومعاصريه من أوزان شائعة يغلب عليها البسيط والطويل والكامل والوافر .

وهناك صِلَةٌ وثيقة بين القافية وموسيقى الشعر ، فهي من العناصر الأولى في إيقاعه ، وهي إلى جانب ذلك تُكْسِبُ الكلام إيحاءً خاصًّا وظلالا موسيقية لا تتهيأ للكلام المنثور ، وتضيف القافية بموسيقاها قوة إلى الموسيقى التي يُحْدِثُهَا الوزن .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٦) (المقدمة) .

وقد عُنِيَ أبو العلاء المعري بقوافيه لكي تُضْفِيَ نغمًا موسيقيًّا مناسبًا ، وأدرك ما يتطلبه الشعر من تنغيم ، ولذلك عمد إلى التصريع ، ولم يكن استخدام المعري للتصريع قليلا في اللزوميات ، وقد جاء في مطالع القصائد كما في قوله :

أُولو الفضل في أوطانهم غرباء تَشِذُّ وتنأى عنهم القُرَباءُ (١)

وقوله :

لأمواهُ الشبيبة كيف غِضْنَهْ وروضات الصِّبا كاليبس إِضْنَهْ (٢)

فقد أضاف أبو العلاء المعري بالتزام ما لا يلزم في القافية من خلال الخصائص الصوتية ، فهاء السكت التي التزمها المعري في آخر كل بيت في هذه القصيدة بعد النون المفتوحة وبعد هذه الضاد الساكنة ، تَمْنَحُ الأبيات كمالا موسيقيًّا وطاقة موسيقية إضافية ، أَضْفَاهَا المعري على الصياغة حين وُفِّقَ في التزام ما لا يلزم في قوافيه .

وليس الوزن والقافية كل موسيقى الشعر ، فموسيقى الشعر لا تتشكل فحسب من الوزن والقافية ؛ لأن هناك ألوانًا من الإيقاع تسمى الموسيقى الداخلية أو الخفية لها أهميتها في هذا المجال ، وهذه الموسيقى تَكْمُنُ في اختيار الشاعر للكلمات ذات النغم وترتيبها بطريقة متآلفة .

والتكرار ظاهرة من ظواهر الشعر القديم والحديث ، ولقد اتخذت هذه الظاهرة مجالها لدى أبي العلاء المعري في كثير من المواقف ، يقول المعري :

أسرارُ نفسك في البلاد كأنَّها أسرار وجهك ما عليه لِثَامُ (٣)

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٧) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٨٩) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٣١) .

فالتكرار يَضْمَنُ تضاعف الحدة والعنصر المردد أقوى من العنصر المفرد ، والترديد لا يخبر ولكنه يعبر ، ولذلك كان الكلام الذي يخضع للترديد كلاما تَأْثِيرِيًّا وبذلك يتضح أن الشعر يقول ويعيد ما يقول ليحقق هدفه الأسمى ألا وهو السمو بالكلام .

وقد لجأ أبو العلاء المعري إلى التقسيم ، فعمد إلى تركيب كثير من أبياته بجمل متساوية بحيث تعطي نغمًا متقاربًا متكررًا ، ومن ذلك قوله :

وجوهكمُ كُلْف وأفواهكم عدًى وأكبادكم سود وأعينكم زُرْقُ (١)

ويقول المعري :

نهارٌ يضيءُ وليلٌ يَجِيء ونجمٌ يغورُ ونجم يُرَى (٢)

ويقول المعري :

حياةٌ عناءٌ وموتٌ عنا فليتَ بعيد حِمَامٍ دَنَا (٣)

فالأبيات كما هو واضح بما تضمنته من حسن تقسيم لا تخلو من إيقاع موسيقي ، وهذا يُؤَكِّدُ أن المعري كان يمتلك قدرًا غير قليل من الإحساس بالمقطع بحيث يعود إلى الفطرة الأصلية في طبيعة الإنسان .

ويلحظ المتأمل في شعر أبي العلاء المعري أن التقسيم الموسيقي كثير كثرة لافتة للنظر ، وكثيرًا ما يلجأ إليه المعري ، وهذا ليس غريبًا ؛ لأن هذه الوسيلة أصبحت من السمات الفنية المعروفة للشعر العربي يزيد من حدة إيقاعه ويؤكد صورته ، ويقدم دليلا على براعة المعري في حشد أكبر قدر من الجزئيات لصورته الشعرية داخل إطار البيت الواحد .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١٠٤) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٤٩) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٤٩) .

إن أبا العلاء المعري كغيره من الشعراء يستمد من أنماط الشعر العربي السابق بعضًا من القبسات الصياغية والأسلوبية التي رسخت في ذهنه من شعر سابقيه وهذا هو عنوان أصالته .

الفصل الثالث : مظاهر التجديد في شعر المعري .

المبحث الأول : التجديد في سقط الزند .

١ - معنى التجديد :

التجديد إضافة الابتكار والإبداع على الأصل القديم ، فهو ابتكار شعري سواء أكان في النسق أم في الصورة أم في المفردة أم في العبارة أم في الشكل أم في المضمون ، والتجديد فيه طلب اِسْتِدْعَاءٍ ، إذ التاء للطلب ، فيكون تجديد الشيء يعني طلب جدته بالسعي والترسل إلى ما يجعله جديدًا ، وفي القاموس المحيط : "جد يجد فهو جديد أو أجده وجدده واستجده : صيره جديدًا فتجدد " [١] ، وفي لسان العرب : " جد الثوب والشيء ويجد بالكسر ، صار جديدًا ، وهو نقيض الخلق " [٢] ، فالتجديد كل جهد يعمل على الإضافة إلى ما هو حاضر موجود بين الناس لتغيير صورته وإكسابه صفة الامتداد مسايرة للواقع وتعبيرًا عنه .

وظاهرة التجديد ظاهرة طبيعية ، وقد عَرَفَ الشعر العربي في تاريخه الطويل مظاهر تجديدية ، كبشار بن برد الذي يُعَدُّ أول المحدثين ، وأبي نواس الذي ثار على نهج القصيدة ، وأبي تمام الذي كان مفتونًا باستخدام ألوان البديع ، وكانت جذور التجديد تنبع من حاجات تاريخية واجتماعية ونفسية ، فيخوض الشعراء تجربة التغيير بما يملكونه من جرأة وأدوات ، فالتجديد " بجميع مظاهره المعجمية والمجازية والرمزية ما هو إلا استجابة لضرورة التحقيق الموضوعي ذي القيمة الجمالية لنوع من الجدة النفسية " [٣] .

---

(١) الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ، مادة (الجد) ، المجلد الأول ، ص (٣٩٠) .

(٢) ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، مادة (جدد) ، المجلد الثاني ، ص (٢٠٢) .

(٣) فضل ، صلاح : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، ط١ ، دار الشروق ، مصر ، ١٤١٩هـ ، ص (٨١) .

وأبو العلاء المعري شاعر مثقف قد أثرت ثقافته في شعره ، فقد كان العصر العباسي عصر تطور وازدهار ازدهرت فيه العلوم الدينية ، كما نشطت رواية الشعر وتم جمعه وتدوينه ، وتطورت العلوم الدينية البحتة من طب وهندسة وفلك ، فالتجديد له قيمته في هذا العصر بسبب التغيرات التي طرأت على الحياة في العصر العباسي الثاني ، والتطور في صناعة الشعر والرقي في الذوق لدى الناس .

٢-التجديد في الشكل :

أ-التجديد في بناء القصيدة :

تَخْضَعُ كل قصيدة شعرية لبناء معين يضمن لها تماسكها ، لكن الضغط الذي تحدثه الظروف الواقعية سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم نفسية تجعل الشاعر يتسرع لإفراغ شحناته الفكرية والعاطفية فيهجم على الموضوع الذي يشغل تفكيره ووجدانه دون أن يجعل لعمله الإبداعي بسطًا من الطلل أو النسيب أو الرحلة على الرغم من كون هذا البسط مما جرت عادة الشعراء إلى ذكره ومما تعود مُتَلَقُّو الشعر على سماعه ، إلا أن البناء البسيط للقصيدة الشعرية وسيلة ناجحة يعتمدها الشاعر في لحظة فكرية ووجدانية معينة يُفَرِّغُ فيها حمولته الفنية والإبداعية المعبرة بكل صدق وشفافية عن واقعه الذي يحياه .

ولعل البناء البسيط ليس مذهبًا شرعيًّا بقدر ما هو إحدى طرق الإبداع الشعري على مستوى البناء والشكل الشعري ، وهو يشكل تَجَلِّيًا من تجليات حضور الواقع بشكل مكثف ، وهو إلغاء لكل العراقيل والحواجز الشكلية التي تعترض ذلك السيل المتدفق العارم من الأفكار والعواطف التي تؤرق بال الشاعر وتختلج في نفسه ووجدانه وعقله وذاته ، وكأن المعري يراها الطريقة الْمُثْلَى للتعبير عن موضوعه مباشرة دون حاجة للمرور بمراحل الطلل

والنسيب ، لاعتقاده أن وحدات الطلل والنسيب لا يمكنها أن تضفي جديدًا على ما سيقوله مادامت تعني له دلالات ومضامين غرضه وموضوعه نفسها .

وهناك بعض القصائد في (سقط الزند) يبدأ فيها أبو العلاء المعري بموضوعها مباشرة دون تمهيد لهذه القصائد ، ومع ذلك تبدو كالقطع البراقة اللامعة من بين هذه الكثرة من المقدمات التقليدية المألوفة ، محاولة منه في إخراج جديد أو تشكيل جديد لوحداتها أو إعادة لتوزيع عناصرها وألوانها أوتحريك لأوضاع القصيدة عن الأوضاع المألوفة . وربما كانت أشد هذه المقدمات توهجا في ديوانه مقدمة قصيدته العينية التي قالها في وداع بغداد قبل رحيله عنها :

نَبِيٌّ من الغِرْبَانِ ليس على شَرْعِ يُخَبِّرُنَا أن الشُّعوب إلى الصَّدْعِ (١)

مقدمة تُشَكِّلُ بحق مقدمة جديدة في شعرنا العربي في هذا النغم الذي يختلط فيه الرمز الديني بالأسطورة الشعبية ، مع أجواء من الرؤى والأحلام والوهم الغامض المثير ، وهي تُعَبِّر تعبيرًا عفويًّا مباشرًا عن أفكار المعري وأحاسيسه وعواطفه ، هذه الأفكار وهذه العواطف غالبًا ما تمتاز بالتأزم الشديد والرغبة في الكشف عن المجهول واستشراف آفاق جديدة . وفي هذه القصيدة قمة التعبير عن الواقعية ، هذه الواقعية تستخلص بدءًا بالبناء الشعري الذي يعتمده المعري ، وهو بناء لا تُرَاعَى فيه الشَّكْلِيَّةُ بقدر ما تُرَاعَى فيه سلامة الرسالة وتحقيقها لمبدإِ التواصلية ، وهذه الواقعية لا تَنْفِي عنها صفة الفنية ، فهذا النمط الشعري فنّيّ جميل احتل مكانة مهمة في ديوان الشعر العربي .

ويبدو أن المعري بذلك يعالج الموضوع مباشرة دون اعتماد مقدمة طللية أو غزلية ، وهذه المباشرة لا تعني النثرية أو التقريرية بل هي تعبير واضح عن تمثل الواقع ومظاهره ، فالشاعر يعبر من خلال هذه الأبيات عن حالة نفسية عصيبة تمر بها الذات الإنسانية ، حالة التأمل والتدبر والتأزم النفسي والعاطفي ، إنها حالة نفسية تنفصل فيها الذات الشاعرة عن واقع المادة لتنتج فضاءات الروح ، ولتلج مجالا من التصورات والرؤى والقيم والأفكار ، فَيُتِيحُ هذا البناء

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٢٤) .

للشاعر التعبير عن نفسه أولا وآخرا ، كما يتيح له تقديم همومه الواقعية على غيرها من المواضيع والأفكار المرتبطة بالطلل أو المرأة أو الفرس .

كان المعري يحرص على الوحدة الموضوعية في شعره وبخاصة في درعياته ، وقد أضاف المعري في ديوانه (سقط الزند) شيئًا جديدًا بوصفه الدروع لا من حيث وصف الدروع فوصف الدروع قديم في الشعر ، ولكن من حيث ظاهرة التخصص الذي يجعله يفرد فيه قصائد ومقطوعات كاملة لا يشركها فيه أي موضوع آخر ، وهي صورة جديدة لم تُعْهَدْ من قبل في الشعر العربي توفرت فيها الوحدة الموضوعية ، فمن قصائده في ذلك قوله :

صُنْتُ درعي إذ رمى الدهر صَرْعَيّ بـمـا يـتـركُ الـغـنِيَّ فـقـيرا (١)

ومن مقطوعاته قوله :

من يشتريها وهي قَضَّاءُ الذَّيْلْ كـأنـهـا بـقيَّةٌ مـن الـسَّيْلْ (٢)

بدأ المعري بموضوعها الأساسي مباشرة ؛ لأن المقدمة الطللية في هذه الحالة ستصبح شيئًا غريبًا لا مبرر له ولا معنى لوجوده ، ومن الطبيعي أن هذه الوحدة الموضوعية لا يمكن أن تستقيم له إلا إذا تخلص من هذه المقدمة .

وقد اشتمل ديوان (سقط الزند) على ثلاث عشرة ومئة قصيدة أو مقطوعة ، منها سبع وثمانون قصيدة وست وعشرون مقطوعة ، ومن تلك المقطوعات :

خَبِّرِيني مـاذا كَـرِهْـتِ مـن الشيـ ـب فلا عِلْمَ لي بذنب المشيبِ (٣)

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٦٤) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٦٣) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٥٠) .

فالمعري أسير في مجتمعه يتأثر به ويؤثر فيه ، وأمام هذه الحياة القلقة في التركيبة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، لم يَعُدْ في الوقت متسع لسماع المطولات لذا فقد انتشرت المقطوعات .

وهناك ظاهرة لافتة في ديوان (سقط الزند) وهي بداية ظهور إرهاصات لمذهب أبي العلاء المعري الذي التزمه في لزومياته من لزوم ما لا يلزم ، حيث نجد بعض قصائده يلتزم حرفًا أو أكثر قبل حرف الروي في أبياتها كلها ، ومن تلك الإرهاصات المقطوعة التي مطلعها :

ذَلَّتْ لـمـا تصنع أيامنا نُـفُـوسُنا تـلك الأبيَّاتُ (١)

فحرف الروي هنا التاء مسبوقة بألف الردف ، والتزم المعري الباء والياء المشددة قبل ألف الردف في جميع أبياتها .

وهناك محاولات أخرى حاول فيها المعري التزام ما لا يلزم ، وكأنه يبحث عن الطريق يسلكه حتى النهاية ، ومن ذلك مقطوعته التي مطلعها :

وَرَائي أمامٌ والأمـامُ وراءُ إذا أنا لم تُكْبِرْنِيَ الكُبَراءُ (٢)

فحرف الروي هنا الهمزة مسبوقة بألف ردف ، والتزم الراء قبل ألف الردف في جميع أبياتها ماعدا البيت الثاني (ثناء) .

ب–التجديد في المادة اللغوية :

لكل شاعر مقدرة لغوية محددة ، ولكل شاعر وسائله التعبيرية في ذلك ، وبهذا تَمَيَّزَتْ أساليب الشعراء عن بعضها واختلفت ، فالشعراء يختلفون في مقدرتهم على تحقيق ذلك ، فمنهم من تكون له مقدرة لغوية كبيرة وثقافية واسعة ، فيستغل ذلك كله في التفنن في استخدام اللفظة والتصريف في تركيبها ومنهم من تضيق مقدرته فيكون استخدامه محدودًا . فاللغة في الشعر " ليست ألفاظا معجميَّة ذات دلالات حيادية ثابتة ، ولكنَّها لغة انفعال

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١٩١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٧٧) .

مرنة ، وهذا معناه أنَّ اللفظ ذو خصوصيَّة في الانتقال باللغة من المعنى المعجمي إلى المعنى الشعري ، مستحدثًا لغة ثانية إلى جانب اللغة العاديَّة ؛ إذ تتسع دلالالته وتضيق تبعا لما يَبُثُّ الشاعر فيه من طاقات ، وما يشحنه من ذات نفسه " [١] .

وأبو العلاء المعري ممن كانت مقدرته اللغوية كبيرة ، استطاع أن يحيط إحاطة واسعة بمفردات اللغة ، فقاموسه اللغوي جعله ظاهرة في الشعر العربي في استخدامه للمفردة وسعة تصرفه في استخدامها ، فمثلا الليل وتوابعه وصفاته وألوانه وحالاته ثم النهار وتوابعه ولوازمه من المحاور في قاموسه ، فما ذكر الليل أو الظلمة إلا وذكر ما يناقضها ويقابلها ، ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :

أَفَـوْقَ البدر يوضـع لي مِهَـادُ أم الـجـوزاء تحت يدي وِسَـادُ [٢]

فالمأساة التي عاشها المعري وهي العمى جعلت أكبر محاور قاموسه اللغوي الليل والنهار وما لازمهما وتابعهما وقارنهما من ألفاظ وصفات ، فالمحور الرئيس في هذه القصيدة : الليل ، الليالي ، الدجى ، ولوازمه : البدر ، النجم ، الجوزاء ، وصفاته المقارنة : الظلماء ، السوداء ، وما يلحق به : النقع ، الرماد ، أما المحور المقابل الرئيس : صبح ، صباح ، إصباح ، ولوازمه : الضحى ، الشمس ، الضوء ، وصفاته المقارنة : أغر ، البياض، ما يلحق به : النار ، الزناد .

ولثقافة أبي العلاء المعري وسعة اطلاعه على اللغة أَثَرٌ في شيوع المشترك اللفظي في شعره في ديوان (سقط الزند) ، فقد أكثر المعري من استخدام المشترك اللفظي ، وهذا الاستخدام الشائع للمشترك اللفظي في شعر المعري يعكس حرصه على إظهار براعته اللغوية ، وكذلك يُمثِّلُ ظاهرة أسلوبية تُكَمِّلُ غيرها من الظواهر التي تشكل البناء الفني عند أبي العلاء

---

(١) وقاد ، مسعود : الموقف والتشكيل في الشعر الإحيائي (بين المعري وحافظ إبراهيم) ، من الموقع الإلكتروني http://www.alfusha.net ، بتاريخ ١٨/٧/١٤٣٣هـ .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٨٥) .

المعري ، فهو يساعد على إبراز الأفكار وتوضيح مقتضياتها " والكشف عن جوانب مهمة من بنية العمل نفسه ، بالرغم من أنها تتعلق بمستوى المفردات فحسب " [١] ، يقول المعري :

وكيف تنام الطير في وُكُناتِهَا وقد نُصِبَتْ للفَرْقَدَيْنِ الحبائلُ [٢]

فقد ذكر المعري الحبائل في هذا الموضع ، لأن الفرقد لفظة مشتركة يسمى بها الكوكب والبقر الوحشي ، ومن شأن الوحش أن تُنْصَبَ لها الحبائل .

أُولِعَ أبو العلاء المعري بالألغاز والإيهام ، وكان كثيرًا ما يلغز بالأسماء المشتركة ، فيوهم أنه يريد معنى وهو يريد معنى آخر ، ومن ذلك قوله :

إذا صَدَقَ الْجَدُّ افترى العَمُّ للفتى مكارم لا تُكْرِي وإن كَذَّبَ الخالُ [٣]

فالمعري يريد بالجد : الحظ ، وبالعم : الجماعة من الناس ، وبالخال : المخيلة ، وقد ألغز عن الجد والعم والخال من النسب . ويقول المعري :

وَحَرْفٍ كنون تحت راء ولم يَكُنْ بدال يَؤُمُّ الرسم غَيَّرَهُ النَّقْطُ [٤]

فهذا البيت كله إيهام ، " فمن سَمِعَ هذا البيت تَوَهَّمَ أنه يريد براء ودال حرفي الهجاء ، لأنه صور بيته بذكر الحروف وأتبع ذلك بالرسم والنقط ، وهذا هنا هو المعنى القريب المتبادر أولا إلى ذهن السامع ، والمراد غير وهو المعنى البعيد المورى عنه بالقريب ، لأن مراده بالحرف الناقة ، وبحرف النون تشبيه الناقة في تقويسها وخمورها ، وبراء اسم الفاعل من رأى إذا ضرب الرئة ، وبدال اسم الفاعل من دلا يدلو إذا رفق في السير ، وبالرسم أثر الدار ، وبالنقط المطر ، ومعنى هذا البيت أن الناقة لضعفها وانحنائها مثل نون تحت رجل يضرب رئتيها ولم يرفق بها في السير فهو غير دال " [٥] ، فطريقة قيام الرمز بوظيفته

---

(١) فضل ، صلاح : علم الأسلوب ، ص (١٦٤) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٨٢) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٢٣) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (١٦٨) .

(٥) ابن حجة الحموي ، علي بن عبد الله : خزانة الأدب وغاية الأرب ، ط١ ، منشورات دار مكتبة الهلال ، لبنان ، ١٩٨٧م ، المجلد الثاني ، ص (٣٩) .

تعتمد على قياس معقد يتم التقاطه ذهنيا في الدرجة الأولى ، ثم يكسر إطار اللغة ويسمح بعملية النقل ، وهكذا نجد المعري قد وَظَّفَ معارفه وثقافته الواسعة في شعره على شكل رموز فتجعل من القصيدة عملا فنيًّا ذا أبعادٍ ثقافية قائما على ما يسميه علماء الأسلوب بالانزياح [١] .

والانزياح يظهر إزاء هذا على نوعين : إما خروج على الاستعمال المألوف للغة ، وإما خروج على النظام اللغوي نفسه ، أي خروج على جملة القواعد التي يصير بها الأداء إلى وجوده ، غير أنه لا يتم إلا بقصد من الشاعر ، وهذا مما يعطي لوقوعه قيمة لغوية وجمالية تَرْقَى إلى رتبة الحدث الأسلوبي ، وهذا يرجعنا إلى مقولة مشهورة للجاحظ يرى فيها أن " الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب ، كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع " [٢] .

جـ-التجديد في الأسلوب والصورة الشعرية :

ومن مظاهر التجديد في أسلوبه وصياغته في ديوانه (سقط الزند) أنه شديد الحرص على القصد في الألفاظ والمعاني وعلى تحقيق خواطره الشعرية تحقيقًا يشتد أحيانًا حتى يملكه الاصطلاح العلمي ، يقول المعري :

مُقِيمُ النَّصْلِ في طَرَفَيْ نقيض يكونُ تباينٌ منه اِشْتِكَالا [٣]

حيث إن العلوم الفلسفية لها تأثير ظاهر في شعر أبي العلاء المعري ، فقوله : (طرفي نقيض) و (التباين والاشتكال) من ألفاظ المنطق .

---

(١) الانزياح : خروج عن المألوف ومحاولة مستمرة لإخراج اللغة من الدائرة المعجمية الضيقة إلى المعاني الواسعة المرتبطة بالسياقات والدلالات .

(٢) الجاحظ ، عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٧ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٨هـ ، المجلد الأول ، ص (٨٩-٩٠) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٦٥) .

وقد نما التَّدَاعِي [١] عند المعري في التعبير عن أفكاره ، واستطاع أن يعبر من خلال اللغة عن عالمه الذهني وأن يبرز موقع الذات في الكون ؛ إذ يشعر القارئ أنه أمام نص أدبي فلسفي بالمعنى الشامل للفلسفة ، أي الحديث عن الأسئلة الكبرى التي تدور حول : الخالق والمخلوق والخلق ، ولَعَلَّ هذا التركيز على الأسلوب المنطقي ومحاولة إيصال الفكرة جعلت بعض أبيات المعري تميل إلى النثرية ، إذ تَلْمَسُ فيها المعري الفيلسوف لا الشاعر ، ومن ذلك قوله :

وشـــبيهٌ صـــوت النَّعِيِّ إذا قيـ ـس بصـــوتِ البشير في كل نَادِ [٢]

فنلاحظ أن جملة (إذا قيس) هي أقرب إلى التشكل النثري .

وقد شاع التلميح [٣] في شعر أبي العلاء المعري ، وكان كثير الإشارات إلى الحوادث والرجال الذي لهم ذكر في التاريخ ، ومن تلميحه قوله :

واخلع حذاءك إن حاذيتها وَرَعًا كفعل موسى كَلِيمِ الله في القُدُسِ [٤]

وهو تلميح إلى قوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [٥] .

ومن تلميحه كذلك إشارته إلى قضايا تاريخية وإلى أساطير وأسماء كهان ، كما في قوله :

---

(١) التداعي عند الأسلوبيين : الربط السياقي الذي يتحرك من نقطة أولية ثم ينمو السياق بعدها تراكميا قصرا أو طولا تبعا لاحتياجات الموقف .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٣) .

(٣) التلميح : هو أن يشير الشاعر إلى آية أوحديث أوقصة معلومة أوأسطورة محفوظة أوشاعر أوبيت شعر أو إلى حكمة أومثل سائر .

(٤) المعري ، أحد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٢٠) .

(٥) سورة طه ، آية (١٢) .

كدرع أُحَيْحَةَ الأوسي طـالــت عليه فَهْيَ تُسْحَبُ في الرَّغَامِ [١]

فالمعري جعل من درع أحيحة الأوسي مادة شعرية وإشارة تاريخية ، فأحيحة الأوسي رجل كانت له درع طويلة وقعت بسببها حرب شديدة بين عبس وذبيان .

ومن تلميحه كذلك نثر الأمثال والحكم على حَافَّتَيْ كلامه في أغراض الشعر من غزل ومدح ورثاء ، فالمعري مُهْتَمٌّ بالحكمة ساع في نشدانها متشدد في الأخذ بها ، " وكان أبو العلاء المعري أحكم من رأى الناس بعد أبي الطيب المتنبي ، وكان يزيد عليه في الغريب والخيالات الدقيقة " [٢] ، فكل مواقفه واهتماماته تُؤَكِّدُ أنه منصرف إلى عمق الشيء ليستخرج الحكمة منه ، يقول المعري :

ضَجْعَةُ الموت رَقْدَةٌ يستريح الـ ـجسم فيها والعيش مِثْلُ السّهادِ[٣]

اِتَّسَمَ رثاء المعري بالنظرة العامة وسعة الأفق ، وأخذ ينظر إلى الحياة والأحياء ، فيذكر الدنيا والآخرة ويتخذ من الموت المواعظ والعبر ، ويتجاوز المرثي إلى فلسفة الموت والحياة ، ومن الواضح أن المعري يقصد في هذا البيت أن الإنسان يعيش حياة قصيرة فانية ثم يبعث بعد الموت لحياة خالدة يحاسب فيها على عمله في دنياه ، فالموت بينها يشبه رقدة يستريح فيها الجسم من تعب الحياة الأولى ، ومِمَّا يعنيه هذا أن حقيقة الموت والحياة أخذت مكانها في وجدان الشاعر وفكره ، ولهذا يَبْدُو أن مرثية المعري لا تعكس التشاؤم بمعناه الفلسفي بقدر ما تعكس نظرة عميقة وصادقة تجاه الموت والحياة .

الصورة الشعرية هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والمعاني بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية في القصيدة ، مستخدمًا طاقات اللغة في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد وغيرها من وسائل التعبير

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٥٦) .

(٢) خفاجي ، محمد بن عبد المنعم : الآداب العربية في العصر العباسي الثاني ، (د. ط) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر ، (د.ت) ، ص (١٧٣) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٤) .

الفني ، " وهكذا تُصْبِحُ أسلوبية التعبير دراسة لقيم تعبيرية وانطباعية خاصة بمختلف وسائل التعبير التي في حوزة اللغة " (١) .

ولم تكن غاية أبي العلاء المعري تقليد سابقيه في الصورة الشعرية فحسب ، بل بدأت براعته الفنية في تلوين هذه الصور بألوان عصره وإعادة تشكيلها حسب صنعته الفنية وقدرته الإبداعية ، فكان المعري لا يسرد الأوصاف سردًا جافًّا ولكن يُضَمِّنُهَا النادرة ، ومن ذلك قوله :

كَبُرْدَةِ الأيـم الـعَـروس ابتغـى بِـهَـا جِـلاء الـحـية الأَيِّـمِ (٢)

فالمعري يعرض لنا صورة ثعبان عروس تزوج حية أَيِّمًا ، وقدم لها قميصًا في هدية الإملاك ، والصورة هنا طريفة .

ووصف أبو العلاء المعري النجوم وذكر مواقعها ، وتفنن في وصف القمر ومراحل ظهوره وتشبيهاته بها ، وذلك راجع إلى تأثير ثقافته واطلاعه الواسع على علم الفلك والنجوم ، إذ في معرض مدح الشاعر أبي إبراهيم موسى بن إسحاق يَتَفَرَّدُ المعري بنفسه ، وينظر إلى السماء ببصيرته لا ببصره ، فَيُطْلِعُنَا على أسرار الليل وقد هرب النوم عن جفونه ، ويرنو إلى الكواكب والنجوم فيحصيها واحدًا واحدًا ، خالعًا عليها من ذاته وإحساسه ما جعل المشهد حَيًّا ناطقًا يضج بالحياة والحركة والنور ، يقول المعري :

رُبَّ ليلٍ كأنه الصبح في الحسـ ـن وإن كـان أَسْـوَدَ الـطَّيْـلَسَانِ

قَـدْ رَكَضْـنَا فيـه إلى اللهو لَمَّا وقـف النجم وِقْـفَـةَ الـحيرانِ (٣)

وعلى الرغم من أن صوره جاءت نمطية مستمدة من صور الشعراء السابقين إلا أنه استطاع أن يُضْفِيَ على الصور في هذه الأبيات نوعًا من الطرافة ، إذ ألح إلحاحًا على وصف الكواكب والنجوم ، حريصًا على تحديد هيئة كل كوكب وموقع كل نجم ، وكأنه يثبت قدرته على

---

(١) بيرجيرو : الأسلوبية ، ترجمة منذر عياشي ، (د.ط) ، مركز النماء الحضاري ، سوريا ، (د.ت) ، ص (٥٣) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٥٨) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

ما يقدر عليه المبصرون ، مستعينًا بهذا الحشد من التشبيهات الطريفة المبتكرة التي كان يراها مجالا رحبًا لابتكاراته وإضافته إلى القدماء ، فالصورة الشعرية لا تستمد قيمتها من كون مبدعها مبصرًا أو غير مبصر ، وإنما تستمد تلك القيمة من طريقة سبكها وتركيبها وقدرتها على التعبير عن إحساس الشاعر .

رَسَمَ أبو العلاء المعري صوره الذهنية بعناية فائقة أسهمت عاهته فيها إسهامًا كبيرًا ، واشترك عقله في رسمها وإخراجها ، ومن ذلك قوله :

رُبَّ لَحْدٍ قد صار لحدًا مرارًا ضَاحِكٍ مِنْ تزاحمِ الأضدادِ (١)

فقد رسم للقبر صورة وكأنه شخص تَعَرَّضَ لشتى المتناقضات ولم يتمالك نفسه فانفجر ضاحكًا ساخرًا .

والتشخيص من الوسائل الفنية التي اعتمد عليها المعري في بناء صوره الشعرية ، فعمد إلى عناصر لا تعقل فكساها ثوب من يعقل فتحركت وتكلمت ورأت وسمعت وأحست ، وقد وفر لصوره كل عناصر التركيز والتشخيص مِمَّا جعلها تنبض بالحياة والحركة ، ومن ذلك قوله :

هَرَبَ النوم عَنْ جُفُونِيَ فيها هَرَبَ الأَمْنِ عن فؤاد الجبانِ (٢)

حيث لازم بين هرب النوم عن جفونه وبين شيء لم تَأْلَف النفس استحضاره ، إلا إذا استحضرت الأرق وهو هرب الأمن عن قلب الجبان ، فاستطاع المعري التأليف بين هذين المنظرين المفترقين في استحضار النفس أشد الافتراق ، فلزوم الروع قلب الجبان أمر كثير الخطور بالبال والجريان على الألسن ، ولكن الناس لا يذكرونه إذا ذكروا السهر الذي يصيب المحزون ، فَلَمَّا سبق المعري إلى التأليف بينها وَقَّفَ النفس منها على غريب ، ووافق هذا التأليف من النفوس استغرابًا ومن القلوب هوى .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٤) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

ويُعَدُّ التشخيص صورة من صور الانزياح ، وبذلك تغدو اللغة (ديناميكية) في توليد أنماط تركيبية ربما تعد شاذة ، إذ إنها تهدم ما تربى عليه الذوق وما تأسس في معرفة الإنسان الأولية ، ولكنه تفاعل بين الذوات والموضوع ، وقد جاء عند المعري لإحداث الحِسِّ الجمعي وإسقاط ما في الذات على الذوات الأخرى ، لكي تعبر تلكم الذوات عن الرؤية التي يريدها الشاعر .

ومن مظاهر التجديد في صور أبي العلاء المعري في (سقط الزند) أنه استعان بالثقافة العلمية في تكوين صوره الشعرية ، ولم يكن حَظُّهَا قليلا في تشكيل صور المعري ، ومن ذلك قوله :

مـا زَاغَ بيتكم الرَّفِيعُ وإنما ... بالْـوَجْدِ أدركـه خَـفِيُّ زِحَـافِ (١)

فقد استخدم من علم العروض كلمة (زحاف) الذي يدخل على تفعيلة بيت الشعر مادة شبه بها تماسك بيت الشريف الموسوي رغم وفاته ، إِكْبَارًا من شأن ابنيه لا تقليلا من شأنه . ويقول المعري :

تَلاقٍ تَفَرَّى عن فـراق تَذُمُّهُ ... مَـآقٍ وتكسير الصَّحَائِحِ في الجمع (٢)

حيث استخدم علم الصرف وجعل منه مادة في تشبيهه ، فتكسير الاسم الصحيح في الجمع شبهه تشبيهًا ضِمْنِيًّا كيف يكون تلاقي الأحبة تفريقًا .

وكان للصورة عند المعري دورها الواضح في تصوير موقفة الفني تجاه كثير من القضايا الفكرية والاجتماعية ، فَعَبَّرَ المعري في شعره عما تنفعل به نفسه في مختلف ظروفها وحالاتها ، كما صور ما يشغل تفكيره تجاه مختلف قضايا الحياة ، فأصبح من الشعراء الذين جعلوا شعرهم صورة حية لاتجاههم الفكري والنفسي ، يقول المعري :

صَاحِ هـذه قبورنا تملأ الرَّحْـ ... ـبَ فـأين القبور مِنْ عَهْـدِ عـادِ (٣)

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٥٠) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٢٤) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٣) .

يُعَبِّرُ المعري عن موقف الإنسان من الموت وهذه الأرض قد تحولت إلى موتى ، وما أثارته هذه الصورة حين استطاع بقوة خيالية أن يجعلنا نسير على أكوام من أشلاء موتانا ، فالمعري يُمْعِنُ في تكثيف عاطفته فَيَتَّكِئُ على المحسوسات تحقيقًا وتوكيدًا لموقفه من الكون ، فإذا كانت قبور العصور الأخيرة من عمر الزمن تملأ الآفاق ، فأين إذا قبور البشرية عبر كل تلك العصور الغابرة ، ولا يملك المرء إلا أن يُسَلِّمَ معه بالفعل بأن ظهر الأرض التي تطؤه الأقدام من رفات الآباء .

وهناك قصيدة نتلمس فيها عند المعري حرارة العاطفة وصدق الشعور ، بدأها بمطلع وجداني هو :

عَلِّلاني فإن بِيضَ الأمـانـي فَنِيَتْ والـظـلام لـيـس بِـفَـانـي (١)

صوره الفنية في هذه القصيدة أكثر من عشرين صورة ، وهناك وحدة فنية تربطها أساسها اِلْتِحَامُ العاطفة مع الفكر ، فالصور قد اِسْتَلْهَمَهَا الخيال من قلب عاطفة الرجل الجيَّاشَة ، تلك العاطفة المكثفة بِعُقْمِ الحياة ، وكل صورة من هذه الصور لا تتنافر مع غيرها ، بل إنها جميعًا متكاملة ، وكل منها يمتزج مع غيره لإبداع الصورة الفنية الكلية ، وعلى ذلك فتلك الصور الجزئية تشكل في حقيقتها صورة كلية كبرى هي عاطفة أبي العلاء المعري وموقفه الوجداني والفكري .

د–التجديد في الموسيقى الشعرية :

والموسيقى ليست زينة عارضة ، وإنما عنصر مهم في إقامة البناء الشعري ، فالنص الشعري تتعدد أبعاده الجمالية ، وأسرار هذا الجمال ربما يكمن في البناء الموسيقي . ولا نغفل الصلة الوثيقة بين القافية وموسيقى الشعر ، فهي تُكْسِبُ الكلام إيحاءً خاصًّا ونغمة موسيقية لا تكون للكلام المنثور ، فتضيف القافية بموسيقاها قوة للموسيقى ، وفي (سقط الزند) بدأت القافية من مصادر الموسيقى المهمة ، فقافيته تجيء نتيجة لبنية لغوية وأسلوبية وموسيقية خاصة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

استخدم أبو العلاء المعري القافية المقيدة ، ومن ذلك قافية التَّرَادُفِ وهي التي يتوالى في آخرها ساكنان ، وهذا صعب والشعراء يتحامونه إلى المشطورات القصار ، وقَلَّ أن نجده في القصائد الطوال ، وقد رَكِبَهُ المعري في قصيدته التي مطلعها :

مـــا نَـخَـلَـتْ جـــارتنا وُدَّهَـا يـــوم تَـــرَاءَتْ بـكـشـيب النُّخَيْلْ (١)

فقافية الترادف هذه من أعسر القوافي المقيدة .

واهْتَمَّ أبو العلاء المعري بالموسيقى الداخلية وَوَفَّرَ كل ما يُعِينُ على تجويد رنينه في شعره ، وعمد إلى الوسائل الفنية التي تحقق هذا الغرض ، ومن بينها التصريع ، والناظر في (سقط الزند) يجد المعريَ شديد الحرص على الإكثار فيه ، حيث افتتح أكثر من خمسين قصيدة أو مقطوعة بالتصريع ، ومن ذلك قوله :

سَنَحَ الـغـراب لـنا فبت أُعِيفُهُ خبرًا أَمَـضُّ مـن الـحِمَامِ لَـطِيفُهُ (٢)

وقوله :

أَعَنْ وَخْدِ القلاص كَـشَـفْتِ حالا ومن عند الـظـلام طَـلَـبْـتِ مالا (٣)

وترجع كثرته في المطلع إلى أن المطلع هو محل التأنق وإظهار جودة الذهن وشدة الفصاحة ، يقول ابن أبي الإصبع : "وأكثر ابتداءات أبي العلاء تأتي على سنن الصواب " (٤)، وكذلك هو إعلان عن موسيقى القافية التي ستبنى عليها القصيدة كلها ، كما أنه ينبه السامع ويمتعه ، وهو " أسلوب قفز من الأمام ، قد يتسع مداه ولكنه لا يقتضي أكثر من بيت واحد ، لأنه يتحقق في صدر البيت ، وينسجم بربط آخر الصدر بآخر العجز " (٥) ، فهو

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٩٨) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢١٣) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٦٠) .

(٤) ابن أبي الإصبع ، عبد العظيم بن عبد الواحد : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر والبيان وإعجاز القرآن ، تحقيق حنفي محمد ، (د.ط) ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، مصر ، المجلد الأول ، ص (١٧١) .

(٥) الطرابلسي ، محمد الهادي : خصائص الأسلوب في الشوقيات ، ص (٨٣) .

ضَرْبٌ من الموازنة والتعادل بين العروض والضرب يتولد منهما جرس موسيقي مطرب ، وفيه دلالة على كثرة مادة الشعر اللغوية وحسن تصرفه في الكلام .

وإذا نظرنا إلى الأصوات مفردة لاحظنا أَنَّ صوت الراء من أكثر الأصوات استخدامًا معزولا متماثلا . ولا شك في أَنَّ ما في عملية هذا الصوت من الجهاز الصوتي من تكرير تقتضيه طبيعة الصوت ومميزاته اللغوية الأصلية يزيد تقوية ترديده في البيت من الشعر ، يقول المعري :

يا ابن الأُلى غَيْرَ زجرِ الخيل ما عرفُوا إذ تَعْرِفُ العُرْبُ زجر الشَّاءِ والعَكَرِ (١)

فالترديد متلازم في البيت مع تدرج في المدح والمقصور بعثه في الممدوح .

وقد ترد الراء بحركاتها الثلاثة : الضمة والفتحة والكسرة في البيت الواحد ، ومن ذلك قول المعري :

وكيف يَجُرُّ الجيش يطلب غارَة أسيرٌ لمجرورِ الذّيولِ كحيلِ (٢)

هذا الترديد قَوَّى نفي تعدد الوجوه الممكنة التي يذهب إليها الظن تمهيدا لحصر معناها في نقطة معينة .

وجاءت الراء في الصدر أربع مرات ولكن اختلفت مرتبتها في إطار دلالي ، فكان الراء آخر الأصوات في الكلمة الأولى والثاني في الكلمة الثانية والأول في الكلمة الثالثة والأخير في الكلمة الرابعة ، يقول المعري :

يا ساهِرَ البَرْقِ أيقظ رَاقِدَ السَّمُرِ لَعَلَّ بالجِزْعِ أعوانًا على السَّهَرِ (٣)

يسهم الترديد مع هذا التدرج الذي تصوره مرتبة الصوت من إطار إلى آخر بقسط وافر في خلق الجوّ المتأزم شيئا فشيئا إلى السهر .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٦٩) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢١٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٦٧) .

ونجد في (سقط الزند) ضربًا من استغلال الطاقة الموسيقية في الأصوات المعزولة يَتَمَثَّل في إيرادها متجانسة أو متقاربة مرتبطة بمعان ، يقول المعري :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح بـاك ولا تـرنم شـاد (١)

فالغين والقاف أصوات من الحلق مستعلية توحي بالقوة والثبات ، والجيم والشين صوتان من أدنى الحنك يوحيان بالرص والالتحام .

هكذا يتضح أن الترديد مظهر من مظاهر تفجير الجديد من الطاقات الدلالية ، فخصائص موسيقى الصوت المعزول تجعل من الصوت المعزول وإن انقطعت صلته بالدلالة بمقتضى عزله عن الإطار الدلالي صلة جديدة بأصوات معزولة مثله لها صلة بالمدلول إثر ربط هذه الأصوات بعضها ببعض فيصبح البيت ذا طاقة دلالية في البيت (٢) .

واستخدم المعري التوازن الصوتي للمماثلة الدلالية للتعبير عن فكرة التشاؤم التي تُعَدُّ من مفردات الموت ، وبأن الحياة أَرَقٌ وبأن الموت رَاحَةٌ ، فهو يقول :

ضَجْعَةُ الموت رَقْدَةٌ يستريح الـ جسم فيها والعيش مِثْلُ السهادِ (٣)

فهنا مَثَّلَتْ كلمتا (ضجعة ورقدة) توازنًا صوتيًّا وتماثلا دلاليًّا ، فكأن الموت استراحة ، ولَعَلَّ التوازن الصوتي اتسق مع البعد الدلالي لبعض كلمات البيت ، فَثَمَّةَ ثلاث كلمات تؤدي إلى السكون هي : ضجعة ورقدة ويستريح ، وتأتي كلمة يستريح لتدل على طلب حصول الشيء ، وكأن الموت جاء بعد عناء الدنيا .

ولعل التكرار تَجَلٍّ واضح لإحداثيات الإيقاع الشعري في النص ، وقد ظهر التكرار جَلِيًّا في المعالجة الصوتية ، إذ تمثلته قصائد (سقط الزند) حرفًا وكلمة وتركيبًا . فهناك قصائد كانت غَنِيَّةً في موسيقاها الشعرية لتكرار بعض الحروف وبخاصة حرف الروي في نسيج القصيدة ولها صلة في التعبير عن تجربة الشاعر ، يقول المعري :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٣) .

(٢) للتعمق في موسقة الصوت المعزول الأدنى وأثره باعتباره مصطلحا أسلوبيا حديثا راجع كتاب خصائص الأسلوب في الشوقيات لمحمد الهادي الطرابلسي .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٤) .

عَـلِّلاني فإن بِيضَ الأمـانـي فَنِيَتْ والـظـلام ليس بـفـاني (١)

فالاختلاف الصوتي يُنَوِّعُ الموسيقى ويُنَوِّعُ معاني الإيحاء ، فالمد في كلمة (عللاني) تناسب شكواه من فناء آماله ، على حين خلت كلمة (فنيت) من المد لتحاكي انقضاء الآمال ، فهي تقع سريعة في النطق لتدل على الفناء السريع ، وكلمتا (الأماني) و (بفاني) يمتد فيهما الصوت ليحدث تضادًا بينهما وبين كلمة (فنيت) ، ولا يكاد يخلو بيت من أبيات هذه القصيدة من تكرار حرف الروي وهو النون في نسيج صياغته ، بل إن بعض الأبيات ليتكرر الحرف فيها أكثر من خمس مرات ، فالعاطفة السائدة هي عاطفة الإحساس بعقم الحياة ، ومن ثَمَّ يكون الفناء محور الواقع النفسي للمعري ولب عاطفته التي سادت التجربة فحرف النون هو الحرف البارز صوتيًا في كلمة فناء التي لا يخفى أنها جوهر التجربة . وبناء على التشكل الإيقاعي نُدْرِكُ الأثر الصوتي في إحداث البعد الإيقاعي ، وفي تكثيف العلاقة بين الدال والمدلول .

ويمكن أن نعد الجناس صيغة صوتية ودلالية تتخذ من حاستي السمع والبصر مستويين يؤديان إلى التقارب الدلالي ، إذ تبرز حاسة السمع من خلال تتبع الحروف وما يتفق وما يختلف ، وبذلك فإن بنية التجانس ليست ذات قيمة صوتية فحسب ، وإنما بنية تعمل على المستوى الدلالي وتدفعه إلى النضج والاكتمال ، يقول المعري :

وانتهى اليأسُ منك واسْتَشْعَرَ الوجـ ـدُ بأنْ لا مـعـادَ حتى المعادِ (٢)

فالجناس الماثل في (معاد–المعاد) حقق تماثلا على المستوى الصوتي ، إلا أن ارتباط معاد بـ (لا) النافية للجنس أدى إلى التضاد الدلالي ، ولعل المعري يقصد هذه المماثلة الصوتية والتضاد الدلالي كي يُعَبِّرَ عن تلك الثنائية المتمثلة في التقابل والتضاد بين الحياة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٧) .

٣-التجديد في المضامين الشعرية :

أ-المضمون :

جاء شعر أبي العلاء المعري وثيق الصلة بنفسه ، فهو ذو أصالة فردية اتضحت شخصيته في شعره ، فله عالمه الخاص الذي تتحقق فيه رؤيته وموقفه الفكري وبناؤه الفني ، فتجربته الشعرية تجاوزت الحدود التي كانت تنطلق منها قصائد الشعراء السابقين ، فلم تكن تجربته تعبيرًا عن مشاعر ذاتية تنشأ لظروف خاصة ، وإنما تجربة مكثفة تستكشف عن موقفه من الحياة وعن رؤيته للوجود ، وعن نظرة شاملة إلى الكون ، وقد أشار الدكتور محمد مندور إلى أن شعر المعري " شعر الفكرة " [١] ، فأصبح شعره يتجاوز أحيانًا إثارة الأحاسيس والانفعالات إلى رؤية واسعة أو اتجاه فكري ، ومن ذلك قوله :

فإن كنت تَبْغِي العِزَّ فابغ توسطا فَعِنْدَ التَّنَاهِي يقصر المتطاول [٢]

شعر فيه رؤية الشاعر المتأملة للحياة وتجربته ، تَدَخَّلَتْ روح الشاعر وشخصيته في عمله الفني ، ومن ذلك سوف تنقله من مستويات الشعر التقليدي الذي يكتفي من خلالها بالملاحظة ورَصْدِ المظهر الخارجي للحياة إلى شعر يَتَبَنَّى قضية أو يعمل على تقويم الحياة وإعطائها معنى جديدًا .

ب-الأغراض والمعاني الجزئية :

ظَلَّ أبو العلاء المعري ينظم في الموضوعات التقليدية القديمة الموروثة من مدح وغزل وفخر ووصف ورثاء ، ولكنه استطاع بمقدرته الفنية وبراعته التجديد في تلك الموضوعات وإضْفَاء شيء من الطرافة عليها .

---

(١) مندور ، محمد : النقد المنهجي عند العرب ، (د.ط) ، نهضة مصر ، مصر ، ١٩٩٤م ، ص (٢٧) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٨٤) .

-المدح :

تَمَيَّزَ مدح أبي العلاء المعري عن مدح كثير من الشعراء بالعفة والترفع عن الانحطاط إلى التكسب ، فلم يتخذ من مدحه وسيلة للتكسب ، وقد صَرَّحَ بذلك في مقدمة ديوانه (سقط الزند) بقوله : " ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طالبا للثواب ، إنما كان ذلك على معنى الرياضة ، وامتحان السوس ، فالحمد لله الذي ستر بغفة من قوام العيش ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر " [١] ، فإن كان قد ورد شيء في ديوانه من المدح فإنما ذهب إليه مَذْهَبَ الرياضة وتمرين القوة الشعرية وقد اعتذر عما جاء في ديوانه من غلو ومبالغة بقوله : " وما وجد لي من غلو علق في الظاهر بآدمي، وكان مما يحتمله صفات الله – عز سلطانه – فهو مصروف إليه ، وما صلح لمخلوق سلف من قبل ، أو غبر أو لم يخلق بعد ، فإنه ملحق به ، وما كان محضا من المين لا جهة له ، فأستقيل الله العثرة فيه " [٢] .

ومن المظاهر التجديدية تَوْظِيفُ معارفه في مدائحه في كثير من الأحيان إلى إشارات ورموز تاريخية ودينية ، فاسْتَلْهَمَ المعري التراث وضَمَّنَ مدائحه إشارات إلى حوادث ومواقف وقصص لتأكيد المعاني التي يتحدث عنها أو إضافة إلى رصيد معنوي لها أو إشارة إلى ثقافته وسعة إطلاعه ، يقول المعري :

وعلى الـدَّهْرِ مـن دماء الشهيدي ـــن عَـلِـيٍّ وَنَـجْـلِـهِ شـاهـــدان

فَهُمَا فـي أواخـــر الليل فَـجْـرَا نِ وفـي أُولَيَـاتِـــهِ شَـــفَـقَـانِ [٣]

لَمَّا فرغ المعري من أساطير الجاهلية انتقل إلى أساطير الشيعة ، يتقدم بها إلى صاحبه الشريف موسى بن إسحاق ، فذكر أَنَّ الحمرة التي تسبق مطلع الفجر وتلحق مغرب الشمس شاهدان من دم علي وابنه الحسين ، ومضى بعد ذلك في المدح فأثنى على صاحبه بما كان

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢١-٢٢) (المقدمة) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٢) (المقدمة) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٩٨) .

للنبي – صلى الله عليه وسلم – من بلاء في الغزو ، ثم ذكر بني هاشم وفضلهم وخَصَّ الممدوح وأولاده بالفضيلة .

وكذلك استطاع المعري أن يُضَمِّنَ بعض قصائد المدح صُوَرًا من الأحداث التي وقعت في عصره بجوانبها السياسية والاجتماعية ، وعمد إلى تسجيلها بمنظار التاريخ والواقع ، يقول المعري :

ومـــا أَذْهَلَتْنِي عن وِدَادِكَ روعـةٌ وكيف وفـي أَمْثَالِـهِ يـجب الــغَبْطُ

ولا فِتْنَةٌ طــائـيــةٌ عــامـــريـة يُحَرَّقُ في نيرانها الْجَعْدُ والــسَّبْطُ (١)

فهو في مدحه لخازن دار العلم ببغداد يشير إلى الحرب المروعة التي شبت نيرانها بين أبناء الأمة الإسلامية بسبب الفتنة العامرية الطائية بالشام ، فلم يصورها من منظار الممدوحين بل سَجَّلَهَا بمنظار التاريخ والواقع .

وقد حرص أبو العلاء المعري على أن يصف الممدوح بصفات يَخْتَصُّ بها ، فقد كان الشريف ذا علم ورياسة ، فرأى أن المدح بالصفات الدينية يليق به ، وأما في مدح أبي حامد الإسفراييني كبير الفقهاء ، فقد ضَمَّنَهَا مسائل الفقه ؛ لأن الممدوح فقيه ، وفيها يقول :

وَرُبَّ ظُـهْـرٍ وصلناها على عَـجَلٍ بِعَـصْـرِهَـا فـي بـعـيـد الـوِرْدِ لَمَّاعِ

بضربتين لِـطُـهْرِ الـوجـه واحـدةٌ وللــذراعين أخــرى ذَاتُ إسـراعِ (٢)

وقد جاءت مدائح كثيرة في ديوانه (سقط الزند) عامرة بالقيم الإسلامية ، وتَسْتَلْهِمُ روح الإسلام ، وتستقي منه عناصر الشخصية الإسلامية ، وتؤكد على الصفات الدينية في الممدوح ، يقول المعري :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١٧٠) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٢٨) .

حَفِظْتَ المسلمين وقد تَوَالَتْ سحائبُ تحمل النُّوَبَ الثِّقَالا

وصُنْتَ عيالهم إذ كل عَيْنٍ تَعُدُّ سواد ناظرها عِيَالا [١]

يُؤَكِّدُ المعري على الصفات الدينية في الممدوح ، فالممدوح مُحَقِّقٌ الأمن والطمأنينة للرعية وحافظ لهم من كل سوء ، والمعري بهذا يُقَدِّمُ صورة مثالية لأمير الجماعة ، وهي صورة تستلهم روح الإسلام وتستقي من تلك السمات التي حدد بها الدين عناصر الشخصية الإسلامية ، ومن هنا جاءت مدائحه عامرة بنبض إسلامي واضح تَتَجَلَّى في المعاني والصور التي يُخَطِّطُهَا لممدوحه .

-الرثاء :

ومن مظاهر التجديد في رثائه في (سقط الزند) ظهور نوع من الرؤية الفلسفية تجاه الموت والحياة ، فاستطاع المعري أن ينفذ من رثاء الميت وتسجيل مآثره والتعبير عن الحزن لفقده إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة ، وانتهى به ذلك أحيانًا إلى معان فلسفية ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :

غَيْرُ مُجْدٍ في ملتي واعتقادي نَـوْحُ بـاك ولا تَرَنُّمُ شَـادِ [٢]

يُظْهِرُ المعري نوعًا من التأمل الفلسفي تجاه الموت والحياة ، " ويَعْجَبُ أبو العلاء من أن الإنسان مع ما ينزل به من العناء الْمُضْنِي في دنياه لا يزال يتمنى المزيد من العمر والحياة . ويتسع أبو العلاء بتصويره لمأساة الحياة ثائرًا ما لا يحصى من التأملات في الكون والوجود ، مما استحال به شعره إلى غذاء فلسفي رائع " [٣] ، فهذه القصيدة من نتاج مرحلة ما بعد العزلة التي تُمَثِّلُ نُضْجَ المعري فنيًّا وفكريًّا ، وفيها يبدو وكأنه يستشرف الحياة من أعلى قمة إنسانية ، وينظر إليها نظرة شاملة ، يحاول من ورائها أن يستشف أسرار الكون وأن ينفذ إلى أعماقه ليستخلص منها القوانين ، فأخذ ينظر إلى الحياة والموت بنظرة واسعة الأفق

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٦٦) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٣) .

(٣) ضيف ، شوقي : في التراث والشعر واللغة ، (د.ط) ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، ص (١٠٧) .

فيذكر الدنيا والآخرة ويتخذ من الموت المواعظ والعبر ، ويتجاوز بالمرثي إلى فلسفة الموت والحياة ، ولعل المعري يقصد من وراء المماثلة والتضاد الدلالي التعبير عن تلك الثُّنَائِيَّةِ الجَدَلِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ في التقابل بين الحياة والموت .

-الفخر :

اِتَّخَذَ أبو العلاء المعري من الفخر وسيلة للتعبير عن ثورة النفس وللتعبير عن كآبتها وسخريتها ، وعن عدم الثقة بالناس وتصرفاتهم وسلوكهم نحوه ، ولذلك فخر المعري يُعَدُّ أَثَرًا بَيَانِيًّا ، يقول المعري :

أَعِنْدِي وقد مَارَسْتُ كل خَفِيَّةٍ يُصَدَّقُ وَاشٍ أو يُخَيَّبُ سائلُ (١)

يُصَرِّحُ المعري بأنه جرب الأمور الخفية فضلا عن الظاهرة فلا يصدق واشيًّا ولا يخيب سائلا ، وأنه جرب الزمان وصروفه فأورثته التجارب ألا يبالي بمن هلك ولا يجزع لفقد أحد ، وإذا كانت الأمور على مثل هذا الحال فالعاقل لا يحمد العيش ويكلف نفسه أن تُجِدَّ فيما يعنيها .

وقد ارتبط فخر المعري في أكثر من قصيدة بالشكوى ، ولعله كان يرضي بفخره طموحه ويشفي ما يملأ نفسه من ألم و مرارة من حسد الحاسدين ، ولهذا اقترن فخر المعري بالدفاع عن النفس وزجر الحاسدين والذامين ، يقول المعري :

أَأَخْمُلُ والنباهة فِيَّ لَفْظٌ وَأُقْتِرُ والقناعة لي عتادُ (٢)

فكأن المعري أنكر بفخره هذا على من يقدح فيه بأنه خامل غير نبيه وفقير غير غني ومحروم غير فائز ، وقد أسهم في زيادته تلك الغربة التي فرضها على نفسه بعيدًا عن مجتمعه ، وكأنه لا يريد أن يأبه به بعد أن عجز عن فهم حقيقة مكانته كما فهمها هو نفسه .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (١٨١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٨٥) .

-الغزل :

كان أبو العلاء المعري مُقِلاً في الغزل إذا ما قيس بغيره من الشعراء ، ويرجع ذلك إلى مواقفه من الحياة عامة ومن المرأة بصفة خاصة ، ولهذا من المتوقع أن نجد في غزل المعري مبالغة وتصويرًا قد يبعد عن طبيعة حياته من مثل قوله في وصف بكاء الحبيبة على فراقه بدمع غزير :

بَكَتْ فكأن العِقْدَ نادى فريدَهُ هَلُمَّ لِعَقْدِ الحِلْفِ قلب وخَلْخَالُ

وهل يحزن الدمعَ الغريبَ قُدُومُهُ على قَدَمٍ كادت من اللين تَنْهَالُ (١)

فهذه الصورة الغزلية لا تُصَوِّرُ الحب كما يقع في واقع الحياة تصويرًا صحيحًا ، وقد تجنب المعري تصوير نفسه بمثل تلك العبارات الباكية وقصرها على المحبوبة ، فنقل المثل الأعلى للمحب في ذاته إلى ذات محبوبته .

-الوصف .

ولئن عَرَفَ العصر العباسي عمالقةً كبارًا من شعراء الوصف أمثال البحتري وابن الرومي والصنوبري وابن المعتز وسواهم ممن فتنتهم الحضارة الجديدة وملكت عليهم الطبيعة المترفة وجدانهم وإحساسهم بغنى الطبيعة وتنوعها ، فتركوا لوحات فنية في غاية الروعة والجمال ، فإن من المؤسف حَقًّا ألا يندرج اسم شاعرنا أبي العلاء المعري في قائمة أولئك الشعراء الوَصَّافِينَ الْمُجَدِّدِين .

فقد تناول المعري وصف بعض الموضوعات التقليدية ، ولكنه استطاع بمقدرته وبراعته التجديد في تلك الموضوعات وإضْفَاء شيء من الطرافة على أوصاف من سبقوه من الشعراء ، يقول المعري :

يُسْرِعُ اللَّمْحَ في احمرارٍ كما تُسْـ ـرِعُ في اللمح مُقْلَةُ الغضبان (٢)

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٢١) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٩٨) .

بعث المعري الخلود في الصور وأعطاها من خلف عينيه نورًا لا يَفْنَى حتى تَخَيَّل نجوم السماء في مطالعها وأبراجها فوصفها وبَذَّ في وصفها المبصرين ، " فإن تشبيه لمحات النجم وتألفه مع احمرار ضوئه بسرعة لمحة الغضبان من التشبيهات النادرة التي لا تنقاد إلا لأديب " (١) .

ولأبي العلاء المعري قدرة واسعة على التصرف في الألفاظ والمعاني وابتكار معاني لم يسبق إليها أحد وإفراغها في قوالب جاهزة من الألفاظ ، يقول المعري في وصف شمعة :

وصفراءَ لَوْنَ التِّبْرِ مِثْلِي جليدةٌ على نُوَبِ الأيام والعيشةِ الضَّنَّكِ

تُرِيكَ ابتساما دائما وتجلدا وصبرا على مانابها وَهْيَ في الْهُلْكِ (٢)

أسقط المعري وجدانه على ما وصف من خلال زعمه أن الشمعة تشاركه حالة من الصبر والتجلد ، فَأَضْفَى صفات إنسانية على الشمعة كالتجلد والصبر والابتسام رغم المعاناة فإذا بها ذات إرادة ومشاركة في الحياة ، فهو يقارن بينه وبينها مُعَبِّرًا عن آلام نفسه ، وهذا يدل على إدراك المعري بعض المميزات الروحية للأشياء حتى ولو كانت تلك الأشياء حسية .

ويقول المعري في وصف منهل :

يَمُرُّ به رَأْدُ الضحى متنكرا مخافة أن يغتاله بِقِتَامِهِ (٣)

فقد جعل المعري لارتفاع النهار حياة وشُعُورًا بالخوف من هول ذلك المكان ، وأثبت له التنكر مخافة ذلك .

ولعل من أبدع الوصف وأرقه عبارة ، وأسماه معنى ، وأدقه تشبيهًا وتشخيصًا وإحياء للطبيعة وألصقه بالوجدان والعاطفة ، وأكثره إثارة للإحساس وصف المعري وما فيه من جمالات وخيالات وإيحاءات تتمثل بالنجوم والكواكب ، يقول المعري :

---

(١) الهاشمي ، السيد أحمد : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، (د.ط) ، المكتبة العصرية ، لبنان ، ١٤٢٨هـ ، ص (٢٤٦) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ص (٢٣١) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (١٠٥) .

وَكَأَنَّ الـهـلال يَـهْوَى الثريـا فـهـمـا لـلـوداع مُعْـتَـنِقَـانِ [١]

تَتَبَدَّى النجوم للمعري وقد لبست أبهى حللها لتشارك الشاعر أو قل ليشاركها الشاعر هواها وعناقها ، فالهلال يَهْوَى الثريا فتعانقه ويُعَانِقُهَا ، وسهيل ذلك النجم النائي في السماء ما أشبهه في صفرته وحمرته وخفقانه واضطرابه بالمحب العاشق الولهان ، وكأنه الفارس المعلم اسْتَبَدَّ به الغضب والغيظ فكأنه الدم في عروقه ، فارْتَمَى مُضَرَّجًا بالدم يَجُرُّ قدميه من خلفه ، لا بل يبدو وكأنه بغير قدمين ، مما أثار الشعريين فبكيا أسى على ذلك الفارس المعلم .

جـ-المعاني الجزئية :

قام أبو العلاء المعري بعرض الأغراض والموضوعات بصورة أدق وأعمق ، فأخذت موضوعات الشعر القديمة عنده تتجدد تجددًا واسعًا ويُدْخِلُ عليها إضافات كثيرة ، وأخذ يُنَمِّي بعض جوانب هذا الشعر لتخرج منه فروع جديدة وبرزت موضوعات جديدة لم تكن شائعة في الشعر العربي القديم ، ومن أبرز تلك الموضوعات ما يلي :

-شعر التهنئة :

في (سقط الزند) عدة قصائد في التهنئة ، منها ما هو تهنئة بالعيد كالقصيدة التي قالها في سعيد الدولة حفيد سيف الدولة ، ومنها ما هو تهنئة بالعرس كالقصيدة التي هنأ بها بعض الأمراء بعرس ، ومنها ما هو تهنئة بمولود ، يقول المعري :

هَنِيئًا والـهـنـاء لـنـا جـمـيعـا يقينا لا يُظَـنُّ ولا يُـخَـالُ [٢]

-شعر الاعتذار :

وأما شعر الاعتذار فمن ذلك أنه عتب عليه بعض العلويين لأنه لم يَعُدْهُ في مرضه فَرَدَّ عليه بقصيدة يقول فيها معتذرا :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٩٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٧٤) .

لَكَ الله لا تَـذْعَرْ وَلِيًا بغضبة لعل له عُذْرًا وأنت تَلُومُ [١]

-شعر العتاب :

طَرَقَ أبو العلاء المعري شعر العتاب ، فوازن بينه وبين عواطف المعاتب ، فتدفعه بواعث متباينة للتوسط فيه بين أن يلوم المعتوب من غير أن يوجعه فلا ينقلب العتاب إلى هجاء ، يقول المعري :

قـلبي أُعَـاتِبُ فَـهْـوَ يُلْزِمُنِي أبدًا تَكَلُّفَ هذه الـحالِ [٢]

-شعر الشكوى :

يُفَكِّرُ الإنسان دائمًا في حاله كما أنه يفكر في ألغازه وأسراره ، وعنده أسئلة كثيرة يعقبها عدم الراحة والقلق والخوف ، ويعرف أنه يعيش حياة قصيرة متغيرة فيها الشيخوخة والمرض والنهاية ، كما أنه يعلم أن البقاء مستحيل وكل حي مصيره الفناء ، في المنطلق يُؤْمِنُ بعضهم بأن الدهر هو سبب الهلاك كما أنه سبب اضطرابه الفكري وقلقه الروحي ، ويضيفون إليه كل حادثة فَيُحِيلُونَ عليه باللوم والعتاب ، وقليل منهم الذين يصلون إلى الكمال والنضج العقلي فيؤمنون بالقضاء والقدر وبأن الدهر لا يهلكهم ، وهذا اللون الشعري الْمُنْطَوِي على ذم الزمان سُمِّيَ شعر الشكوى ، حيث أصبح فنًّا مستقلا في العصر العباسي الثالث وانصرف كثير من الشعراء إلى النظم والإكثار منه .

عاش أبو العلاء المعري حياة طويلة مضطربة فيها قلق وتشاؤم وشكوى ، وكان لعناصر شخصيته أَثَرٌ في توجيه تفكيره وصبغ آرائه بصبغة ميزت المعري عن غيره من الشعراء ، والمعري لم يكن شعوره وِقْفًا لخلجات نفسه فقط ، وإنما شارك الناس في مصائبهم وسمع شكاوى المظلومين والفقراء ، وعالج مشاكل مجتمعه مع أنه عانى بذاته لكنه لم يُغْفِل المجتمع الذي عاش فيه ، يقول المعري :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١١٥) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٠٨) .

دُنْيَاكَ تَحْدُو بالمسا فر والمقيم جِمَالَهَا

فَعَّالَةٌ غَيْرَ الجمي ل فكم هَوِيتُ جَمَالَهَا [١]

عاش المعري واقعه الشعوري والفكري معاناةً وسلوكًا وإبداعًا ، فنظم في أحوال مجتمعه والدعوة إلى الإصلاح ، فَأَحَسَّ بجوهر موضوعه في عمقه ، فوصف الحياة بأنها دار شقاء وبلاء ومصائب وحذر من الدنيا وذمَّها .

وشعر الشكوى عند المعري شعر مرتبط بمكنون النفس وآلامها ومعاناتها ، وقد رسم لنا المعري صُوَرًا جَلِيَّةً مَثَلَتْ شرائح المجتمع في العصر العباسي ، وشعر الشكوى عنده شعر صادق لم ينظمه رغبة في منصب أو تَزَلُّفًا لحاكم ، وإنما كان نبض فؤاد واضطراب جوانح كشف كثيرًا من الدلالات النفسية والاجتماعية والسياسية ، وألقى الضوء على الواقع الذي عاشته أمة الإسلام حينا من الدهر .

-شعر الحنين إلى الوطن :

أثناء إقامة المعري ببغداد ما انفك يَحِنُّ إلى وطنه المعرة في بلاد الشام ، ويصبو إلى تلك الأيام الخاليات السعيدات ، يدل على هذا كله شعره الذي قاله في بغداد مُضَمِّنًا إياه أَرَقَّ نفحات الحنين إلى الأوطان ، ومن قصيدة مُطَوَّلَةً نظمها في بغداد وقد أضاء البرق فشخصت له الأبصار :

طَرِبْنَ لضوء البارق المتعالي ببغداد وَهْنًا ما لهن وما لي [٢]

يُعَبِّرُ المعري فيها عن شوقه وحنينه إلى البلد الذي ولد وترعرع فيه ، فيخاطب البرق الذي ومض وأضاء ، مناجيًا إياه مستودعًا روحه الذي بين جنبيه ، شاكيًا إليه سوء حاله في بغداد ، مُتَمَنِّيًا لو أن الغمام يحمله معه فوق طياته إذ إن الدار ليست داره ولا الأهل أهله ولا الأصحاب أصحابه ، مُتَلَمِّسًا من سحابه الممطر قطرة من ماء المعرة مسقط رأسه ، فيسقي بها هذا المحب الولهان الظامئ إلى معانقة أرض الأحبة والخلان :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٤٥) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٣٥) .

فهل فيك مِنْ ماءِ الْمَعَرَّةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بها ظَمْآنَ ليس بِسَالِ (١)

ويهيج الشوق بالشاعر ، ويَسْتَبِدُّ به الحنين إلى مواطن الأحبة والأهل بالمعرة ، فيخاطب إخوانه معتذرًا عن فراقه إياهم ، وما كان نَأْيُهُ عنهم إلا لحاجة مسته وضرورة اقتضتها المصلحة ، فها هو نادم على ما بدر منه ، يعاني الهم والحزن وغَصَّةَ الفراق وألم البعاد ، ويشكو حسد الحساد وإرجاف المرجفين ، يقول المعري :

نَدِمْتُ على أرض العواصم بَعْدَمَا غَدَوْتُ بها في السَّوْمِ غَيْرَ مُغَالِ (٢)

ويظهر لنا مِمَّا سبق أن المعري استطاع ببراعته الفنية وقدرته الإبداعية إعادة تشكيل شعره وإضْفَاءَ شيء من الطرافة والتجديد عليه حسب صنعته الفنية ومهارته الإبداعية ، فكما لَحِقَ التجديد البُنْيَةَ الموروثة - شكلا ومضمونا - أيضًا لحق الموضوعات والأغراض ، فأخذت فروع من الموضوعات القديمة تَسْتَقِلُّ لتصبح موضوعات جديدة ، كما أخذت فروع جديدة تظهر ، فأضاف إلى المواد والعناصر التي رسخت في ذهنه من شعر سابقيه عناصر جديدة أبدعها خلقًا آخر في كثير من الأحيان هو عنوان أصالته وشخصيته المبدعة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٣٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٣٩) .

المبحث الثاني : التجديد في اللزوميات .

١-اللزوم العلائي :

إنَّ ديوان (لزوم ما لا يلزم) مَصْدَرٌ وَافٍ لكثير من المعارف ، وهو بهذا يتجاوز حدود الشعر ودواوينه ، وهو مصدر للعربية ، نجد فيه الفرائد والنوادر ، إنَّه وثيقة أراد بها أبو العلاء المعري أن يَظْهَرَ على رجال عصره من أهل العلم كافة .

و(لزوم ما لا يلزم) ديوان أبي العلاء المعري الذي نظمه بعد العزلة ، وهو الوثيقة التي سجلت نظرياته الفلسفية ، وأفكاره وآراءه في الموت والحياة ، والدنيا والآخرة ، والأديان ، والمذاهب ، والأخلاق ، والطباع ، والنفس ،والغرائز ، والعقل ، مع دعوة واسعة إلى الزهد ورفض الدنيا .

حَفِلَتْ لزوميات أبي العلاء المعري بشيء غير قليل من المعاني الجديدة والرؤية الإنسانية الواعية ، فقد أَكَبَّ على مخزونه الثقافي والعلمي ، وغرف من وجدانه وأحاسيسه وفكره ، فطلع بشعر إبداعي جديد كل الجدة ، حيث تفاعلت أفكاره مع شخصيته فتمثلت خَلْقًا جديدًا في كثير من الأحيان .

عَبَّرَ أبو العلاء المعري في ديوان (لزوم ما لا يلزم) عما تنفعل به نفسه في ظروفها وحالاتها ، كما صَوَّرَ ما يشغل تفكيره تجاه مختلف قضايا الحياة ، فأصبح شعره صورة حَيَّةً لاتجاهه الفكري والنفسي ، فقد ظهرت شخصيته جلية في شعره .

أراد أبو العلاء المعري أن يُوَسِّعَ دائرة الشعر لِتَضُمَّ خطرات الفكر وسعة النظر إلى ما حوله من ملل ونحل وعادات ، وهو في هذا يعتمد على سعة معارفه في علوم عصره وما ورثته من معارف قديمة وحديثة .

أغراض اللزوميات في الحكمة والنقد الاجتماعي ، وفي استعراض آراء رجال الفلسفة والدين ، واستعراض أحوال الحكام والعلماء وتِبْيَانِ ما فيها من جهل وتضارب ، " والكثير منها لا يلتزم بموضوع واحد " (١) .

تدور اللزوميات حول فلسفة أبي العلاء المعري في الحياة ، وموقف الإنسان منها ، وما بعد هذه الحياة ، وهي بهذا تدور في مجالين : المجال الأخلاقي الذي يتصل بسلوك الإنسان في الحياة ، والمجال الذي يتصل بمصير الإنسان بعد الموت .

٢-مفتاح التجديد :

صَدَّرَ أبو العلاء المعري ديوانه (لزوم ما لا يلزم) بمقدمة في الشعر وشروطه وقوافيه على أسلوب انتقادي يَدُلُّ على رسوخ قدمه في اللغة والشعر ، وذكر ما التزمه في نظم هذا الديوان ، " ومهما يكن فاللزوميات أول ديوان في اللغة العربية يُؤَلِّفُ على طريقة خاصة يذكرها الشاعر في مقدمته ويُطَبِّقُهَا على أبياته بيتًا بيتًا " (٢) ، حَدَّدَ فيها المعري مقاصده وأهدافه وضبط منهجه وآراءه ومواقفه مما لم يعهد عند الشعراء قبله ، وهذه المقدمة تُمَثِّلُ " المهاد النظري لإبداع ظاهرة اللزوم يَضَعُهَا في إطارها ويُحَدِّدُ مفاهيمها وأبعادها " (٣) .

تُعَدُّ مقدمة اللزوميات مفتاح التجديد عند أبي العلاء المعري ، وسنقوم بتحليلها كاملة ، لِنُبْرِزَ مظاهر التجديد التي ألزم بها المعري نفسه .

نَظَمَ المعري لزومياته هذه بعدما أَنِفَ من سيره في طريق سابقيه من الشعراء . إنه أراد أن يسير في طريق بِكْرٍ جديد لم يسبقه سابق من بدء الشعر العربي حتى عصره ، كما أنه أراد

---

(١) العلوي ، هادي : المنتخب من اللزوميات نقد الدولة والدين والناس ، ط١ ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، دمشق ، ١٩٩٠م ، ص (٧- ٨) .

(٢) ضيف ، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر ، ص (٣٩٩) .

(٣) عبد العظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ص (٣٧٦) .

أن يَتَحَدَّى نفسه أو صنيعه في ديوانه (سقط الزند) . إنه أراد بلزومياته أن يَصِلَ ذروة سامقة لم تطأها قدم من قبل فكانت اللزوميات .

إن اللزوميات ليست ديوانًا شعريًّا كغيره من دواوين الشعراء الذين سبقوا المعري أو عاصروه ، وإنما هو كتاب أو مؤلف وضع له صاحبه خُطَّةً محكمةً ، ونَفَّذَهَا بدقة ووعي وإصرار ، يؤيد ذلك أن المعري نفسه قد نعته بـ " التأليف " [١] وبـ " الكتاب " [٢] ، كما وصف عمله بأنه تأليف .

نَسْتَقْرِئُ مقدمة اللزوميات التي كتبها المعري ، وهي مقدمة مُتَمَيِّزَةٌ لطولها وغناها ودقتها وتفصيلاتها ، لا نرى لها مثيلا في أي ديوان من دواوين العربية ، لقد بلغ عدد صفحاتها اثنتين وعشرين صفحة تقريبًا ، استغرق الحديث عن المضمون فيها أقل من صفحة في أولها ، ومثل ذلك في آخرها ، وأما الباقي وقدره قرابة عشرين صفحة خَصَّصَهُ المعري للحديث عن الشكل – أي القافية وتفصيلاتها وما إلى ذلك – وقصر الحديث عن المضمون ، ولَعَلَّ طول حديثه عن القافية وقصره عن المضمون يدلان على هدف المعري في لزومياته وهو التَّحَدِّي في ميدان هندسة الشكل وبنائه بِنَاءً مِعْمَارِيًّا متميزًا ، فإذا أَضَفْنَا إلى هذا أن معاني اللزوميات كانت في تمجيد الله والتحذير من الدنيا والدعوة إلى الزهد والتقشف وانحرافات مدعي التدين والتصوف ، وهذه معان أصولها ليست جديدة وإنما معروفة تجدها لدى كثير من الشعراء قبل المعري مثل أبي العتاهية والمتنبي ، ولكن كثرها ووسعها لتكون في ديوان كبير خاص بالمعري .

فإذا عَلِمْنَا هذا تأكد لنا رجحان أهمية جانب الشكل على جانب المضمون في اللزوميات ، وبخاصة أَنَّ المعري نفسه وفي آخر مقدمته أشار بوضوح إلى " أَنَّ من سلك في هذا الأسلوب ضعف ما ينطق به النظام لأنه يتوخى الصادقة ، ويطلب من الكلام البرة ، ولذلك

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٢١) (المقدمة) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٠) (المقدمة) .

ضَعُفَ كثيرٌ من شعر أمية بن أبي الصلت الثقفي ومن أخذ بفريّه من أهل الإسلام . ويروى عن الأصمعي كلام معناه : أن الشعر باب من أبواب الباطل ، فإذا أُرِيد به غير وجهه ضعف " (١) .

ومما يُؤَكِّدُ هذا أيضًا ذلك البَسْطُ الْمُفَصَّلُ الذي كاد أن يكون جامعًا مانعًا لعلم القوافي ، شَرَحَ المعري لوازم القافية من الحروف مثل : الروي ، والتأسيس ، والردف ، والوصل ، والخروج ، وكذلك لوازمها من الحركات مثل : الرس ، والإشباع ، والحذو ، والتوجيه ، والمجرى ، والنفاذ ، كما ذكر أيضا عيوبها مثل : السناد ، والإكفاء ، ثُمَّ تَحَدَّثَ عن خَلْطِ بعض العلماء والشعراء بين الروي والوصل ، وأخطاء ترتيب القصائد في دواوين الشعراء المحدثين ، وقسم القوافي تبعًا لصفاتها إلى ذلل ونفر وحوش ، وشرح ذلك كله بتفصيل ودقة وأيده بالبراهين معتمدا على آراء كبار علماء الشعر والعروض والقوافي والنحو واللغة مثل : الخليل ، والأخفش ، والفراء ، وأبي عبيدة ، وأبي عمرو بين العلاء ، والأصمعي ، والزجاج ، وابن السراج ، والجرمي ، وغيرهم ، كما أيد ذلك بكثير من الأمثلة من شعر الأقدمين الذي يحتج بأشعارهم مثل : زهير والحطيئة والحجاج وغيرهم ، موضحًا ، محللا ، مقارنًا فيما بينها ومقارنًا لها مع آرائه الكثيرة المتميزة بالعمق والدقة والذوق ، التي نثرها أثناء بحثه وبسطها ودعمها بآراء العلماء وبالحجج العقلية التي تشهد له ببراعة النقد ودقة التحليل ، موافقًا لهم تارةً ، ومخالفًا تارةً أخرى ، ومعللا ذلك كله .

إنَّنَا نستطيع أن نَعُدَّ مقدمة اللزوميات – من غير مبالغة – كِتَابًا في القوافي لولا أنه لم يذكر فيها تعريف القافية وأضربها مثل : المتكاوس ، والمتراكب ، والمتدارك ، والمتواتر ، والمترادف ، إنه بَسْطٌ كاد أن يكون جامعًا مانعًا لعلم القوافي شمل جزئياته كلها تقريبًا شمولا يجعله يَتَفَوَّقُ على غيره من كتب القوافي من حيث المعلومات وغزارتها وتفصيلاتها .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٦) (المقدمة) .

خَشِيَ المعري أن يقرأ لزومياته قارئ غير مُلِمٍّ بعلم القوافي فلا يستطيع أن يُدْرِكَ مراميه وأبعاد عبقريته وتَحَدِّيه وتَمَيُّزَه ؛ لذلك كتب هذه المقدمة الْمُتَخَصِّصَةَ ، ولقد شَرَحَ المعري العنوان الذي وضعه لديوانه هذا وهو (لزوم مالا يلزم) في مقدمته بقوله : " ومعنى هذا اللقب أَنَّ القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت " (١) .

كذلك نَوَدُّ أن نُنَبِّهَ إلى أمر مهم جاء أيضًا في مقدمة اللزوميات وهو قول المعري : " فإذا جاء في الشعر شيء قد اتفق أن يلزم قائله شيئًا غير هذه اللوازم فهو متبرع " (٢) ، أي ألزم نفسه بما لم يلزمه به علم القوافي ليُبَيِّنَ علمه وإمكاناته وقدرته وتميزه وتحديه للآخرين .

وفضلا عن ذلك نَرَى المعري قد وَضَّحَ أيضًا وبتفصيل ما تَمَيَّزَتْ به اللزوميات ، وذلك بقوله : " وقد بَنَيْتُ هذا الكتاب على بنية حروف المعجم " (٣) ، وهذا أمر جديد يدل على عجب بالنفس واعتداد بالمقدرة الشخصية لم يسبق إليه أحد من الشعراء المتقدمين أو المحدثين ، وإن كان المحدثون أَقَلُّ بعدًا من المتقدمين في نظمهم على أكثر حروف العربية ، وعلل المعري تقصيرهم – كما كان يرى – بأنهم كانوا "يتبعون الخاطر كَأَنَّهُ هادي الركبان أينما سلك فهم له تابعون " (٤) ، ويَقْصُدُ بكلامه هذا الطبع ، حيث أَنْكَرَ عليهم ذلك مع أنه الأصل في الشعر والشعراء ، فالطبع هو الأول والاستجابة له هي الغاية ، والشكل هو الوسيلة ، بَيْدَ أن المعري استبدل الغاية بالوسيلة والوسيلة بالغاية ، وهذا الأمر الذي جعله يَعُدُّ صنيعهم تقصيرًا ودليلا على ضعفهم .

اِلْتَزَمَ المعري ثلاث لوازم ، " وقد تَكَلَّفْتُ في هذا التأليف ثلاث كلف" (٥) ، فنظم لزومياته ملتزمًا منهجًا ثابتًا .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٥) (المقدمة) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٨) (المقدمة) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٠) (المقدمة) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (٢١) (المقدمة) .

(٥) المصدر نفسه ، ص (٢١) (المقدمة) .

فالتزم أن يُرَتِّبَ قصائده ومقطوعاته على ترتيب البحور العروضية كما رتبها الخليل، لا من حيث أوزانها الأصلية فحسب ، ولكن من حيث تشكيلاتها الموسيقية المختلفة ، فبدأ بالبحر الطويل ، ثم انتقل إلى البسيط ، ثم الوافر ، ثم الكامل ، ثم سائر البحور بحسب ترتيبها العروضي ، فكان لا يأتي بوزن من الأوزان على هيئةٍ واحدةٍ ، وفي ذلك تنوع في الأنغام لا يَتَسَنَّى لو أننا قرأنا تلك اللزوميات من بحرٍ واحدٍ ، فمثلا لو قرأنا لزوميته التي تبدأ بقوله :

أُولُو الفَضْلِ في أوطانهم غرباء تَشِذُّ وتَنْأَى عنهم القربـاءُ (١)

ولزوميته التي مطلعها :

يأتي على الخلقِ إصباحٌ وإمساءُ وكلنا لصروف الدهر نَسَّاءُ (٢)

ولزوميته التي مطلعها :

تعالى رازق الأحياء طُرًّا لقد وَهَتِ المروءة والحياء (٣)

ولزوميته التي مطلعها :

ما لي غدوتُ كقافِ رُؤْبَة قُيِّدَتْ في الدهر لم يُقْدَرْ لها إجراؤها (٤)

فإننا نحصل على شيء من التنوع ، فالانتقال السريع من الطويل إلى البسيط إلى الوافر إلى الكامل يُعْطِي ثروة ووفرة نغمية .

والتزم المعري – من ناحية ثانية – أن يُرَتِّبَ قوافيها على ترتيب حروف المعجم جميعًا ، " ويعني بذلك أنه لم يترك واحدًا من حروف المعجم لم يجعله رَوِيًّا لبعض نصوص

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٣٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٣٢) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (٣٤) .

كتابه . وتلك ظاهرة مَهَّدَ لها المعري بما يوحي بأنه يعتز بانفراده بها دون سائر الشعراء ، مهما كان إنتاجهم غزيرًا " [١] ، وهذا أمر سَبَقَ إليه المعري إذ لم يفعله قبله شاعر أبدًا ، وبذلك كان له فضل الريادة ، ولم يكتف بهذا وإنما التزم مع كل حرف أن ينظم على حركاته الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ثم يأتي بعد ذلك السكون ، فجعل المعري القصائد والمقطوعات ذات الروي المرفوع تأتي قبل مثيلاتها ذات الروي المنصوب ، ثم تأتي مَثِيلاتُهَا ذات الروي المكسور بعدها ، وفي الأخير تأتي مَثِيلاتُهَا المقيدة أو ذات الروي الساكن ، " وتأليف هذه اللزوميات – من ناحية الشكل فقط – خاضع لخطة مرسومة ذات أبواب وفصول ولكنها أبواب وفصول شكلية تقوم على حروف الهجاء ، فكل حرف باب من أبواب القافية ، فصوله حركات تلحق هذا الحرف رفعًا ونصبًا وجرًا ثم سكونًا " [٢] ، يلتزم هذا الترتيب لا يخرج عليه إلا نادرًا . ويرجع " اضطلاع أبي العلاء المعري بالنظم على حروف المعجم كلها والتزام ما لا يلزم إلى تبحر نظري ، وغلو في الصنعة ، لم يحفل بهما الشعر العربي في مراحله الأولى " [٣] ، ولقد تَفَرَّدَ بذلك المعري وسبق إليه ولا نعلم أن أحدًا من الشعراء الذين عاصروه أو جاؤوا بعده ساروا على منواله .

والتزم – من ناحية ثالثة – قبل حرف الرَّوِيِّ حرفًا آخر أو أكثر من الحروف الهجائية ، فبعد أن كان الشعر العربي مقيدًا بقيدين هما الوزن والقافية ، أضاف إليه المعري قيدًا ثالثًا وهو هذا الحرف الملتزم في القصيدة قبل حرف الروي ، ولقد سبقه إليه شعراء عدة ولكن في أبيات قليلة ، وقد ذكر المعري ذلك في مقدمته وذكر أسماءهم وبعضا من أبياتهم مثل : الأعشى وطرفة بن العبد والنابغة وعمرو بن معد يكرب وكثير عزة والبحتري وابن الرومي وغيرهم .

---

(١) عبد العظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ص (٣٨٨) .

(٢) المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري : يشتمل على وصف المهرجان الذي أقامه المجمع العلمي العربي لذكرى مرور ألف سنة على مولد أبي العلاء وما قيل فيه من القصائد والخطب ، ط٢ ، دار صادر ، لبنان ، ١٤١٤هـ ، ص (٣٧) .

(٣) فخر الدين ، جودت : شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري ، (د.ط) ، منشورات دار الآداب ، لبنان ، ١٩٨٤م ، ص (١٥٨) .

وصف المعري التزام هؤلاء الشعراء بأنه دليل قوة ، ولو تركوه لم يَدْخُلْ أشعارهم ضعف ، لذلك سلك مسلكهم وزاد عليهم ليتحداهم وليبرهن أنه أقوى منهم ، ولقد تَمَيَّزَ المعري عليهم في جانبين :

الأول : في عدد الحروف الملتزمة إلى جانب الروي .

الثاني : التزامهم حرفًا واحدًا مع تاء التأنيث أو كاف الإضمار وهما ضعيفتان ؛ لأنهما من حروف الهمس ، أو مع الهاء وهي شبيهة بحروف اللين لخفائها ، فأرادوا تقوية هذه الحروف بحرف آخر التزموه معها ، أما المعري فقد كان التزامه مع حروف قوية مثل : الباء والميم واللام وغيرها مما لا تحتاج إلى تقوية .

إن تقسيم المعري للزومياته تبعًا لحروف المعجم ولكل حركة من ضم وفتح وكسر ثم السكون ، يجعلنا أمام مهندس معمار مدقق واع قد رسم مُخَطَّطًا دقيقًا للزومياته .

ذكر المعري في نهاية مقدمته عدد فصول ديوانه وهو ثلاثة عشر ومئة فصلٍ ؛ لأن لكل حرف أربعة فصول ، فصل لكل حركة من الحركات الثلاث : الضم والفتح والكسر ثم يأتي السكون ، إلا الألف وحدها فلها فصل واحد ؛ لأنها لا تكون إلا ساكنة .

٣-التجديد في الشكل :

أ-التجديد في بناء القصيدة :

أراد أبو العلاء المعري أن يُقَدِّمَ في هذا الديوان شيئًا جديدًا ، وأن يعرض فيه محاولة جديدة لتشكيل القصيدة العربية تشكيلاً هندسيًّا يقوم على مقاييس ثابتة ، ويعتمد على تخطيطٍ عَقْلِيٍّ مُنَظَّم لم يعرفه الشعراء من قبل ، " وبحق يمثل هذا الديوان كل هذه الجوانب التي كان أبو العلاء يحتل منها قمة الأستاذية الشامخة أروع تمثيل ، وهي قمة لم يصل إليها شاعر

غيره من قبله ولا من بعده ، وإنما ظَلَّ مُنْفَرِدًا بها حتى اليوم " [١] ، وكأنه يريد أن يقول : إن الشعر عَمَلٌ صِنَاعِيٌّ يعتمد على الفكر والعقل .

بَنَى أبو العلاء المعري قصائده في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) بِنَاءً عَقْلِيًّا ، فقد اعتمد الثقافات العقلية في بناء شعره ، واتخذ منها قاعدة يقوم عليها ومادة أساسية في تشكيلاته ، واستطاع أن يُذِيبَ هذه المادة العقلية في أعماق نسيجه الفني ، فالثقافات العقلية جعلها مُقَوِّمًا أساسيًّا من مقوماته ، وقاعدة أساسية قام عليها بناؤه الفني ، وعلى امتداد (اللزوميات) يُطِلُّ علينا حشد من الثقافات التي استوعبها عقل أبي العلاء المعري ، وكأنه حريص على أن يجعل من شعره مَعْرِضًا لها يعلن عن علمه الواسع ، ومعارفه المتعددة ، وقدرته على استغلالها في بنائه الفني واصطناعه لمصطلحاتها وأساليبها ، يقول المعري :

يَدُلُّ على فضل الممات وكَوْنِهِ إراحةَ جسمٍ أَنَّ مَسْلَكَهُ صعبُ [٢]

حيث افتتح لزوميته بعرض الأمر على أنه قضية فلسفية يُقِيمُ عليها الحجج والبراهين ، ويَصْطَنِعُ في ذلك ألفاظ الفلاسفة والمتكلمين ، فالعقل الفلسفي أنتج لصاحبه بعد التفكير والرؤية أن الحياة عناء للأجسام ، لأنها تحملها من أثقال وأعباء ما لا تحتمله إن فقدت الحياة ، إذن فالموت مريح للأجسام ؛ لأنه يلغي ما كان بينها من التضامن . ويقول المعري :

لأمواه الشَّبيبة كيف غِضْنَهْ وروضات الصِّبَا كاليَبسِ إِضْنَهْ [٣]

نَعَى المعري الشباب وتقطع أسباب الشباب والقوة ، التي يأمر فيها بالإذعان والاستسلام مادامت الآمال لا تواتي وأسباب الأماني لا تتصل ، فينهى عن طائفة من الآثام ، ويأمر بطائفة من المحسنات ، حتى إذا فرغ من النهي والأمر لجأ إلى الشك الذي ينتهي بصاحبه إلى اليأس والقنوط ، فبدأ بالحزن والحسرات وانتهى باليأس والقنوط ، فإذا فرغ المعري من هذه الفلسفة

---

(١) خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص (٢٢٢) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٥١) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٨٩) .

السلبية أقبل على فلسفة إيجابية يُتِمُّ بها ما ينبغي للرجل العاقل وهو أن يأخذ فلسفته الإيجابية من الدين .

ربط أبو العلاء المعري أفكاره ومعانيه وعواطفه بقوافيه ، وطَوَّعَ القافية لأدائها ، وجعلها بُنْيَةً حسية متصلة بكل جزء من أجزاء القصيدة ، يقول المعري :

مـا لـي غدوتُ كقافِ رُؤْبة قُيِّدَتْ في الـدهر لـم يُقْدَرْ لها إجراؤها

أُعْلِلْتُ عـلـة قـــال وهي قـديمةٌ أعـيـا الأَطِبَّةَ كُـلَّـهـم إبراؤهـا (١)

أشار في البيت الأول إلى أرجوزة رؤبة وقافيته المقيدة التي ألزم رويها السكون ، وهو يشير إلى حياته التي طالت عليه وألزمت سجونه الثلاثة ، وأشار في بيته الثاني إلى اعتلال (قال) وما يشبهها من الأفعال التي تنقلب وواتها وياءاتها ، يريد حياته قد طالت عليه وألزمت سجونه وما فيها من عِلَلٍ وآلام .

واتجاه المعري للزوم ما لا يلزم يُقَصِّرُ نَفَسَهُ ؛ لأنه صنعة تحد فكرته ولا تتيح له طول النفس ، فكانت أكثر (اللزوميات) مقطوعات صغيرة تتراوح بين البيتين والستة وطائفة منه يرتفع بعضها إلى حوالي مئة بيت . ولعل أبا العلاء المعري كان يحس أن المقطوعات أقرب إلى تسجيل آرائه وأفكاره بدلا من تعدد الآراء ولاأفكار في القصائد الطويلة ، وكأنه بهذا يحاول أن يحقق لهذا الديوان الجديد وحدة موضوعية هي – بلا شك – شيء جديد في الشعر العربي .

ب–التجديد في المادة اللغوية :

أبو العلاء المعري ممن كانت له مقدرة لغوية كبيرة ، استطاع أن يُحِيطَ إحاطة واسعة بمفردات اللغة ، " إن المعري مشغول بسعة معارفه ولعل من أبرزها إحاطته بالعربية إحاطة لا تجدها حتى لدى الذين اشتهروا بالعلم اللغوي من اللغويين والنحاة " (٢) ، فأخذ نفسه بالعربية وعمد إلى التسلي بها شعرًا ، واهتم المعري باللغة وقواعدها وصرفها ونحوها وسائر

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٣٤) .

(٢) السامرائي ، إبراهيم : دراسات في تراث أبي العلاء ، ص (٢٧) .

ما يتصل بها من معانٍ ودلالات واصطلاحات ، وهو في هذا يعتمد ما توافر له من معين لا ينضب من معرفة لغوية واسعة ، وهذه المعرفة تتجاوز استيعابه للمعجم القديم إلى معرفة وافية بأصول العربية وأَبْنِيَتِهَا ، فاللغة عنده ليست أداة تعبير فحسب يعبر بها ويَتَلَذَّذُ بها ، وإنما لغة " تُعَبِّرُ عن آرائه من خلال تعبيرها عن نفسها . وهو قد تجاوز التعبير باللغة إلى التعبير في اللغة وعن اللغة أي أنه لم يقف عند حدودها بل تجاوزها إلى ما وراءها " (١) ، فاللغة كائن تداخل معه حتى أصبح يعبر من خلاله لا به ، يقول المعري :

طَلَبْتُ مكارما فأجدتُ لفظا كَأَنَّا خالدانِ على الزمانِ (٢)

عكف أبو العلاء المعري على استنباط ذاته وفجر مواهبه وعبقريته بما خلف من روائع الشعر ، فالمعري يَسْتَنْطِقُ اللغة ويُوَلِّدُهَا حتى تتكشف قدراتها وتَتَجَلَّى قدرة الإبداع فيها بَيِّنَةً جَلِيَّةً .

لقد وعى أبو العلاء المعري اللغة العربية حفظًا واستيعابًا وتعمقًا ، " على أن لغة المعري كانت ظِلاً لعالمه الفسيح ، عالم التفكير المبدع والنفس الرفيعة الخيِّرة " (٣) ، يشهد له بذلك ثروة لغوية ضاقت بطون المعجمات عن الإحاطة بها وخبرة طويلة بالعربية بعد أن انقطع جُلَّ عمله يألف وحشيها ويأنس بآبدها .

ولم يكتف أبو العلاء المعري بألفاظ اللغة العربية فذهب وراء اللفظ الأعجمي والكلمة الفارسية يأخذها ويَشْتَقُّ منها ، فاستخدم المعري ألفاظًا دخيلة غير عربية ، ومن ذلك قوله :

لا يُبْصُرُ القوم في مغناك غِسْلَ يَدٍ على الطعام إلى أن يُرْفَعَ السُّورُ (٤)

---

(١) عبد العظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ص (٤٧٥) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (٣١٤) .

(٣) طاهر ، محمد : مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها ، ط١ ، دار الفكر ، سوريا ، ١٤٠٧هـ ، ص (١٢٥) .

(٤) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٢٣٩) .

فـ(السور) دعوة الوليمة ، وهي كلمة فارسية . وقوله :

إنَّ الطبيبَ وذا التنجيمِ مافَتِئَا مشهَّرَيْنِ بتقويم وكُنَّاشِ (١)

و(الكناش) لفظة سريانية معناها الدفتر تدرج فيها القواعد والشوارد . وقوله :

فيا قَسُّ وَقِّعْ برزق الخطيـ ـب وانظر بمسجدنا يامُنَشْ (٢)

و(منش) لفظة عبرية بمعنى الناظر .

وكان مَيْلُ المعري إلى الصنعة دافعًا من دوافع استخدامه للألفاظ غير العربية ، فأحيانًا يحرص على تحقيق نوع من الجناس المتكلف بين بعض الألفاظ مثل (خان) و(خانا) بمعنى سلطان وهي فارسية ، كما في قوله :

وخانَ خانًا زمانٌ ما وَفَى لفتًى وليس يَغْفُلُ عن قَيْلٍ بشيرازا (٣)

وورود ألفاظٍ غير عربية في الشعر العربي – وبخاصة في العصر العباسي – كان شيئًا مألوفًا عند الشعراء ، فقد اتسعت الثقافة بالاطلاع على مختلف تيارات الفكر ، بحيث أصبح استخدام تلك الألفاظ نوعًا من التقاليد الفنية .

شَهِدَ العصر العباسي ازدهارًا في مختلف مظاهر الحياة ، كما نشطت الحركة العلمية في مختلف فروع المعرفة ، وتَسَرَّبَتْ بعض مصطلحات العلوم إلى لغة الأدب ، ولهذا لا تخلو منها أشعار أبي تمام والمتنبي والمعري وغيرهم ، ولكن أبا العلاء المعري من أكثر هؤلاء الشعراء استخدامًا لتلك المصطلحات في شعره ، فقد تَعَرَّضَ لموضوعات شتى من نحو وصرف وحساب وهندسة وكيمياء وفيزياء وفلك وجغرافيا وتاريخ وطب ، واستطاع بحذقه أن يُرَوِّضَ الشعر حتى أخضعه لقبول الحكمة والعلم ، واستخدم من مسائله ومصطلحاته روائع الوصف العلمي والملحوظات الفاحصة والمصطلح العلمي . يقول المعري في النحو :

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٤٩) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٥٣) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٧) .

تَـزَوَّجْ إن أردتَ فـتاة صِـدْقٍ كَمُضْمَرِ نِعْمَ دام على الضميرِ [١]

ويقول في الهندسة :

ظَلُّوا كـدائـرة تحـوَّلَ بعـضـهـا من بَعْضِهَا فجميعها مـعكـوسُ [٢]

ويقول في المنطق :

جَرَتِ القضايا في الأنـام وأُمْضِيَتْ صُـدُقـا بأسـوارٍ ولا أسـوارِ [٣]

برز من الدارسين الْمُحْدَثِينَ من يُعدُّ وجود المصطلحات العلمية مَظْهَرًا من مظاهر التعقيد الفني ، ووسيلة يلجأ إليها المعري ليثبت معرفته بمثل تلك المعارف ومصطلحاتها ، وفي نظرهم غلا غلوًا شديدًا إذ ألح في طلبها إلحاحًا شديدًا ، فانطلق يتكلف في شعره هذا الكلف التي لا تُفْصِحُ عن جمال فني ، ومن هؤلاء الدارسين الدكتور شوقي ضيف الذي ذكر أن هذا الإسراف في التعرض لمسائل العلوم والمعارف جعل من يقرأ اللزوميات يَحُسُّ " بأنه يقرأ في كتاب ثقافة لا في ديوان شعر " [٤] .

وقد سبق الْمُحْدَثِينَ ابن سنان الخفاجي إلى هذه النظرة وانتقد أبا تمام والمتنبي والمعري لاستخدامهم ألفاظ المتكلمين والنحويين ومصطلحات أصحاب المهن والعلوم في شعرهم ، وفي مجال انتقاده هذا يقول : " ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل في الشعر المنظوم وفي الكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم ، لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة " [٥] .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٣٠٤) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٧) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٣١٣) .

(٤) ضيف ، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر ، ص (٤٠٥) .

(٥) ابن سنان الخفاجي ، عبد الله بن محمد : سر الفصاحة ، ص (١٩٥) .

وتَصَدَّى ابن الأثير للقائلين باستبعاد ألفاظ العلوم من لغة الأدب ، ويَرُدُّ عليهم بقوله : " صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة ، لأنها موضوعة على الخوض في كل معنى ، وهذا لا ضابط له يضبطه ولا حاصر يحصره ، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور في صوغ معنى من المعاني وأَدَّاهُ ذلك إلى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه ، لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذي قصده " (١) .

وَكَثْرَةُ المصطلحات العلمية في ديوان (لزوم ما لا يلزم) لها ارتباط كبير بعصر الشاعر ، وهو عصر شهد – كما قلنا – نهضة علمية وثقافية واسعة " فالروافد العلمية التي أسهمت في تغذية التيار الثقافي عند أبي العلاء هي بعينها الروافد التي جعلت من عصر أبي العلاء – بشهادة الدارسين والباحثين – من أرقى العصور في تاريخ الفكر والحضارة الإسلامية " (٢) ، وكان المعري شأنه شأن شعراء عصره مفتونًا بالثقافات على اختلاف موضوعاتها ، وعلى هذا لا يعيب الشاعر أن يُدْخِلَ في لغته الشعرية المصطلحات العلمية على أن يُخْرِجَ تلك الكلمات من دائرة العلم إلى الخَلْقِ الفني ، فالمصطلحات العلمية ألفاظ كغيرها من ألفاظ اللغة ومن حَقِّ الأديب أن يستعمل منها ما يحتاج إليه ليُحَدِّد الفكرة التي يريد التعبير عنها ، والمعاني الجديدة قد تحتاج إلى لغة جديدة لأدائها أو لتطويع اللغة المستخدمة ، ولا يخفى أن كثيرًا من معاني المعري جاءت جديدة .

أكثر أبو العلاء المعري من ذكر النجوم والكواكب وبحث عن عناصرها ، وذكر اعتقاد الناس فيها ، ومن ذلك قوله مُتَحَدِّثًا عن سهيل :

لا تُـوحِشُ الـوَحْدَةُ أصحـابهـا إن سُـهَـيْـلا وحـده فـارِدُ (٣)

---

(١) ابن الأثير ، نصر الله بن محمد : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، حققه كامل محمد ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١٩هـ ، المجلد الثاني ، ص (٢٩٧) .

(٢) زيدان ، عبد القادر : قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري ، ط١ ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، الجزء الثاني ، ٢٠٠٦م ، ص (٧٥) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١٩١) .

فسهيل من النجوم التي نُسِجَتْ حولها الأساطير ، فيقولون : إن سهيلا والشعريين كانت مجتمعة فانحدر سهيل فصار يَمَانِيًّا وتبعته العبور فعبرت المجرة .

كذلك أكثر أبو العلاء المعري من ذكر الحوادث العظيمة في التاريخ وذكر بعض الرجال الذين اشتهروا في هذه الوقائع ، حتى يُخَيَّلُ للناظر أنه كتاب ناطق بما وقع في الأيام الماضية و الحاضرة ، وأنه غير مبالغ في قوله :

مـا كـانَ في هذه الدنيا بَنُو زَمَنٍ إلا وعِنْدِيَ من أخبارهم طَـرَفُ (١)

يدعي المعري أنه ما من أمة وجدت في هذه الدنيا إلا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف شيئًا من تصاريف أحوالها .

وجد أبو العلاء المعري في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي قديمه والمعاصر له مادة غزيرة غذت فنه الأدبي ، وانتفع بها إلى أبعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل منظومه ، وقد أكسبت شعره حيوية وأعانته على صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وكذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به ، يقول المعري :

سـلكَ الـنَّجْدَ في قِـطَـار المنايا قَـطَـرِيٌّ (٢) ونـجـدةٌ (٣) وشبيبُ (٤)

شَبَّ فِكْرُ الحصيف نارًا فما يحـ ـسن يومـا بـعـاقـل تـشـبيبُ

أين بـقراطُ (٥) والـمـقـلِّـدُ جـالـيـ ـنوسَ (٦) هيهاتَ أن يـعيشَ طبيبُ (٧)

فأشار في مقطوعته هذه إلى أعلام كان لهم حضور تاريخي ، واختيار المعري هؤلاء الأعلام من بين مئات الأعلام من حيث أنهم توسعوا في الكلام عن صفات عرفوا بها في حياتهم .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٨٩) .

(٢) قطري : قطري بن الفجاءة .

(٣) نجدة : نجد بن عامر الحروري .

(٤) شبيب : شبيب بن يزيد .

(٥) بقراط : طبيب يوناني مشهور .

(٦) جالينوس : طبيب يوناني مشهور .

(٧) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٦٥) .

و" لقد كان التاريخ من المصادر الثرية التي استقى منها المعري مادة ديوانه ، فقد زخر ديوان اللزوميات بهذه الإثارات وقَلَّمَا يَمُرُّ القارئ بقصيدة لا يجد فيها إشارة إلى أحداث أو شخصيات تاريخية بعينها " [١] ، وهذا المظهر الذي خرجت فيه القصائد عند المعري يُبَيِّنُ إلى أي حَدٍّ استغل موضوع التاريخ فإذا به يراه مصدرًا لثلاثة مواقف : المعرفة والاعتبار والعمل ، فأخرج التاريخ من طبيعته المتجمدة التقريرية إلى صورةٍ حَيَّةٍ مُثْمِرَةٍ .

إن صياغة المعري تستمد أصولها من ثقافة فلسفية ، فهو يُعَدُّ رائد الفلسفة في الشعر العربي ، فقد جمع إلى موقفه من المجتمع الذي عاش فيه نظرة شاملة إلى الكون ، فَتَخَلَّى عن غنائية الشعور إلى غنائية الفكر ، وكأن المعري في اللزوميات أراد أن ينقل الشعر من غنائيته إلى فوائد معرفية يُسْتَعَانُ فيها بالكلمة الجميلة تعريضًا وتصريحًا وتقريرًا وإيحاءً .

ومن مظاهر صياغة الشعر في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) أنها تَهْتَمُّ بإقامة علاقات بين عدة ملامح نفسية وفكرية مثل الكلمات الدالة على المصطلحات والحيرة والتشاؤم والقلق ، وهذا يُؤَكِّدُ الصلة الواضحة بين أفكاره وعباراته ، يقول المعري :

يَـدُلُّ عـلى فضلِ الممات وكَوْنِهِ إراحةَ جسم أنَّ مَـسْلَكَهُ صعب [٢]

يعرض المعري الأمر على أنه قضية فلسفية يقيم عليها الحجة ويقارع دونها بالبرهان ، ويَتَمَثَّلُ في ذلك بألفاظ الفلسفة والمتكلمين واصطناع الأساليب والاستدلال .

يُعَدُّ أبو العلاء المعري رائد مدرسة الألغاز والأحاجي ، وهي " مدرسة فريدة في بابها ، جديدة في مناهجها ، اتضحت معالمها في القرن الخامس الهجري...أَسَّسَهَا أبو العلاء المعري ، وأَعْلَى بناءها الحريري " [٣] ، وقد نَجِدُ في ديوان اللزوميات رَأْيًا في شعر غيره ، ويتخذ من الأدباء رموزا في أدبه ، ومن ذلك قوله :

---

(١) كنجيان ، علي : مصادر ثقافة أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم ما لا يلزم ، ط١ ، الدار الثقافية للنشر ، مصر ، ١٤٢٢هـ ، ص (١١٦) .

(٢) المصدر نفسه : ص (٥١) .

(٣) نبيه ، محمد : بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ط٢ ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة ، ١٤٠٦هـ ، ص (١٧٦) .

وجـدتُ عـواريّ الـحياةِ كثيرةً كَـأَنَّ بـقـاءَ الـمـرءِ شِـعْـرُ حبيبِ [١]

فالمعري يرى أن الإنسان يُعَانِي من مصائب الدنيا وكأنَّها شعر أبي تمام الذي كان يَشُوبُهُ الغموض والتعقيد .

وأثار أبو العلاء المعري الرمز واصطنع الألغاز وعمد إلى التلميح ، يقول المعري :

وَجُبْتُ سـرابيًّا كـأن إِكَـامَـهُ جَوَارٍ ولـكـنْ مـا لـهـن نُـهُـودُ

تمجَّس حِرْبَاءُ الـهجير وحـولـه رواهـب خَـيْـطٍ والـنـعـام يـهـودُ [٢]

حيث ألغز المعري بقوله : (جوار) عن الجواري من الناس ، وهو يريد كأنهن يجرين في السراب ، وبقوله : (نهود) عن نهود الجواري ، وهو يريد بنهود نهوض أي كأنهن يجرين في السراب وما لهن على الحقيقة نهوض ، وأراد بقوله : (تمجس حرباء) أي صار لاستقباله الشمس كالمجوس التي تعبدها وتسجد لها الرواهب .

تَفَنَّنَ أبو العلاء المعري في المعاني وأتى بِمَعَانٍ تحتاج إلى تأمل وإمعان لدقتها وارتفاعها عن مستوى العامة أو يتوقف فهمها على دراسة علم ، ومن معانيه التي تحتاج إلى تأمل قوله :

غَـلَـتِ الشرور ولو عقلنا صُيِّرَتْ دِيَـةُ الـقـتـيـلِ كـرامـةً للـقـاتـلِ [٣]

ومن معانيه التي تتوقف على معرفة علم ، قوله :

سَمَا نفرٌ ضَرْبَ المئين ولـم أزل بحمدك مثل الكسر يُضْرَبُ في الكسر [٤]

فقد استطاع المعري بذكائه وفطنته أن يستخدم ثقافته بطريقة فَذَّةٍ ، فصارت أهم المصادر الفنية التي أمدت شعره بالمعاني الزاخرة بالعمق .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٨٦) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٧٤) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (١٩٩) .

(٤) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢٨٣) .

أورد أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) عددًا كبيرًا من الأمثال ، وهو يستعين بها اقتباسًا أو تَضْمِينًا أو تلميحًا ، وقد أكثر منها في هذا الديوان وأظهر براعته في صياغتها إلى أغراض مختلفة ، ومن ذلك قوله :

أَشْأَمُ من ناقة البسوس على النا س وإن يُنَلْ عندها الطلبُ (١)

حيث اقتبس المعري من مثل " أشأم من البسوس " (٢) .

ومن الأمثال التي أوردها المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) مثل " الْعَوْدُ أحمد " (٣) ، يقول المعري :

والْعَوْدُ أَحْمَدُ في الجميل فإن تَشِبْ فالعود أصبرْ (٤)

استخدم أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) كثيرًا من الألوان البديعية ، ولكن أهم لونين انتشر فيها بصورة واسعة الجناس والطباق ، فقد استخدمها في إفراط واضح ومبالغة شديدة ، حتى لا تكاد تخلو لزومية من لزومياته منها ، فأكثر المعري من الأصباغ البديعية ، ومَزَجَ المطبوع بالمصنوع ، فنراه يتعمد البديع تعمدا ويتكلف ألوانه تكلفا ، وكأنه يضيف إلى لوازمه المتعددة لازمة جديدة .

أكثر أبو العلاء المعري من استخدام الجناس بجميع درجاته ، وقد " اختار في استعمال الجناس أسلوبًا يوشك أن يكون مقصورًا عليه : ذلك أن يعقد المجانسة بين أول كلمة في البيت وبين آخر كلمة منه " (٥) ، ومن ذلك قوله :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٦٤) .

(٢) الميداني ، أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٢٥هـ ، مثل رقم (٢٠٢٨) ، المجلد الأول ، ص (٤٧٣) .

(٣) المرجع نفسه ، مثل رقم (٢٥٤٣) ، المجلد الثاني ، ص (٤١) .

(٤) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٣٣٠) .

(٥) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (٢٢٣) .

أتــراكَ يــومــا قـائـلا عـن نِيَّةٍ خَـلَـصَـتْ لـنـفسك يـالـجـوج تَـرَاكِ

أدراكَ دهــرك عن تُقَاكَ بجهده فَـــدَرَاكِ مــن قـبــل الـفـواتِ دَرَاكِ [١]

حيث استطاع أن يُؤَلِّفَ جناسًا بين أول كلمة في البيت والقافية ، وكذلك جانس بين آخر الشطر الأول و بين القافية ، ومن ذلك قوله :

كــم تَنْصَحُ الدنيا ولا نَـقْـبَلُ وفــائــزٌ مَــنْ جــدّه مُـقْـبِــلُ [٢]

فالجناس الماثل في (نقبل-مقبل) حَقَّقَ تماثلا على المستوى الصوتي ، إلا أن ارتباط تقبل بـ (لا) النافية للجنس أَدَّى إلى التضاد الدلالي ، ولَعَلَّ الشاعر يقصد هذه المماثلة الصوتية والتضاد الدلالي كي يعبر عن تلك الثنائية الجدلية ، فدور الجناس " قلما يكون شكليًّا ، لا صلة له بالمدلولات ، وأنه في أغلب الأحيان جاء منبها على ذات المدلول " [٣] .

فَثَمَّةَ علاقة قوية بين الصوت والدلالة ، فقد قال الجرجاني : " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولا ، ولا سجعًا حسنًا ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه " [٤] ، وعليه عندما نفكر في القيمة الصوتية فإننا لا نفكر فيها منفصلة عن المعنى بل نفكر في المعنى من خلال مستويات متعددة تتجاوب تجاوبًا لا يسمح بالتفكير فيها منفصلة عن غيرها .

وهذا هو التصور الأسلوبي للصوت والبحث عن طاقاته ودلالاته ، فكلما قمنا بتحليل قطاع من التعبير ، وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة جمالية ، فاللغة نفسها في جميع مظاهرها إنما هي تعبير خالص ، ومن ثم فهي علم جمالي ، وهي أصوات منظمة مهيأة من أجل التعبير.

والطباق منتشر في ديوان (لزوم ما لا يلزم) حتى لا تكاد تخلو لزومية من لزومياته منها ، فأحيانًا يكون غير متزاحم ، ومن ذلك قوله :

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (١٣٩) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (١٥٩) .

(٣) الطرابلسي ، محمد الهادي : خصائص الأسلوب في الشوقيات ، ص (٦٨) .

(٤) الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه محمود محمد ، ط١ ، دار المدني ، جدة ، ١٤١٢هـ ، ص (١١) .

ألا إنَّما الدنيا نُحُوسٌ لأهلها فما في زمانٍ أنت فيه سُعُودُ (١)

وأحيانًا يكون الطباق متزاحمًا يُغَطِّي البيت ، ومن ذلك قوله :

تَخَالَفَتِ الأغراض ناسٍ وذاكرٌ وسالٍ ومُشْتَاقٌ وبانٍ وهادمُ (٢)

فالإكثار منه في السياق الواحد يُقَوِّي تصوير الحركة والتوتر فيه ، ويزيد جوانبها تدقيقًا .

وكَأَنَّ البديع في اللزوميات كان رَمْزًا يَحْمِلُ دلالات لرفض الواقع وإنكاره ، فالطباق يرمز إلى ما نشاهده في الحياة من تناقض ، والجناس لما نجده من تشابه المظهر واختلاف الجوهر .

جـ-التجديد في الأسلوب والصورة الشعرية :

استخدم أبو العلاء المعري طاقات اللغة في الدلالة والتركيب والحقيقة والمجاز وغيرها من وسائل التعبير الفني ليعبر عن جوانب تجربته الشعرية ، وكان للصورة في ديوان (لزوم ما لا يلزم) دورها الواضح في تصوير موقفه من الحياة تجاه الكثير من القضايا الفكرية والاجتماعية في إطار رؤية جمالية خاصة ، يقول المعري :

لقد جاءنا هذا الشِّتَاءُ وتحتَهُ فقيرٌ مُعَرًّى أو أميرٌ مُدَوَّجُ (٣)

فما أروع تلك الصورة الشعرية إذ ترى فصل الشتاء زاحفًا بزمهريره ، وترى فقيرًا بائسًا يستقبل هذا الفصل عاريًا لا يجد ما يدفئه أو يقيه ، ثم ترى إلى جانبه أميرًا ثريًّا متدثرًا بِلِحَافٍ لا يكاد يشعر بألم البرد القاسي .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١٧٥) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٢٠) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (١٤٢) .

أكثر أبو العلاء المعري من تصوير الحياة وآمال الناس وأهوائهم في هذه الحياة ، وأُولِعَ المعري في تصوير آفات المجتمع في عصره ، وكان تصويرًا صادرًا عن نظرة خاصة ، فصور الواقع الاجتماعي حتى لنراه يَجْنَحُ إلى التعميم في تحليله المأساوي ، فكل كائن حي بخيل والناس كالنسناس لصوص ، يقول المعري :

وَكُلُّ من فوقَ الثرى خائنٌ حتى عُدُولُ الْمِصْرِ مثلُ اللصوصْ (١)

وللصورة الشعرية مصادرها ، وكانت أكثر تلك المصادر وضوحًا في ديوانه اللزوميات الثقافة بجوانبها التاريخية والعلمية . أَمَّا الثقافة التاريخية فهي من أكثر المصادر التي استعان بها أبو العلاء المعري في تكوين صوره الشعرية ، فقد حَفِلَ شعره بالإشارات التاريخية ، ومن ذلك قوله :

ومحمد هو الْمُنَبَّأُ يشتكي لمكانِ أَكْلَتِهِ انقطاعَ الأَبْهرِ (٢)

ففيه إشارة إلى الأكل المسموم الذي أكله النبي - صلى الله عليه وسلم - فقطعت أبهره . ويقول المعري :

هُمُ ضَرَبُوا حيدرًا ساجدًا وَحَسْبُكَ من عمر إذ طُعِنْ (٣)

حيث أشار إلى مقتل علي - رضي الله عنه - ، وكذلك طعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - . ويقول المعري :

تلك عجوزٌ أَلَّفَتْ شرَّها قبل بني فِهْرٍ وإيلافِها (٤)

حيث جعل الدنيا عجوزا شَبَّتْ على الشر وشابت عليه قبل إيلاف قريش رحلتي الشتاء والصيف . وهذه الإشارات التاريخية تُؤَكِّدُ معرفته الواسعة وتُظْهِرُ ثقافته المتنوعة .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٥٧) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٣٠٨) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٣٢٦) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (١٠١) .

أَمَّا الثقافة العلمية فلم يكن حَظُّهَا قليلا في تشكيل صور المعري ، فقد استخدم الثقافات المختلفة واعتمد عليها في صوره ، ومن ذلك قوله :

وَأَعْمَارُنَا أبياتُ شعرٍ كأنما أَوَاخِرُهَا للمنشدينَ قوافي

إذا حَسُنَتْ زانتْ وإن قبحت جنت أَذًى وهَوًى فيما يَسُوءُ هوافي (١)

حيث استخدم المعري علم العروض ، وجعل من القافية مادة شَبَّهَ بها أعمار الناس .

واستخدم علم النحو في تشكيل صوره ، يقول المعري :

إذا ماتَ اِبْنُهَا صرختْ بجهلٍ وماذا تستفيدُ من الصُّرَاخِ

سَتَتْبَعُهُ كعطف الفاء ليست بِمَهلٍ أو كثُمَّ على التَّراخي (٢)

واستخدم علم الفقه في تشكيل صوره ، يقول المعري :

ووجدتُ دنيانا تُشَابِهُ طامثًا لا تستقيمُ لناكحٍ أَقْرَاؤُها (٣)

فارتفع في شعر المعري أصداء الثقافات المختلفة ، واعتمد عليها في رَسْمِ صوره ، وقد أشار الدكتور طه حسين إلى استخدام المعري لاصطلاحات العلوم من نحو وصرف وعروض وفقه بوصفها مادة للصور الشعرية فيقول : " والعَجَبُ أن تلقى في هذه الاصطلاحات المستعارة ، تشبيهات صحيحة جيدة ، مع أنها في أنفسها أبعد ما تكون من ظرف الشعراء" (٤) .

فلم يتوقف المعري في ثقافته عند حدود ضَيِّقَةٍ ، وإنما وَسَّعَ آفاقه وضرب في كل ناحية بسهم وأخذ من كل فن بنصيب ، وبذلك صارت المسائل العلمية في متناوله يستمد منها ما يشاء ويجعلها مصدرًا من مصادره .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٩٦) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (١٧٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٣٤) .

(٤) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (٢٢٢) .

ووَضَحَتْ النزعة الفكرية في ديوان (لزوم ما لا يلزم) فميله لاستخدام أسلوب الحكمة والإرشاد العقلي يمثل جزءا بارزًا من تجارب المعري التأملية ، يقول المعري :

لأمــواهُ الــشَّبيبـة كيـف غِـضْنـهْ وروضات الصِّبَا كــاليَبْسِ إضْنَهْ (١)

فقد صَوَّرَ المعري بؤسه ويأسه تصويرا هادئًا ولكنه مؤثر ، وذهب المعري بتصويره إلى حسرات لا تنقضي وإلى تعجب حزين لا ينتهي . ويقول المعري :

وخَالَفَ ناسٌ في السَّجَايَا ليُشهروا كما جُعِلَ التصريعُ ختمَ القصائدِ (٢)

وقد التمس المعري من التصريع تشبيهًا طريفًا عندما شَبَّهَ سلوك مجموعة من الناس همها مخالفة المألوف والخروج على قوانين الأشياء وطبائعها بصنيع بعض الشعراء الذين يجعلون التصريع في ختم القصائد وليس في ابتدائها ، فالهدف في الحالتين واحد وهو طلب الشهرة ونَيْلُهَا بمخالفة الأعراف .

د-التجديد في الموسيقى الشعرية :

اِلْتَزَمَ أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) ترتيب قصائده ومقطوعاته على حسب البحور العروضية كما رَتَّبَهَا الخليل لا من حيث أوزانها الأصلية ، ولكن من حيث تشكيلاتها الموسيقية المختلفة ، فبدأ بالبحر الطويل ثم انتقل إلى البسيط ثم الوافر ثم الكامل ثم سائر البحور بحسب ترتيبها العروضي المعروف ، ولكي يتجنب المعري الملل والسآمة كان لا يأتي بوزن من الأوزان على هَيْأَةٍ واحدة بل غالبًا ما يستقصي أضربه ، وقد حَقَّقَ له ذلك وفرة في الموسيقى وتوزيعًا في الألحان ، وفي ذلك من التنوع في النغمات ما لا يخفى ، فاختلف بذلك عن الشعراء السابقين ، وفي هذا ما يُفَرِّقُ بين ديوانه اللزوميات وغيرها من دواوين الشعراء السابقين .

---

(١) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (٢٨٩) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢٠٠) .

وقد عُنِيَ أبو العلاء المعري بقوافيه لكي تُضْفِيَ نغمًا موسيقيًّا مناسبًا ، وأدرك ما يتطلبه الشعر من تنغيم ، ويبدو ذلك في استخدامه ألفاظًا تُمَهِّدُ للقافية سواءً أكانت تكرارًا لها ، كقوله :

وتَغَشَّى دهماءنا الغَيُّ لما عُطِّلَتْ من وضوحها الدهماءُ (١)

أم كانت صيغًا من صيغها ، كقوله :

فَارْقُبِي ياعَصَامِ يوما ولو أن لك في رأسِ شاهقٍ عصماءُ (٢)

وكذلك اتخذ من الأضداد إِرْصَادًا للقافية ، كقوله :

والثُّرَيَّا والشمسُ والنارُ والنـ ـرةُ والأرض والضحى والسماءُ (٣)

وتتراوح القافية في اللزوميات " بين ثلاثة أصوات وثمانية أصوات ، أي أن عدد الأصوات التي تتكرر في أواخر الأبيات يبدأ بثلاثة ثم يتدرج هذا العدد حسب ما في القافية من كمال موسيقي حتى يصل إلى ثمانية " (٤) ، فَسَمَا المعري بموسيقى القافية ، يقول المعري :

راعتكَ دنياك من رِيعَ الفؤادُ وما راعتك في العيش من حسن الْمُراعاة
كأنما اليومُ عبدٌ طالبٌ أمةً من ليلةٍ قد أَجَدَّا في المساعاة (٥)

حيث راعى المعري هنا أَلِفَيْ مد هما بمثابة حرفين ، وحركتين قصيرتين ، ثم راعى حرفًا آخر هو العين ، بالإضافة إلى حرف الروي وحركته .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٣٥) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٣٦) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٣٥) .

(٤) أنيس ، إبراهيم : موسيقى الشعر ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ١٩٥٢ م ، ص (٢٧٦) .

(٥) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١٢٧) .

ونظرا لما للقافية من أهمية في بناء القصيدة في الشعر العربي ، وبالتالي للكلمة الحاملة لتلك القافية التي تمثل مقطع البيت ، يقول المعري :

سحائبُ مبرقاتٌ مرعداتُ لمهجَةِ كل حَيٍّ مُوعداتُ (١)

فمن الملاحظ أنه لم يخل بيت في هذه القصيدة من بعض حروف المقطع وهي حروف قد تقل وقد تكثر قبل أن تأتي مجتمعة في كلمة المقطع ، ومن شأن هذه الظاهرة أن تمكننا من استنتاج أن المعري شديد الحرص على أن يُمَهِّدَ لقافيته بذكر أكبر عدد ممكن من مكونات اللفظة قبل بلوغها . وما يمكن استنتاجه من ظاهرة الحرص على ترديد أصوات المقطع في البيت قبله أن لفظة المقطع تسعى إلى السيطرة إيقاعيًّا بِتَفَشِّي جرس مكوناتها في فضاء البيت .

وعند التقاء التماثل الوزني مع التماثل الصوتي تجتمع الألفاظ فيما يمكن أن يُعدَّ ضربًا من التوازن التجنيسي الذي ينتج إيقاعًا يقوم على أساسين : أحدهما إطاري ولده الوزن ، وثانيهما داخلي ينتج عن تماثل الأصوات ، لكنه لا يصل إلى مستوى الجناس التام ، يقول المعري :

فُقِدَتْ في أيامك العلماءُ وادلهمَّتْ عليهمُ الظلماءُ (٢)

لزم المعري في هذه القصيدة الميم مع الهمزة المضمومة ، وصاغه على البحر الخفيف ، وبالنظر إلى مكونات النص من الحروف تَبَيَّنَ أنه لم يخل بيت من حرف الميم ، والعدد الأقصى للميمات في البيت الواحد هو ستة كما في البيت الأول . ومن شأن انتشار صوت الميم في كامل أنحاء النص موزعًا على كل الأبيات في كامل أجزائها أن يجعل جرسه بِغُنَّتِهِ المميزة يطغى على كامل إيقاع النص ويملأ أذني المتلقي .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (١١٢) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٣٥) .

وقد أدرك المعري ما يَتَطَلَّبُهُ الشعر من تنغيم فوفر كل ما يُعِينُ على تجويد الرنين في شعره ، وعمد إلى الوسائل الفنية التي تحقق هذا الغرض ، ومن بينها التصريع ، وقد جاء في مطالع القصائد ، كقوله :

لأمـــواهُ الشَّبيبة كيــف غِضْنَهْ وروضـات الصِّبَا كاليَبْسِ إضْنَهْ (١)

وقد أشار الدكتور طه حسين إلى ما أَضْفَاهُ التصريع في هذا البيت من نغم فيقول : " فانظر إلى هذا التصريع بين ((غضنه)) و ((إضنه)) ، كيف يرتفع بالبيت ، أو قل يثب به إلى هذه الجزالة الشائعة في شطريه " (٢) ، ولَعَلَّ تلك الجزالة التي يشير إليها هي الطاقة الموسيقية الإضافية التي أَضْفَاهَا المعري على الصياغة حين وُفِّقَ في التزام ما لا يلزم في قوافيه .

وورد التصريع أيضًا في أثناء القصائد ، كما في قوله :

أُلاتُ الظَّلْمِ جئن مبشرّ ظُــلْــمٍ وقــد وَاجَـهْـنَنَا مـتظلّمـاتِ (٣)

ولم يكتف المعري بتصريع المطالع بل صرع قصائد كاملة ، كما في لزوميته :

شَرٌّ على المـرأةِ من حَمَّامِـهَــا إرسـالُـكَ الفَـاضِـلَ مـن زِمَـامِـهَـا

وَمَشْيُهَا تَضْرِبُ في أكمامـهــا يَفُوحُ رَيَّا الـطيب من أمـامِـهـا (٤)

حيث لجأ المعري إلى التصريع في البنية الصوتية لِيُحْدِثَ موسيقى خاصة ، فالتصريع عند المعري إذن هو وسيلة بنائية وليست ترفًا أو زينة .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٨٩) .

(٢) حسين ، طه : مع أبي العلاء في سجنه ، ص (٤٢٣) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١٣٠) .

(٤) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٦١) .

وقد استخدم المعري وسيلة فنية أخرى وهي الترصيع [١] ، يقول المعري :

كَـــرَّارَةٌ أَحْـــزَانُـهَـــا ضَـــرَّارةٌ سُكَّانَـهـا مَـرَّارَةٌ سـاعـاتُـهـا [٢]

فقد برع المعري في إحداث الإيقاع عن طريق التوافق والتخالف بين وحدات هذا التقسيم (كرارة-ضرارة-مرارة) ، وكذلك يتكرر في الوحدة الثانية (أحزانها-سكانها-ساعاتها) ، فقد يتكون من هذا التقسيم صورة موسيقية يستجيب لها العقل ، وينسجم مع التنغيم الذي تُحْدِثُهُ ، ويعتمد في إِضْفَاء هذه القيمة الموسيقية على استحضار مخزون رصيده اللغوي .

كما لجأ أبو العلاء المعري إلى استخدام الجناس بوصفه عنصرًا من عناصر الموسيقى بكثرة ، وهذا يعكس اهتمامه بالإيقاع ، فاستعماله الجناس يؤدي إلى مزيد من الإتقان الصوتي الذي لا يؤثر في حسن الأسلوب فقط ولكن يؤدي إلى قوة المعنى .

ومن أكثر أنماط الجناس استخدامًا الجناس بين القافية وحشو البيت ، يقول المعري :

أُرِيدُ لِيانَ العيش في دارِ شـقـوةٍ وتـأبى الليالـي غير بُخْلٍ ولَيَّانِ [٣]

فقد أحدث رَدُّ العجز على الصدر ضربًا من التنوع الموسيقي .

كذلك جانس بين أول الشطر الأول وبين القافية ، يقول المعري :

أتـراكَ يـومًـا قـائـلا عـن نِيَّةٍ خَلَصَتْ لنفسك يا لجوج تراكِ [٤]

فالتكرار يُضَاعِفُ من ثروته الموسيقية ويَسْمُو بها .

---

(١) الترصيع : أن يتوخى فيه تعبير مقاطع الأجزاء في البيت على سجعه أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف .

(٢) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١١٦) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٣٠٠) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (١٣٩) .

وقد يَصِلُ الجناس إلى درجة التَّكَلُّفِ والتصنع ، ومن ذلك قوله :

تَبِعْتُ تُبَّعًا وفي القصر غالتْ قيصرًا وانتحتْ لكسرى بكسرِ

وَطَوَتْ طَيِّئا وآدتْ إيادًا وأصابتْ ملوكَ قسرٍ بقسرِ (١)

حيث جانس بين اثنتي عشرة كلمة ، ست كلمات في ثلاث جمل متوازنة في كل بيت ، وكأنه يشكل تشكيلاً هندسيًّا متناسقًا .

ولا يتكرر حرف اللزوم معزولا بل كثيرًا ما يقترن بحرف آخر أو أكثر من حروف القافية ، فيلازمه في ترديده وتكون نتيجة هذه الظاهرة عادة جناسا تامًّا أو ناقصًا ، يقول المعري :

إن يقربُ الموتُ مني فلستُ أكرهُ قُرْبَهْ (٢)

فلزوم ما لا يلزم ضغط اختياري إضافي يَمَسُّ كل جوانب البناء اللغوي ، وبالنجاح فيه يتحول ما كان يبدو عنتًا وتكلفًا إلى لبنة جديدة تُضَافُ إلى لبنات الإبداع الشعري في النص تدعم خاصة جانب الإيقاع فيزداد بها نُضْجًا وصلابةً ، إذ يمكننا أن نستنتج أن ظاهرة لزوم ما لا يلزم هي عملية دعم جَلِيَّةً لإيقاع النص .

ويمكن أن نعد الجناس صيغة صوتية وإيقاعية ودلالية تتخذ من حاستي السمع والبصر مُسْتَوَيَيْنِ يؤديان إلى التقارب الدلالي ، إذ تَبْرُز حاسة السمع من خلال تتبع إيقاع الأحرف عند التصاقها ، وتَبْرُز حاسة البصر من خلال تتبع رسم الحروف وما يتفق منها وما يختلف ، وبذلك فإن بُنْيَةَ التجانس ليست ذات قيمة إيقاعية فحسب وإنما بنية تعمل على المستوى الدلالي وتدفعه إلى النضج والاكتمال .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٣٢٧) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٧٧) .

٤- التجديد في المضامين الشعرية :

أ-المضمون :

وهناك في ديوان (لزوم ما لا يلزم) قصائد ومقطوعات تعبر عن تجارب فكرية وشعورية عميقة ، مما يُشْعِرُ القارئ بالصدق الفني من خلال وضوح تجربته ورؤيته للحياة في عصره من مختلف جوانبها الفكرية والاجتماعية ، فالمعري ذو أصالة فردية تتضح شخصيته في شعره ، وليس من الغارقين في القوالب التقليدية ، فيُحَقِّقُ في شعره رؤيته وموقفه الفكري وبناءه الفني الخاص ، قال المعري يصف رحلة الإنسان في الحياة :

رأيتُ الفتى شَبَّ حتى انتهى ... ومازال يَفْنَى إلى أَنْ همدْ

كمصباحِ ليلٍ بدا يستنير ... ثم تناقصَ حتى خمدْ (١)

صَوَّرَ المعري رحلة الفتى من المهد إلى اللحد بالمصباح الذي يبدأ خافت الإنارة ثم يسطع نوره ، ثم تبدأ شعلته بالتناقص ويخفت نوره تَدْرِيجيًّا حتى ينطفئ ، وأسلوب المعري هذا يُحَرِّكُ قُوَى الفكر ، ويُنَشِّطُها لفهم الصورة والتمعن فيها وتَقَصِّي أجزائها .

ب-الأغراض والموضوعات :

اتسعت طاقة الشعر في العصر العباسي اتساعًا مشهودًا ، وقد تَجَلَّى ذلك في التطورات التي ظهرت في موضوعات الشعر العباسي ، فقد تَحَلَّلَ بعض الشعراء من الجمود عند الموضوعات القديمة ، وأخذوا يُجَدِّدُون ويُطَوِّرُونَ وفق العوامل البيئية المختلفة التي ظهرت تأثيراتها المباشرة على الشعر والشعراء .

وانفرد ديوان (لزوم ما لا يلزم) بخلوه من أبواب الشعر المطروق : المدح ،والرثاء ، والوصف ، والغزل ، والفخر ، وانصرف ناظمه إلى تمجيد الله - عز وجل - ونقد الحياة وبحث مشكلات الحياة والموت ، وقد صَرَّحَ بذلك في مقدمة هذا الديوان إذ يقول : " فمنها ما هو

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٢٠-٢٢١) .

تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد ، ووضع المنن في كل جيد ، وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا " [١] ، فما تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة في ديوانه دون أن يُمَجِّدَ الله فيها تصريحًا أو تلميحًا ، فلم يُعْنَ بالأغراض الشعرية المتداولة ، واتخذ لنفسه مسارًا آخر غَرَّدَ به خارج سربه ، أَوْدَعَه أفكاره وآراءه في الموت والحياة والأديان والنسك والعبادة والزهد والفلسفة والعقل والنقد والأخلاق . ويبدو أن المعري نهج منهجا في الأغراض اختطه لنفسه وابتدعه ابتداعًا خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده .

قام المعري بِعَرْضِ الأغراض والموضوعات بصورة أدق وأعمق ، وأخذ يُنَمِّي بعض جوانب الشعر لتخرج منه فروع جديدة ، وبرزت موضوعات جديدة لم تكن شائعة في الشعر العربي القديم ، ومن أبرز تلك الموضوعات والأغراض :

-الشعر الفلسفي :

يرى بعض الدارسين أن ديوان (لزوم ما لا يلزم) فَنٌّ جديد في الشعر العربي ، ورائد هذا الاتجاه الدكتور طه حسين حيث يقول : " وليس من شعراء العرب كافة ، من يشارك أبا العلاء في خصال امتاز بها : منها أنه أحدث فَنًّا في الشعر ، لم يعرفه الناس من قبل وهو الشعر الفلسفي الذي وضع فيه كتاب اللزوميات ، وربما خُيِّلَ إلى الناس أن الشعر الفلسفي قديم عند العرب ، نظم فيه زهير ، وعدي بن زيد ، وأبو العتاهية ، وأبو الطيب ، لأنهم طرقوا فنون الحكمة والزهد ، وأنواع العبرة والعظة ، ولكن هذا النوع من الشعر غير الذي أنشأه أبو العلاء . إنما أنشأ أبو العلاء فَنًّا من الشعر استنزل الفلسفة من منزلتها العلمية المقصورة على الكتب والمدارس ، إلى حيث تسلك طريق الشعر إلى قلوب الناس " [٢] ، فالشعر الفلسفي قديم عند العرب نظم فيه بعض الشعراء السابقين ، وكانت أكثر آرائهم ونظرياتهم متصلة بالفلسفة الأخلاقية ، وليس نظريات خاصة يقيم عليها الأدلة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٥) (المقدمة) .

(٢) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (٢٢٨) .

أما أبو العلاء المعري فقد كانت فلسفته مستمدة من الفلسفة اليونانية ، والفلسفة الهندية ، والفلسفة الفارسية ، وكتب الدين ، " وكان استوى له عقل فلسفي تمثل كل ما أنتجه الفكر الإنساني من فلسفات اليونان ومن فلسفات الشرق الهندية وغير الهندية ، وأخذ يُكَوِّنُ له فلسفة تجمع في أصولها بين تلك الفلسفات وفلسفة الفكر الإسلامي وخاصة عند المتكلمين . فلسفة هي مزيد من تلك المذاهب الكثيرة التي تمثلها تمثلاً رائعًا ، والتي التقت في فكره لتتحول إلى صورة فلسفية جديدة ، أو قل إلى صورة فلسفية علائية لها أصولها ومقوماتها وطوابعها المميزة " [١] ، فاستطاع أن يُخْضِعَ الفلسفة والعلم للشعر ، وأن يُثْبِتَ مدى طواعية الفن للتعبير عن أدق الأفكار الفلسفية وأعمقها ، فزاوج بين الشعر والفلسفة مزاوجة نادرة حفظت للشعر قيمته وللفلسفة شيوعها وسلطانها ، " وقد تَمَّ على يديه تحويل الشعر إلى بناء فلسفي تَحَوَّلَتْ قصائده معه إلى مجموعة من النصوص الفلسفية " [٢] ، فقد يأتي بالنظرية ويقيم عليها الدليل ، يقول المعري :

يَدُلُّ على فضلِ الممات وكَوْنِهِ إراحةَ جسمٍ أن مَسْلَكَهُ صعبُ

ألم تَرَ أَنَّ المجدَ تلقاك دونهُ شدائدُ من أمثالها وَجَبَ الرّعبُ [٣]

حيث إنَّ العقل الفلسفي أنتج له أن الحياة عناء للأجسام ، وانصرف بأسلوبه إلى مذهب الفلاسفة ، فعرض الأمر على أنه قضية فلسفية ، ثم يلقي الحجج والبراهين عليها ، فجعل الموت الذي يرغب فيه الحكيم صعب المرام كالمجد كلاهما لا ينال إلا بعد الجهد ولا يبلغ إلا بعد تكلف المشقات .

جعل أبو العلاء المعري العقل وحده أساسًا لآرائه الفلسفية ، فالعقل فوق كل شيء ، والعقل عنده أفضل ما منحه الإنسان ، فمن عصاه وضعه ، ومن أطاعه رفعه ، يقول المعري :

---

(١) ضيف ، شوقي : فصول في الشعر ونقده ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، ص (١١٢) .

(٢) عبد المعطي ، محمود بن علي : تجليات الإبداع الأدبي ، ص (٢٥٦) .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٥١) .

أيها الغِرُّ إنْ خُصِصْتَ بعقلٍ فاسألنْهُ فكلُّ عقلٍ نَبِيُّ (١)

فالعقل عند المعري هو النبي الذي خلقه الله ، وجعله مِصْبَاحًا يُضِيءُ للإنسان طريقه في البحث عن الحقيقة ، ولذلك فالعقل قادر على الوصول إلى الحقيقة ، " فلم يقبل إلا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له إمامًا غير العقل في صبحه ومسائه " (٢) ، فالعقل للفرد كالنبي للأمة يهديه إلى سواء السبيل ويُرْشِدُهُ إلى الفضيلة ويَنْهَاهُ عن الرذيلة .

قَدَّمَ المعري الفكرة الفلسفية في قالب شعري ترتكز على العقل والحواس وتتشابك بالعواطف والمشاعر ، " فانتقل الشعر على يديه من الخيال إلى الحقيقة " (٣) ، حيث أَعْمَلَ عقله وأحاسيسه في مواقفه وتجاربه ، فلا نجده يحيد عن الواقع ، ثم لا يكتفي بهذه المواقف العقلانية ، وإنما يُحَاوِلُ الهداية والإرشاد إلى الصواب ، يقول المعري :

أما لكم بني الدنيا عُقُولٌ تَصُدُّ عن التَنَافُسِ والتعادي (٤)

وديوان (لزوم ما لا يلزم) صَدَى حالات نفسية انتابت صاحبها فكونت فلسفة اصطبغت بالشعر ، يقول المعري :

ما كانَ في الأرض من خَيْرٍ ولا كرم فَضَلَّ من قالَ إن الأَكْرَمينَ فَنُوا

وإنما نَحْنُ في سوداءَ طامِيةٍ وهل تُخَلَّصُ من أمثالها السُّفُنُ (٥)

حيث دعا المعري إلى الفلسفية النظرية ، كما راح يُطَبِّقُهَا في حياته ، فاعتزل الحياة ورفض متعها وفرض على نفسه حياة خشنة ، واقتنع بأن الحياة لا قيمة لها وأنها لا تستحق الحرص عليها .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٣٥٥) .

(٢) العقاد ، عباس محمود : رجعة أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ، ١٩٨٠م ، المجلد الخامس عشر ، ص (٣٢٦) .

(٣) زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، ط١ ، دار نوبليس ، لبنان ، ٢٠٠٣م ، المجلد الأربعون ، ص (٩٧) .

(٤) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، (٢١٢) .

(٥) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٧٧) .

ويبدو أن المناخ الفكري والقدرة اللغوية التي أتاحت له حرية الحركة الشعرية في صياغة ما في داخله من فكر فلسفي كانا وراء ظهور ما سمي بالشعر الفلسفي ، هذا اللون من الشعر الذي يعد بحق إضافة لها قيمتها في تيار التجديد العام للشعر .

-النقد :

أ-نقد طبقات المجتمع وطوائفه :

وقف أبو العلاء المعري موقف الناقد الاجتماعي الدقيق الملاحظة القادر على لَمْحِ العيوب والنقائص في مجالات الحياة الاجتماعية ، وينتشر النقد الاجتماعي في ديوان (لزوم ما لا يلزم) انتشارًا واسعًا ، " إذ قد كان ثائرًا على أوضاع المجتمع " [١] ، حيث شَهِدَ المجتمع العربي والإسلامي أيام أبي العلاء المعري تَمَزُّقًا سياسيًّا ، وعصفت فيه سلبيات متعددة وخطايا كثيرة ، وهَيْمَنَ الشر على البقاع ، وطغى الفساد على الإصلاح ، كما اندثرت الأخلاق السامية والمثل العالية ، يقول المعري :

سَجَايا كُلُّهَا غَدْرٌ وخُبْثُ تَـوَارَثَهَا أُنَاسٌ عـن أُنَاسِ [٢]

فالخيانة وراثة والناس أصحاب غدر وخبث .

رأى أبو العلاء المعري مجتمعه فعمد إلى طوائفه وطبقاته يَصُبُّ عليها نقده ، ولم يكد يترك طائفة أو طبقة إلا نقدها ، وكأنه يريد أن يُثْبِتَ أكبر قدر من النزاهة والنقاء بالبعد عن المفاسد التي انغمس فيها الآخرون ، فكان " نقده لأوضاع عصره نُفْرَةً من الظلم ، وثورة على الشر والفساد " [٣] ، فاستطاع أن يقول كلمة الحق في عصر انتشر فيه الفساد والطغيان وأَلِفَ العالم الظلم وفساد الأوضاع .

---

(١) الطيب ، عبدالله : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، المجلد الثاني ، ص (٢١٠) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (٣٩) .

(٣) قمير ، يوحنا : فلاسفة العرب أبو العلاء المعري ، ط٣ ، دار المشرق ، لبنان ، ١٩٩٥م ، ص (٤٠) .

نقد أبو العلاء المعري الأمراء والحكام وسَفَّهَ غرورهم وفضح للرعية زَيْفَهُم ، حيث " بَصَّرَ الناس بحقوقهم ووقف للأمراء والحكام بمرصد الناقد . وكان في دهر العربية سَبَّاقًا إلى فَتْحِ أعين الأمة وتَبْصِيرِهَا بحقوقها وقال قبل (جماعة حقوق الإنسان) في الزمن القريب ((الأمراء، للأمة أجراء)) " [١] ، فهي دعوة للإصلاح وعدم الانخراط فيما لا يتفق مع القيم الرفيعة والمثل العليا ، يقول المعري :

مُـلَّ المـقـامُ فكم أُعَاشِرُ أُمَّـةً ... أمـرتْ بـغـير صـلاحـهـا أُمراؤهـا

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ واستجازوا كيدهـا ... فعدوا مصالحها وهم أُجَراؤها [٢]

نقد المعري الملوك والحكام والأمراء ورماهم بالفساد والاستبداد والظلم ، ودعا إلى التفكير في مصدر السلطة التي أُتِيحَت لهم ، فلم يَرَ لها مَصْدَرًا إلا الأمة التي استأجرت حكامها ليقوموا بمصالحها .

لقد كان أبو العلاء المعري في أكثر الأحوال غير راضٍ عن الأحوال السياسية في عصره ، يقول المعري :

يا ملـوك الـبـلاد فُزْتُم بِنَسءِ الـ ... ـعُمُرِ والـجـورُ شأنكم في النسـاءِ

مالكم لا تَرَوْنَ طُـرْقَ الـمعـالـي ... قـد يـزورُ الـهـيجاءَ زيرُ نسـاءِ [٣]

حيث جعل المعري البلاء فيهم ، لأنهم يُمَارِسُونَ الظلم ويجانبون العقل ويؤيدون الأشرار ويرتكبون المحرمات ، ففضح للرعية زَيْفَهُم حيث " نراه ابتداء يسقط الملوك من حسابه ، بل نراه – كعادته في السخرية اللاذعة – يعلن يأسه التام منهم ، لأنهم ((لا يرون)) طُرُقَ المعالي ، ولأنهم لا يسيرون إلا في الطرق المسدودة " [٤] . والحقيقة أَنَّ السياسة لم تكن المحور المهم

---

(١) المحاسني ، زكي : أبو العلاء ناقد المجتمع ، (د.ط) ، دار المعارف ، لبنان ، ١٩٦٣م ، ص (٥٦ – ٥٧) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٣٤) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٤٠) .

(٤) بدوي ، عبده : دراسات في النص الشعري العصر العباسي ، ط٢ ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ ، ص (٢٧٥) .

في تفكير المعري ، وإنَّمَا المهم أَنْ يَتَغَلَّبَ العقل على الهوى والخير على الشر والصلاح على الفساد .

اِتَّسَمَ موقف أبي العلاء المعري السياسي بالعمومية والشمول بعيدًا عن أي غرض ذاتي أو شخصي . وما نعنيه بالعمومية والشمول هو عدم انتمائه لأيٍّ من التيارات السياسية التي كانت تتصارع وتتطاحن ، بل كان انتماؤه للأمة الإسلامية في مجموعها ، فكان المعري رافضا لأي تيار سياسي قائم في عصره مهموما بما يحيط بمجتمعه وأمته من تمزق وضياع . ومن ثم جاء نقده من أجل تأصيل القيم الإنسانية وإبرازها .

نقد أبو العلاء المعري علماء عصره وفقهاءَه ، واتهمهم بأنهم يَتَخَبَّطُونَ في فِهْمِ النصوص ، يقول المعري :

وكم من فَقِيهٍ خابطٍ في ضلالةٍ وَحُجَّتُهُ فيها الكتابُ المنزَّلُ (١)

ونقده هذا مُسَلَّطٌ على كلِّ مُتَعَالِمٍ يعتمد الكتاب والسنَّة لا لتنوير الحقيقة بل لتبرير وجهة نظره الشخصيَّة الخاطئة .

ونقد علماء عصره واتهمهم بأن سبب تأليفهم للكتب هو التنافس وحب الظهور ، إذ يقول :

لولا التَّنَافُسُ في الدنيا لما وُضِعَتْ كُتْبُ القناطر لا المغني ولا العُمَدُ (٢)

التنافس في الدنيا هو الذي أدَّى إلى أن تُوضَعَ كتب الكلام والمناظرات والمقالات ، وذكر المعري مثالين على ذلك : المغني وهو كتاب شيخ المعتزلة القاضي عبد الجبَّار ، والعمد وهو كتاب شيخ الأشاعرة أبو الحسن الأشعري ، فأشار بالمغني إلى المعتزلة وبالعمد إلى الأشعريَّة ، والمقصود بالتنافس في الدنيا هنا التنافس على المكانة الدنيوية ، والمعري بهذين المثالين يشير

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (١٤٩) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (١٧٨) .

إلى أَنَّ كلا الفرقتين المعتزلة والأشاعرة لم يُحَصِّلوا العلم النافع وإنما وضعوا الكتب من أجل التنافس على الدنيا .

ونقد القُرَّاءَ وسَخِرَ منهم واتهمهم بأن غايتهم التطريب والكسب ، يقول المعري :

وقارئكمْ يرجو بتطريبهِ الغِنَى فَآضَ كما غَنَّى ليكسِبَ زلزلُ (١)

ونقد الأدباء والشعراء ورماهم بالكذب والخداع ، وأنهم يُرِيقُونَ ماء وجوههم ويذلون أنفسهم من أجل التكسب الذي لا يليق بكرامتهم ، يقول المعري :

وما أَدَبَ الأقوامَ في كل بلدةٍ إلى الميْنِ إلا مَعْشَرٌ أُدَبَاءُ (٢)

أعاد المعري كلمة أدب إلى معناه الأصلي وهو الدعوة إلى الطعام ، والأدب دائما دعوة ، فنقد الأدباء والشعراء وصَرَّحَ بأنهم يدعون الناس إلى مآدب الكذب والمين . ويقول المعري :

وَكُلُّ أديبٍ أي إلى سَيُدْعَى الرَّدَى من الأَدْبِ لا أَنَّ الفتى مُتَأَدِّبُ (٣)

جعل المعري كلمة الأديب من أدبه إلى الموت لا إلى الطعام ، فالأدباء يدعون إلى الموت ، وليس اسمهم من التأدب .

ولم يكن نقد أبي العلاء المعري مجرد هجاء أو استقصاء لعيوب الناس ، بل كان نقده تعرية لحقيقة المجتمع وأخلاقيَّاته وسلوكه كي يُنَقِّي المجتمع من كل ضلالات الزيف وأفانين التضليل والخداع .

وهكذا أفاض المعري في نقد المجتمع وطبقاته ومظاهره ونظمه وأخلاقه ، وكان في ذلك موفقًا كل التوفيق ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك عيوب المجتمع في جملته وتفصيله ، ويعالج ظواهرها ، ويتعمق داخل النفس الإنسانية في دقة وتحليل .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (١٤٩) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢٨) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٥٢) .

ب–نقد العقل العربي :

يعتبر هذا النوع من النقد أبرز مظهر من مظاهر التجديد في الشعر ؛ لأَنَّنَا عهدنا من الشعر أن يكون خطاب وجدان ، فإذا بالمعري يُسَخِّرُهُ ليكون خطاب عقل ونقد لمعتقدات المجتمع وآليات التفكير البالية والأسطورية .

يَسْتَمِدُّ العقل العربي روح موضوعه الأساس من القرآن الكريم بوصفه مادة خاما ، فأداته تنهج نحو توظيف النص في تشكيل الثقافة العلمية وإنتاجها . وحيث إن القرآن الكريم يمتلك في حد ذاته اعتبارين أساسيين ، فهو من جهة يمثل ذات اللغة العربية ، لكنه من جهة أخرى له قدسية شرعية خاصة أَضْفَاهَا الشارع الإسلامي عليه . فهو ليس كأيّ لغة ولا كأيّ نص بل هو نص لغوي مُحَمَّلٌ ومشحون بالقدسية الدينية ، لذا فإن العقل العربي الإسلامي يصبح ذاته حاملاً لمادة ذات طبيعة مزدوجة ، فهي من جهة مادة لغوية قد تسهم بدرجة ما في حمل صورة الواقع العربي وعكسه على صعيد العقل ، لكنها من جهة أخرى عبارة عن مادة دينية ذات صبغة معيارية قائمة في الأساس على نظرية التكليف . فإن كان هذا الازدواج قائمًا في ذات النص الذي ينعكس بدوره على العقل الذي يستمد غذاءه من النص ، فإنه يصبح من الواضح ضرورة التمييز والكشف عن حقيقة البنية الأساسية للعقل وطبيعة العامل الفاعل الذي يقوم به في عملية الإنتاج المعرفي .

أدرك المعري ضرورة احترام مبادئ العقل والتزامها ، وضرورة تعميم المنطق وتعريبه داخل الثقافة العربية ، والارتفاع إلى مستوى آخر من الفكر والتفكير والإشكاليات إلى الفلسفة ليس بوصفها خطاب العقل الكوني وحسب ، وإنما بوصفها تهدف إلى نفس ما تهدف إليه الشريعة والفضيلة ، يقول المعري :

كَذَبَ الظَنُّ لا إمامَ سوى الـ عقلِ مشيرًا في صبحه والمساءِ [١]

ذهب أبو العلاء المعري " في هذا البيت مذهبًا في اِلْتِقَاء الأدب العربي بالحكمة العقليَّة " [٢] . وهكذا كان العقل عنده هو الإمام كما سَمَّاهُ تمامًا ، وإذا كان العقل هو القدرة على ربط المقدمات بالنتائج ، فإن المعري مُحِقٌّ بأن أعطاه صفة الوسيلة والقيادة للوصول إلى الغاية القصوى وهي المعرفة الكلية والدور الرِّسَالِي المنوط بالإنسان العاقل ، وهذه عين الحقيقة ، فالعقل يعقل صاحبه لئلا يقع في الهلاك وينحرف عن جادة الصواب ، ولأن الدعوة الإسلامية خاطبت العقل فوجب على متبعيها أن يعتمدوا على الوعي في فهم المعجزات ، وإلا فكيف ستفهم المعجزة إنْ لم تكن في سياق الوعي العام الذي يُدْرِكُ أنها معجزة ، ويُدْرِكُ أنها فوق القوانين السننية ، غير أن هذا العجز عن إدراك المغيبات أدركه المعري ، فكان يُقَوِّي عزيمته على البحث في المعرفة الكلية ، وعدم الركون إلى التَّبَعِيَّةِ والاكتفاء بالنقل .

١-نقد الآليَّة التي يفكر بها العقل العربي :

يتألف العقل البشري من نوعين من المعارف : معارف فِطْرِيَّةٍ سابقة على الخبرة والتجربة وموجهة لها ، ومعارف مكتسبة من التجارب الحسية والتأملات النظرية والخبرات العملية . وتتألف المعارف الفطرية من مبادئ فطرية تحول دون التناقض الداخلي للفكر ، وتُمَكِّنُهُ من فرز المعطيات الحسّية إلى مجموعة من المفاهيم الأولية ومن ثم تركيبها وفق مفاهيم مجردة ، أما المعارف المكتسبة فتتكون من تأكيدات أو قناعات عملية تكتسب من خلال الخبرة والتجربة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٤٠) .

(٢) الشمري ، عبد الرزاق : أبو العلاء المعري ساخرًا ، من الموقع الإلكتروني http://www.iraqimunteda.com ، بتاريخ ١٤٣٣/٨/٢هـ .

ومن خلال التأمل في الحقيقة السابقة يظهر لنا أن المبادئ العقلية التي توجه عمليات التفكير يحمل العقل فيها خصائص الثقافة التي شكلته والتراث الذي صنعه ، فإسهامات الأفراد تُطَوِّرُ المعارف الموروثة من خلال البناء عليها أو تصحيحها عبر النقد والاختبار والتجربة . " فمن جهة يمكن النظر إلى ((العقل العربي)) بوصفه عقلا سائدًا قوامه جملة مبادئ وقواعد تؤسس المعرفة في الثقافة العربية . وفي هذه الحال يكون من الممكن جِدًّا القيام بتحليل موضوعي علمي لهذه المبادئ والقواعد التي تشكل ، في ذات الوقت ، أساسيات المعرفة ، أو نظمها ، في الثقافة العربية . ومن جهة يمكن النظر إلى ((العقل العربي)) بوصفه عقلا فاعلا يُنْشِئُ ويصوغ العقل السائد في فترة تاريخية ما ، الشيء الذي يعني أنه بالإمكان إنشاء وصياغة مبادئ وقواعد جديدة تَحُلُّ محل القديمة ، وبالتالي قيام عقل سائد جديد أو على الأقل تعديل أو تطوير ، أو تحديث أو تجديد ، العقل السائد القديم " [١] . ومن هنا تبرز العلاقة الوطيدة بين العقل والثقافة ، فالثقافة تصنع العقل وتشكله والعقل يطور الثقافة ويغربلها فيثريها أو يفسدها ، فالعقل يُحَدِّدُ طرائق التفكير ومبادئ التعامل مع المحيط الطبيعي والاجتماعي .

ولذلك كثيرًا ما نجد أن عملية التفكير ليست سوى بحث عن آليات الاستدلال التي أَدَّتْ إلى توليد قناعات راسخة ، إذ يبدأ المفكر بحثه انطلاقًا من قناعة أو قناعات يجدها راسخة في نفسه فيجتهد في تحديد المفاهيم المؤسسة لتلك القناعات ثم يربط بعضها ببعض وفق قواعد منهجية ومنطقية .

ويعد حَمْل الفكر العربي إلى مجالٍ معرفيٍّ جديد " جوهر الإصلاح بالنسبة لهذا الفكر . وهو شاهد على طبيعة هذا الإصلاح الذي لايرضى بالبقاء ضمن الأطر التقليدية البالية للفكر . إنه تغيير جذري للفضاء المعرفي الذي يؤسسه ، ذلك أن الانتقال من مجال

---

(١) الجابري ، محمد عابد : نقد العقل العربي ... تكوين العقل العربي ، ط١٠ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، لبنان ، ٢٠٠٩م ، ص (١٦) .

معرفي أصولي إلى آخر هو الثورة المنشودة لتغيير أي فكر من مجال مهترئ إلى مجال جديد . وإذا أصيبت مقومات الفكر بالقدامة ، فالحل يصبح حينئذٍ هو نقل هذا الفكر إلى فضاء جديد وعلى أصول معرفية جديدة " [١] .

أراد أبو العلاء المعري تحديد أُسُسَ التفكير السليم التي يمكن من خلالها إعمال العقل لفهم ثوابت الواقع الطبيعي والاجتماعي ومتغيراته ، وإدراك طبيعة البنية الداخلية التي تحركه وتتحكم به ، ولَعَلَّ " من أهم خصائص العقل الإنساني قدرته على فهم الظواهر الطبيعية والاجتماعية ، ومن ثم توظيف هذا الفهم لحل مشكلاته وتحديد أولوياته ، وتنظيم شؤونه الخاصة والعامة ، وتحقيق مصالحه الفردية والاجتماعية " [٢] ، ومن ثم إعمال العقل لتوظيف الفهم المتحصل لتطوير الحياة الإنسانية والارتقاء بها في معارج الكمال العلمي والتنظيمي والوجداني .

نقد أبو العلاء المعري العقل العربي السَّائِدَ ومارس ذلك النقد داخل هذا العقل نفسه من خلال تَعْرِيَةِ أُسُسِهِ وتحريك فاعليَّاته وتطويرها وإغنائها بمفاهيم وإشراقات جديدة استقاها من جوانب الفكر الإنساني المتقدم الفلسفي والعلمي ، ولعل أولى النتائج التي فرضها المعري هي ضرورة إعادة النظر في مفهوم العقل ذاته . لقد كان الفلاسفة ينظرون إلى العقل بوصفه محتوى أما عند المعري فلقد أَدَّى إلى قيام نظرية جديدة في العقل قوامها النظر إليه بوصفه أداة أو فاعلية ليس غير ، أي لم يعد العقل مجموعة من المبادئ بل إنه القدرة على القيام بإجراءات حسب مبادئ . " وهنا يتسع مفهوم العقل ليتجاوز حدود العقلانية لأنه يعني الآليات التي ينتجها الإنسان من خلال تركيبته الطبيعية وخلفياته الحضارية " [٣] .

---

(١) الفجاري ، مختار : نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون ، ط١ ، دار الطليعة ، لبنان ، ٢٠٠٥م ، ص (١٦٦) .

(٢) صافي ، لؤي : إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية ، ط١ ، دار الفكر ودار الفكر المعاصر ، سوريا ولبنان ، ١٤١٩هـ ، ص (١٥) .

(٣) الفجاري ، مختار : نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون ، ص (٤٨) .

نقد المعري أسس الثقافة العربية نَقْدًا يَصِلُ إلى الدعوة إلى مراجعة العقل العربي ، وقدم رُؤْيَةً جديدة ترتكز على العقلانية والتحليل المنطقي في مقاربة وإعادة دراسة الأسس الثقافية التي بُنِيَتْ عليها في التاريخ ويُعِيدُ النظر فيها ، ويتساءل أمامها ويفتح الباب أمامنا لنقدها ، ومن ثم تكوين رؤية عن الماضي ورؤية إلى المستقبل جديدة ومختلفة وذات أسس معرفية مرتكزة على العقلانية والتحليل المنطقي ، وهذه البُنْيَةُ المعرفية كان لها تأثير في الوسط الثقافي . لقد حاول المعري " إعادة تأسيس العقل ايديولوجيا في مستوى السلوك والمجتمع والأخلاق والمعاملات الخ ... كما حاول إعادة التأسيس المعرفي الذي كان مع الجاحظ وذلك من خلال منهج الشك وتجديد مبادئ العقل " [١] . فالمعري يُمَثِّل العقليَّة العربيَّة المستنيرة " التي تحاول أن تشك في كل الحقائق لكي تستنتج حقيقة واحدة وهي البحث عن الحقيقة " [٢] .

وتعود أَسْبَقِيَّةُ نقد العقل العربي لأبي العلاء المعري حين قال :

لقد صَدِئَتْ أفهامُ قَوْمٍ فهل لها صِقَالٌ ويحتاجُ الحسامُ إلى الصَّقْلِ [٣]

يدعو المعري إلى اِتِّبَاع العقل ومُخَالَفَةِ أعراف المجتمع وتقاليده ، فيوجد تَضَادًّا بين نَسَقِ الأنا ونَسَقِ المجتمع . وقد استعار صفة الصَّدَإِ للأفهام ، وتُعَدُّ الاستعارة خَرْقًا لعرف لغوي لدى المتلقي ، " وقد أدرك المعري جيدا ما أصاب العقل العربي من تكلّس حتّى شبهه بالسّيف الذي علاه الصدأ فاستحال عليه الاشتغال وبطلت وظيفته " [٤] . إن مثل هذه الصورة قادرة على إحداث عنصر المفاجأة وأداء وظيفة تشويقية من خلال اللعب بالخيال .

---

(١) الفجاري ، مختار: خطاب العقل عند العرب (كشف عن النص الغائب من ابن المقفع إلى الجاحظ) ، ط١ ، المطبعة العصرية ، تونس ،١٩٩٣م ، ص (٩١) .

(٢) أبو الفضل ، محمد : الشك عند أبي العلاء المعري ، من الموقع الإلكتروني http://www.ibn-rushd.org ، بتاريخ ١٤٣٣/٨/٢٠هـ .

(٣) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (١٨٠) .

(٤) مختار الفجاري : خطاب العقل عند العرب ، ص (٩١) .

٢-نقد آليَّة الشعر الوجدانيَّة :

نقد أبو العلاء المعري العقل العربي الذي يُفَكِّرُ بآلية شعريَّة وجدانيَّة ، فلم يعد الشعر على يديه إذن وسيلة للعيش الرخيص أو الكذب المغلف أو الشَّتْم ، بل أصبح وسيلة للفكر المتأمل ، وبَوْتَقَةً يَسْكُنُ فيها الوجدان الصادق وتعبيرًا مُشِعًّا عن الحقائق . حيث تَوَجَّهَ المعري إلى شِعْرِيَّةٍ جديدة يمكن أن نسميها شعرية الصدق . إن من بين ما تتميز به هذه الشِّعْرِيَّةُ هو نهجها لأسلوب فني جديد يعتمد على جمالية الصدق ، ويَنْأَى عن كل الخصائص الفنية التي ترتبط بالنمط الشعري الذي يُهَيْمِنُ عليه الكذب والتخيل وتغيب الكلمة الصادقة ، ولقد أشار المعري – ضِمْنِيًّا – إلى هذه الوجهة مرتين في المقدمة التي كتبها لديوان اللزوميات ، أولها قوله : " كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق ، توخيت فيها صدق الكلمة ، ونزهتها عن الكذب والميط " [١] ، كما أنه أشار إلى ذلك مرة أخرى في خاتمة مقدمته فقال : " إني رفضت الشعر رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته " [٢] ؛ أي رَفَضَ الشعر رَفْضَ ولد الناقة مشيمته وفرخ النعامة لقشرة بيضته التي غادرها ، وهو يُؤَكِّدُ لنا أنه لم يكن بهذا الكلام يقصد ترك الشعر بل مغادرة تكلفات الشعر . ويظهر من خلال هذين النَّصَّيْنِ أن وظيفة الشعر عند المعري قد تَحَوَّلَتْ من وظيفة تقوم على الكذب وعلى الصورة التخيلية الإيهامية إلى وظيفة أخلاقية ذات منزع فني جديد قوامه صدق الكلمة وجمالية المعنى والقيم . وهذا كلّه يعمل على تغيير العقليّة وحمل الفرد من آليّة تفكير مدحيّة تملقيّة إلى آليّة جديدة هي آليّة النقد العقلي . فهو يحمل الفكر من مجال العقل الشعري الوجداني إلى مجال العقل المنطقي .

فالمعري سلك هذا الوادي من الشعر وترك الشعراء في أوديتهم يهيمون ويحبرون قصائد الثناء استدرارًا لأكف أهل الثراء ، ويطيلون الهجاء لمن يمنعهم العطاء ، ويَرْثُون من لا يعرفون ، ويتهافتون في العبث والمجون ، تركهم في ذلك وانصرف إلى صدق

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٥) (المقدمة) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٦) (المقدمة) .

الكلمة وجعلها دليله في الشعر ، فرفض الشعر بمفهومه السابق إلى أسلوب جديد هو أسلوب الصدق ، وهذا الأسلوب الجديد بفكرته وغايته هو الذي نفحه بالخلود وأبرز منه شاعر القيم .

٣-نقد الآليَّة المدحيَّة التملقيَّة :

كذلك نقد المعري العقل العربي الذي يفكر بآلية مدحيَّةٍ تَمَلُّقِيَّةٍ ورفض مدح السلاطين والأمراء والتكسب بالشعر ، فالشعراء وقفوا أمام الملوك والأمراء وسَخَّرُوا شعرهم لمدح الحكام لغاية ما ، إما للتكسب وإما من أجل تشويه حقائق ساطعة على هذا الأمير أو الحاكم لكي يفوزوا في الأخير بمال أو مرتبة ، ولكن أبا العلاء المعري كان يختلف عنهم كل الاختلاف ، فهو أَبِيٌّ كريم النفس لم يطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولم يمدح طالبًا للجوائز والمكافآت ، وغَضِبَ المعري على المتكسبين بالشعر ونقدهم ، ولم يتوقف غضبه عند حد نقدهم وإنما وصل إلى حد السخرية منهم ، يقول المعري :

وما شعراؤكم إلا ذِئَابٌ تَلَصَّصُ في المدائحِ والسِّبَابِ (١)

٤-نقد آليَّة القياس الفقهيَّة :

كذلك نقد المعري العقل العربي الذي يفكر بطريقة فقهيَّةِ القياس . وتَتَحَدَّدُ عملية القياس في أنها تعدية حكم أصل إلى فرع لاشتراكهما في علة الحكم ، فالأصل ما نزل به الحكم نَصًّا والفرع الأمر المستجد الذي عُدِّيَ إليه حكم الأصل والعلة صفة اجتمعت في الأصل والفرع ، فإذا دققنا في سبب رفض المعري التعليل بالمناسب وجدنا أنه يعود إلى صعوبة تحديد المعنى العقلي المناسب الذي جعله الشارع مناطًا للحكم ، فالمعنى العقلي المناسب ليس معنى ظاهرًا بحيث يمكن ضبطه من خلال المعرفة الحسية بل معنى مفارقًا للوجود الحسّي يتطلب تحديده نظرًا عقليًّا ، يقول المعري :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٩٣) .

فإن كان شيطانٌ له يَسْتَفِزُّهُ فَأَيُّهُمَا عند القياس تلومُ

تجرَّأْ ولا تجعل لِحَتْفِكَ علةً بإكثار طُعْمٍ إن ذلك لُومُ [١]

فالمعري يرى أَنَّ حمل ألفاظ نَصٍّ يقبل دلالات متعددة على واحدة منها وتعدية الحكم من أصل إلى فرع قياسًا على وصف ظن القائس في أنه علة الحكم لا يفيد القطع في صحة القياس ، ولا يُؤَدِّي إلى التثبت من دقة المعرفة المتولدة عن النظر إلى النصوص ، ذلك أَنَّ النتيجة المتحصلة من مقدمات جزئية محتملة نتيجة ظَنِّيَّة محتملة لا محالة . وإننا لنشتمُّ من وراء ذلك نقدا للاعتزال ونظريَّته في القياس التي ضبطها القاضي عبدالجبار في كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل [٢] .

أَنْمَى أبو العلاء المعري العقل العربي وخدمه بنقده أسس الثقافة العربية نقدًا يصل إلى الدعوة إلى مراجعة العقل العربي من أجل تطويره وتجديده وإغنائه بمفاهيم واستشراقات جديدة والارتقاء به في معارج النضج والكمال ، فالفكر البشري لا يصير عقلا حَقًّا إلا بقدر ما يُؤْمِنُ ويعمل بأن رسالته أن ينقل بأمانة عقل العالم .

-السخرية :

السخرية عند أبي العلاء المعري " موقف من العالم ، يهجو نقائصه ويركز الضوء على أبرز مفارقاته ، موقف يُدْمِي الروح في اللحظة ذاتها التي يضحك فيها الكائن البشري على ضعفه وتخاذله وابتذاله " [٣] ، ومن الممكن أن نواجه هذه النقائص والرذائل بأسلحة متعددة ومنها السخرية التي هي أَعْرَقُ أسلحة البشر وألطفها .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٢١) .

(٢) القاضي عبد الجبّار معاصر للمعري ويبدو أن في شعره الشيء الكثير في الردّ على قاضي المعتزلة .

(٣) معروف ، فوزي : إطلالة على السخرية عند أبي العلاء المعري ، مجلة اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، العددان التاسع والتسعون والمئة ، السنة الخامسة والعشرون ، ٢٠٠٥م ، من الموقع الإلكتروني http://www.awu-dam.org ، بتاريخ ١٤٣٣/٨/٢٦هـ .

كان موضوع المرأة من الأمور التي سكب المعري كثيرًا من كلامه فيها ، وعرض على الملأ كل مثلبة ونقيصة في المرأة ، فسَخِرَ من النساء وهاجمهن ووصفهن بالضعف والخيانة والمكر ، فأساء الظن بالمرأة " انطلاقًا من مفهومه الضيّق للحياة ، لجهة اعتباره الشر غريزة مهيمنة على طباع الشر ، وانسجاما مع طبيعته الانعزالية ونزعته التشاؤمية " [١] ، وإنك لترى سوء ظنّه بهنّ ، إذ يقول :

فَـوَرِاسُ فـتنة أعـلام غَـيٍّ لـقينكَ بالأسـاورِ مـعلِماتِ [٢]

إذ سخر المعري من المرأة سخرية عنيفة ، ولم ينظر إليها كَأُمٍّ حنون ولا زوجة صالحة ، ويقول المعري :

سحـائبُ مـبرقـاتٌ مـرعـداتُ لـمـهجَةِ كـل حَـيٍّ موعداتُ
وكيف يُـقَـامُ فـي أَمْـرٍ مُـهِـمٍّ لِيُفْعَلَ والـمـقادرُ مقـعداتُ [٣]

فَصَوَّرَ المعري المرأة كائنًا يبحث عن الْمُتَعِ ، وينصب للرجال أشراك الحيلة والخداع بضروب من الفتنة والإغراء . ويقول المعري :

ولا تُـرْجِعْ بـإيـمـاءٍ سـلامـا عـلى بِيضٍ أَشَـرْنَ مُـسَلِّمَـاتِ [٤]

حيث صَوَّرَ طبيعة المرأة وخصائصها تصويرًا يدل على خبرة أو علم ، ولكنه يَحْمِلُ كثيرًا من السخرية .

---

(١) الشامي ، يحيى : أبو العلاء المعري من ((سقط الزند)) إلى ((اللزوميات)) ، ط١ ، دار الفكر العربي ، لبنان ، ٢٠٠٢م ، ص (١٠) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (١٣٠) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (١١٢) .

(٤) المصدر نفسه ، ص (١٣٠) .

وسَخِرَ المعري من خرافات العامة التي يتناقلها المتاجرون بالخرافة ، ومن ذلك ما يُورِدُهُ بعض العامَّةِ أن بعضًا من أبرار المجتمع ونُسَّاكِهِ طاروا عن الأرض أو مشوا على صفحات الماء متهكمًا من براهين الناس واستدلالهم ، يقول المعري :

زَعَمَ الناسُ أَنَّ قومًا من الأبـ ـرار عُولُوا بالجوِّ بالطَّيَرَانِ
وَمَشَوْا فوقَ صفحة الماء هذا الإفـ ـكُ هيهاتَ ما جرى العصرانِ
ما مشى فوقَ لُجَّةِ الماء لا السَّعْـ ـدَانِ فيما مضى ولا العُمَرَانِ [١]

حيث خاطبهم المعري بأدلة من جنس أدلتهم الدينية قائلا لهم : أن ليس في حياة كبار الصحابة شيء من هذا يَتَّبِعُهُم عليه .

وسخر أبو العلاء المعري من الْمُنَجِّمِينَ ، وكان له معهم تهكم لاذع ، يقول المعري :

لَوْ كانَ لي أَمْرٌ يُطَاوَعُ لم يَشِنْ ظهرَ الطريق يَدَ الحياةِ مُنَجِّمُ [٢]

فقد تَمَنَّى المعري أن تكون له يد أو سلطان يَجْتَثُّ به شَأْفَتَهُم ويُخَلِّصُ المجتمع من شرورهم .

ولفت أنظار مجتمعه إليهم ووصفهم بأنهم منجمون جهلة لا يعرفون موضع وقوف البعوض من أجسامهم ، يقول المعري :

يُنَجِّمُونَ وما يدرونَ لو سُئِلوا عن البعوضةِ أَنَّى مِنْهُمُ تَقِفُ [٣]

وسخر أبو العلاء المعري من أهل التصوف وسَفَّهَهُم ، فكان يرميهم بسهام من تهكمه ، لأنهم يخادعون الناس ، " ولهذا رمى أبو العلاء فرق المتصوفة في أيامه

(١) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٣١٩) .
(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٢٦) .
(٣) المصدر نفسه ، ص (٨٩) .

بسهام صائبة ، عَرَّتْهُم عن ثيابهم ، وكشفت عن خباياهم وفضحتهم على أعين الناس " [١] ، يقول المعري :

صُوفِيَّةٌ مـا رَضُوا للصوف نِسْبَتَهُم حتى ادّعوا أنهم من طاعةٍ صُوفُوا [٢]

وناظر المعري الصوفية بشعره وكأنه يجادلهم ويعبث بهم بنقد متهكم ، يقول المعري :

نَـحْـنُ قـطـنـيـةٌ وصـوفـيـةٌ أنـ ـتمْ فَقَطْنِي مـن التَّجَمُّلِ قـطني [٣]

يقول المعري للصوفيين نحن قُطْنِيَّة وأنتم صُوفِيَّة وحسبي القطن لِبَاسًا ، فيرد عليهم بتهكم وسخرية . ومن هنا نلاحظ " السخرية التي لا يتخلى عنها أبو العلاء في كل ما ومن ينقد .. أفلا يحق أن نسميه بعد الجاحظ فيلسوف السخرية في الأدب العربي " [٤] .

" إن الكثير من لقطات المعري الساخرة تستند إلى آلية المفارقة اللغوية التي تجعل العلاقة بين الدلالة المباشرة والدلالة المنزاحة علاقة قائمة على التقابل الدلالي لأن بنية السخرية تتحقق بوجود دال ومدلولين يكون الأول مباشراً ويكون الثاني ضمنيًّا " [٥] ، ومن معاني المفارقة أَنْ يُعَبِّر عمَّا يُريده بلغة توحي بمعنى يُنَاقض المعنى الذي يُريده ، أو أَنَّه يستخدم اللغة بطريقة تَحْمِل معنًى باطنيًّا موجَّهًا لجمهورٍ خاص .

---

(١) الخطيب ، عبد الكريم : رهين المحبسين أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد ، ط١ ، دار اللواء ، الرياض ، ١٤٠٠هـ ، ص (٥٦-٥٧) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : ا للزوميات ، المجلد الثاني ، (٩٢) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٣١٨) .

(٤) شرف الدين ، خليل : في سبيل موسوعة فلسفية أبو العلاء المعري مبصر بين عميان ، (د.ط) ، دار الكتب الهلال ، لبنان ، ١٩٨٣م ، ص (١٤١) .

(٥) معروف ، فوزي : إطلالة على السخرية عند أبي العلاء المعري ، ٢٠٠٥م ، من الموقع الإلكتروني http://www.awu-dam.org ، بتاريخ ١٤٣٣/٨/٢٦هـ .

-الدين الإسلامي والشرائع والفرق والمذاهب :

نظم أبو العلاء المعري في الدين الإسلامي ، وأَلَمَّ بكثير من الشرائع والملل والمذاهب والفرق ، " ولم يَنْظُمْ في الملة أحد غيره فيها وله شعر كثير " [١] ، وقد تَصَدَّى في شعره إلى مُنَاظَرَةِ أصحاب الملل والنحل ، وصَرَّحَ بما لم يرتض من عقائدهم ، وعَظَّمَ الإسلام وفضله على الأديان عامة ، وقد مدح الإسلام خاصة ، يقول المعري :

وَإِنْ لحق الإسلام خَطْبٌ يُغِضُّهُ فما وَجَدَتْ مثلا له نَفْسُ وَاجِدِ [٢]

امتلأ ديوان (لزوم ما لا يلزم) بتمجيد الله تعالى والثناء عليه ، فما تكاد تخلو لزومية من لزومياته دون أن يُمَجِّدَ الله فيها تصريحًا أو تلميحًا ، وقد صَرَّحَ المعري بذلك في مقدمة ديوانه " فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد " [٣] ، فأثنى على الله وأثبت له صفات الكمال ، ونفى عنه صفات النقص ، ومَجَّدَ الله بأنه موجد كل شيء ومحصيه ، يقول المعري :

إلـهـكَ أَوْجَـدَ الأشيـاء جـمـعـا فـلا يَـفْـخَرْ بـشيءٍ مُـوجِـدُوهُ [٤]

ويقول المعري :

لم يُحْصِ أعدادَ رمل الأرض سَاكِنُهَا وَكُـلُّ ذلـك عنـد الله مـحـصـورُ [٥]

ومدح النبي - صلى الله عليه وسلم - وشريعته بقصيده خاصة في اللزوميات مطلعها :

---

(١) خفاجي ، محمد عبد المنعم : الآداب العربية في العصر العباسي الثاني ، ص (١٧٤) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٢٠١) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٥) (المقدمة).

(٤) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٣٣٦) .

(٥) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢٣٩) .

دَعَاكُم إلى خَيْرِ الأمورِ محمد وليس العوالي في القَنَا كالسَّوَافِلِ [١]

واعتقد المعري أن التوراة كتاب أنزله الله إلى موسى ، وأن اليهود حَرَّفُوهُ وبَدَّلُوهُ ، حتى صارت كَذِبًا من علمائهم وأحبارهم ، يقول المعري :

ضَلَّتْ يهودُ وإنما تَوْرَاتُهَا كذبٌ من العلماءِ والأحبارِ [٢]

وصَرَّحَ المعري في شعره ما يعتقده النصارى في عيسى عليه السلام من الربوبية وأنه ابن الله ، يقول المعري :

وقد شَهِدَ النصارى أَنَّ عيسى تَوَخَّتْهُ اليهودُ ليصلبوهُ
وقد أَبَهُوا وقد جعلوه رَبًّا لئلا ينقصوه ويَجْدُبُوهُ [٣]

كما تَصَدَّى المعري إلى كثير من الفرق التي تنتمي إلى الإسلام ، وبين ما في عقائدهم ، فَبَيَّنَ رأيه في كثير من آراء الشيعة فهو يُنْكِرُ مَجِيء الإمام المنتظر ، إذ يقول :

يَرْتَجِي الناسُ أن يقوم إمامٌ ناطقٌ في الكتيبةِ الخرساءِ [٤]

فسخر المعري من عقائدهم واتهمهم بارتكاب المحرمات اتكالا على شفاعة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – .

وانتقد على غلاة الشيعة من الإسماعيلية والباطنية مُكَذِّبًا قولهم بالتفسير الباطني للنصوص ، ووجه للاثني عشرية ضربة موجعة بإنكار أن يكون علي مدفونًا في النجف ، مما يعني نَسْفَ الأساس الذي قامت عليه حاضرتهم الكبرى ، يقول المعري :

---

(١) المصدر نفسه ، ا لمجلد الثاني ، ص (١٨٢) .
(٢) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٣٢١) .
(٣) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٣٣٤) .
(٤) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٤٠) .

وما صَحَّ للمرءِ المحصِّلِ أنه بِكُوفَانَ قَبْرٌ للإمـــامِ يُزَارُ [١]

وذكر المرجئة والمعتزلة وأشار إلى مذهبهما ، يقول المعري :

أَرْجُوا أو اعـــتزلوا فإنـــ ي عـــن مـقـامكم بِـمَـعْزِلْ [٢]

وتَصَدَّى المعري لآراء المعتزلة وكشف خطأها للناس وحذرهم من هذا المذهب ، يقول المعري :

لا تَـعِـشْ مُجْبِرًا ولا قَـدَرِيًّا واجـتـهدْ في تَـوَسُّطٍ بَيْنَ بَيْنَا [٣]

فقد نهى عن مذهب الجبرية ، ونهى عن مذهب القدرية ، وطلب التوسط في مسألة القدر .

-الزهد :

تَمَيَّزَ أبو العلاء المعري بنظرة خَاصَّة تجاه الكون والحياة ، وقد جَسَّدَ ذلك خير تجسيد من خلال مذهبه في الزهد ودعوته الناس إليه ، ومن خلال سيرة حياته وزهده الفعلي في متاع الدنيا وملذاتها ، يقول المعري :

دنياكَ مثلُ سرابٍ إن ظَنَنْتَ بها ماءً فَخَدْعٌ وإن عَضْبًا فتهويلُ
والجسمُ للروحِ دارٌ طالما لَقِيَتْ هَدْمًا وحُقّ لِرَبِّ الدارِ تحويلُ [٤]

فقد قَلَّلَ من شأن الدنيا ومتاعها ، ودعا إلى احتقارها والزهد فيها .

وقد أَوْضَحَ أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) جانبًا من مذهبه في الزهد ، يقول المعري :

---

(١) المصدر نفسه ، ص (٢٣٣) .
(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٠٨) .
(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٩٧) .
(٤) المصدر نفسه ، ص (١٥٢) .

وإذ غلا البُرُّ النَّقِيُّ فـشـارك الـ ـفـرسَ الـكـريم وساو طِرْفَك تَمْجُـدِ
واجعلْ لنفسك من سليط ضيائـها أُدْمـا ونـزْرَ حـلاوةٍ مـن عُـنْـجُـدِ
وارْسُـمْ بِـفَـخَّـارٍ شرابـك لا تُرِدْ قَـدَحَ اللُّـجَيْنِ ولا إنـاءَ الـعَسْجَدِ
يكـفـيك صَيْفَكَ من ثيابكَ ساترٌ وإذا شَـتَـوْتَ فقطعة من بُرْجُدِ [١]

فالمعري يحضّ على الزهد والتقشف ، ومشاركة الفرس الشعير إذا غلا البر ، والتحلية بالزبيب ، والائتدام بالزيت ، والشرب في الفخار ، والاكتفاء بالساتر من الثياب ، فكان مقتنعًا بهذه الأفكار ، ولذلك عمل بها في حياته ، واستمر ذلك فترة العزلة التي عاشها وهي تقارب نصف قرن من الزمان .

اِتَّجَهَ المعري بزهده إلى الخاصَّة المثقَّفَةَ التي تريد أن تُفَكِّرَ وتتعمق في التفكير وتدور معه في فلكه الشعوري ، وإلى جانب الناحية الفكرية كان حافلاً بالوعظ والقيم التي تَصْدُرُ عن الدين ، يقول المعري :

لا تَـأْسَـفَـنَّ لِفَـائِتٍ مـا واحـدٌ يُقْضَى لـه فـي نَـفْـسِـهِ إيـثـارُ
وَيَـوَدُّ أن لا تَـنْـقَـضِـي آثَـارُهُ وَلَـتُـدْرَسَـنَّ كَشَخْصِهِ الآثـارُ [٢]

فالْمُتَلَمِّسُ لزهد المعري يَرَى أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال الزهاد في عصره وقبل عصره كان لها أثر في ذلك الزهد الذي عرف المعري ، وكان زهده حقيقة واقعة واتجاها يعكس رؤية واضحة للحياة عرف بها ، وبقيت سِمَةَ من سِمَاتِ فكره وأدبه .

---

(١) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢١٣) .

(٢) المصدر نفسه ، ص (٢٥٠) .

-مناجاة الحيوان :

ذهب أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) إلى مناجاة الحيوان ، " وقد اِبْتَدَعَ في شعره مناجاة الحيوان " [١] ، فحاور الديك والذئب والشاة وحذر الثعلب وانتقد الحمامة ، وكانت قصائده في تلك المناجاة أكثر رقة وأسهل تعبيرًا ، يقول المعري محاورًا الديك :

أيـا ديكُ عُـدَّتْ من أياديكَ صيحةٌ بعثت بهـا مَيْتَ الكرى وهـو نائمُ [٢]

نظر المعري في موقف الإنسان تجاه سائر أنواع الحيوان فحكم على الإنسان بأنه معتد أثيم لا يشبعه الكثير مهما كثر ولا يقف في وجه مطامعه واقف مهما قوي ، يعتدي على الحيوان دره وبيضه وسائر نتاجه ، وأعلن أن عمل الإنسان هذا مشين ، بل وأعلن أكثر من هذا فَحَرَّضَ الغراب على مقابلة الاعتداء بالاعتداء قائلا :

جُـرْ يـا غرابُ وأفسد لن ترى أحدًا إلا مُـسِيـئـا وَأَيُّ الـخلق لـم يَـجُـرِ

فخذ من الزرع ما يكفيك عن عُرُضٍ وَحَاوِلِ الرزق في العالي من الشَّجَرِ [٣]

-الحكمة :

عُنِيَ أبو العلاء المعري بالحكمة ، وأَمَدَّ الناس بما يصقل خبرتهم ، ويُنَمِّي فهمهم للحياة والقدرة في الحكم على الأشياء ، فبلغ بها الغاية وصاغ للناس حكمه يحفظونها ويستشهدون بها ، " وهو أحكم الشعراء بعد المتنبي " [٤] ، ويختلف عن المتنبي أن حكم المتنبي ناشئة عن نفس رجل خاض غمرات الحياة سعيًا وراءها ، أما المعري فحكمته ناشئة عن نفس حكيم مفكر عرف الحياة فزهدها ، يقول المعري :

---

(١) الزيات ، أحمد بن حسن : تاريخ الأدب العربي ، ص (٣٥٠) .

(٢) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (٢١٧) .

(٣) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (٢٩٦) .

(٤) الهاشمي ، السيد أحمد : جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، (د.ط) ، دار الفكر ، لبنان ، ١٤٢٤هـ ، ص (٣٢٩) .

يَـدُلُّ على فضـل الـممات وكَـوْنِهِ إراحـةَ جـسـمٍ أنَّ مَـسْلَـكَهُ صعبُ

ألم تَـرَ أنَّ الـمجدَ تلقـاك دونه شـدائدُ من أمثالها وَجَبَ الرّعبُ [١]

يَرَى المعري أن الحياة عناء للأجسام والموت مُرِيحٌ من احتمال الأثقال والنهوض بالأعباء ، ويُصَوِّرُ افتراق هذه الأجسام على أنه خير تصدر عنه الراحة والهدوء ، فهو يزهد في الحياة ويرغب في الموت ، ويجعل الموت الذي يرغب فيه الحكيم صعب المرام كالمجد الذي يرغب فيه الطموح كلاهما لا يبلغ إلا بعد الجهد ولا يبلغ إلا بعد تكلف المشقات .

والحكم في ديوان (لزوم ما لا يلزم) كثيرة ، وهي منثورة في أغلب لزومياته ، فالحكمة حاضرة أينما أَجَلْنَا النظر ، تدور حول كرهه للناس وسوء الظن بهم ، وحول ما انتهى إليه من آراء في الحياة والموت من خلال تجربته التي عاشها وأيضا من خلال ثقافته الفلسفية ، يقول المعري :

وأسبابُ الْـمُـنَى أسبـابُ شِـعْـرٍ كُـفِـفْـنَ بـعـلـم ربـك أو قُبِضْنَهْ [٢]

شَبَّه المعري أسباب الْمُنَى بأسباب الشعر ، وهو يشبه المنى من اليأس والقنوط بما يعرض لأسباب الشعر من الكف و القبض ، ولكن الشاعر هو الذي يَكُفُّ أسبابه ويقبضها ، فأما أسباب المنى فليس الناس هم الذين يكفونها أو يقبضونها ؛ لأنهم ليسوا هم الذين ينظمون قصيدة الحياة ، وإنما تُكَفُّ أسباب المنى وتقبض بعلم الله عز وجل .

وهناك حكم خرجت بعضها مخرج المثل ، فَيَصُوغُ حكمًا جرت مجرى الأمثال ، يقول المعري :

والـنَّاسُ بالـنَّاسِ مـن حَضْرٍ وباديةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لـم يَشْعُرُوا خَدَمُ [٣]

---

(١) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (٥١) .

(٢) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (٢٨٩) .

(٣) المصدر نفسه ، ص (٢٢٤) .

حكم ناشئة عن نفس حكيم مفكر صاغها للناس فحفظوها وأخذوا يستشهدون بها وينشدونها . ويمكن لنا أن نعد الحكمة أسلوبًا من التعبير في الكلام نهض به المعري نهضة كبيرة ، إذ طبع شعره بطابع مُمَيَّز خاص ، فهو لم يُحْيِ سنة فحسب وإنما تَوَغَّلَ في الاتجاه بشكل برهن فيه عن أصالة بالغة الأثر . فإذا علمنا أن حكمه لم تكن ترجمة عن حكم قديمة ولم تكن مع تجديد روحها مخالفة في اتجاهاتها لتعليم الإسلام ولا لوجهة الأخلاق العربية انكشف لنا سِرُّ عبقرية المعري ، فإذا هذا السِّرُّ يَتَمَثَّلُ في كون المعري قَدَّم لنا عطاءً قديمًا جديدًا .

ظَلَّ شعاع أبي العلاء المعري وهَّاجًا مُتَمَيِّزًا بما أَدْخَلَهُ من أنماط التجديد والتلوين والتصرف ، واستطاع ببراعته الفنية وقدرته الإبداعية إعادة تشكيل شعره وإضْفَاء شيء من الطرافة والتجديد عليه حسب صنعته الفنية ، وكانت حركات التطوير هذه بدافع الرغبة إلى الجديد وليست تَخَلُّصًا من عمود الشعر وصرامته وإلا ما ذهب المعري إلى الزيادة في القيود ، فأضاف إلى المواد والعناصر التي رسخت في ذهنه من شعر سابقيه عناصر جديدة أبدعها خَلْقًا آخر في كثير من الأحيان ، فتنوعت عناصر التجديد بتنوع ثقافته وإدراكه وتجاربه ، وكانت تتألف في ذهنه وخياله من كل ما وقع عليه عقله وفكره وما يرتبط من مشاعر ومواقف وجدانية بعيدة الغور ، واستطاع المعري بما ملك من إبداع أن يَمْزُجَ بينها في بِنَاءٍ فَنِّيٍّ مُتَّحِدِ الأجزاء مُنْسَجِمِ الأطراف وهذا هو عنوان أصالته وشخصيته المبدعة .

الخاتمة

وختاما فهذه محاولة متواضعة نرجو أن نكون قد قَدَّمْنَا فيها صورة ولو باهتة عن تراث أجدادنا في أزهى العصور الإسلامية ثقافةً وأرقاها أدبًا وأكثرها إنتاجا للشعر الذي تَكَلَّلَ بالنضوج على أيدي شعراء عرفوا الوسيلة وحذقوا الطريقة . ومازلنا حتى يومنا عاجزين عن سَبْرِ أغوار كل ما خَلَّفَهُ الشعراء لنا وما قدموه في عصرهم لأمتنا . إن شعر المعري رغم كل ما حَظِيَ به من اهتمام الْمُحْدَثِينَ ما زال بحاجة إلى تحقيق عملي دقيق ، كما أَنَّهُ بحاجة إلى دراسات كثيرة ومتجددة في مختلف النواحي الفنية للكشف عن جوانب متنوعة من الإبداع الفني . وقد قمنا في هذه الدراسة بما نستطيع القيام به من جهد ولم نبخل بذكر كل ما لمحنا في شعر أبي العلاء المعري من ظواهر شكليّة ومضمونيّة ، ووقفنا عند جزئياته ودقائقه التي رأينا فيها نَفْعًا لهذا البحث وخدمة لخطته .

وبعد هذه الجولة التي أبانت غنى هذا الموضوع وثراءه نقف في نهايتها لنرصد أهم النتائج التالية :

-حُجِبَ أبو العلاء المعري عن أبناء العربية في عصور رأت فيه خطرًا على وجدان المجتمع بسلوكه الشريف وأدبه الحر ، ومع انحسار ظلمات الطغيان والطَّبَقِيَّةِ بدأ نور الوعي يكشف عن بصيرتنا الغطاء ، واسْتَرَدَّ المعري مكانته فينا ، فالأديب المناضل رفض الحياة في عصره احتجاجًا على فسادها واعتزلها انكارًا لاختلال أوضاعها وتصدى مع ذلك لقضايا مجتمعه ، والضرير البصير حجبه العمى عن الدنيا وعزلته عن الناس ، لكن هذه الحواجز لم تعزل وجدانه ولم تسدل الغطاء على بصيرته ، بل لعلها رَدَّتْهَا أرهف ما يكون حِسًّا وأَصْفَى رؤية فكان من أعرف الناس بالناس ، واستطاع أن يجد نفسه والظلمة من حوله كثيفة داجية ، والذي استطاع أن يُعَلِّمَنَا رسالة الأديب وأمانة الفن وشرف الكلمة .

-عند النظر إلى التاريخ الأدبي فإننا نجد أن العرب لم يكونوا يعتنون بعنونة الأثر ، ولم تبرز عنونة الأثر الشعري إلا على يد أبي العلاء المعري ، وهو بهذا رائد في مجال عنونة الأثر الشعري .

-أبان البحث أن أبا العلاء المعري اشتهر شاعرًا تسمعه فتطرب لعبارته وذلك في شعره في (سقط الزند) وهو إن كان يجري على ما جرى عليه المتقدمون في بناء القصيدة وفي معانيه فإنه يوحي إليك أنه شاعر اكتملت فيه صفة الشاعرية صِدْقًا في العاطفة تقرره حرارة الشباب فتمنحه الأصالة ، ثم يأتيك المعري حكيمًا في شعره بما كان له من نظر في الناس ، وما كان يراه في الوجود ، وما توحيه إليه نظراته إلى الدنيا والآخرة فتجد فيه الفكر المتفلسف الحكيم وهو ذاك في (اللزوميات) .

-تَبَيَّنَ من خلال البحث ظَنُّ كثيرٍ من الدارسين أن ديوان (سقط الزند) يغلب عليه التقليد بخلاف ديوان (لزوم ما لا يلزم) وأنه لا يختلف كثيرًا عن شعر غيره من الشعراء ، ولا ننكر أن هناك اختلافًا واضحًا بين الديوانين من حيث المضمون والأسلوب ، كما لا ننكر أن للتقليد أثرا ظاهرا في (سقط الزند) ، ولكن رغم انشغال المعري فيه بالسير على نهج من سبقوه في المعاني والأفكار والأساليب لم يُغْفِل التعبير عن نفسه ، ولا عن النفس الإنسانية بوجه عام ، واستطاع حتى في أكثر قصائده إغراقًا في التقليد أن يُصَوِّرَ ولو جزئيا خلجات نفسية دقيقة ونظرات صادقة إلى أحوال الحياة والمجتمع .

-أبانت الدراسة أن لغة المعري قد اتخذت وجهتين : الأولى تقليدية صُبَّتْ في معين البداوة ، واستعارات المعجم اللغوي القديم ، وظَلَّ المعري محافظًا على ما يَتَفَوَّه به السلف في قصائدهم ، أما الثانية فهي الوجهة الإبداعية حيث التزم الاتجاه العربي الفصيح في أرقى صوره ، وأضاف عليه من موهبته وعبقريته ما جعل لغته مستقاة من الإبداع الفني .

-تبيَّن أن جهد المعري موجَّهٌ إلى إثراء الرصيد الدلالي في الكلام ، فمع حرصه على أن يكون كلامه في شعره محتفظًا بدلالاته الأولى ، فقد سعى إلى أن يقول الكلام أكثر مما هو قائل وإلى أن يشحن مظاهره بمزيد من الدلالة في كل خطوة ومستوى ، فكان أسلوبه في شعره متمثلا في فك الطلاسم التي في سحر اللغة ، ومتركزًا على استنطاق رموزها وتفجير طاقات الدلالة فيها إلى أقصى حَدٍّ حتى تتكشف لنا حقائق الأسلوب والشعر والتفنن في الكلام . فخرج يُمَثِّلُ عصارة مصفاة من التراث العربي الفني ومن المعارف الإنسانية .

-نقد المعري أسس الثقافة العربية نقدًا يصل إلى الدعوة إلى مراجعة العقل العربي ، وقَدَّمَ رُؤْيَةً جديدة ترتكز على العقلانية والتحليل المنطقي ، وتعود أَسْبَقِيَّةُ نقد العقل العربي لأبي العلاء المعري .

-اِتَّضَحَ من خلال البحث أن أبا العلاء المعري تَقَدُّمِيُّ الفكر بمعنى أنه لا يقيم وزنًا لما أتى عليه الزمن إلا بمقدار ما يُرْشِدُ في الحاضر ، وليس من شأن هذه النزعة التقدمية التي تَقْوَى كلما صحت النفس وصفا الذهن أن تُرْضِيَ الجامدين والمتزمتين والمتعصبين وهؤلاء هم الزُّمَرُ التي تقاوم التجدد والتجديد بنسبة ما تسيء الفَهْمَ عمدًا أغلب الأحيان .

وبعد ، فهذا الجهد هو أَقَلُّ ما يجب فعله تجاه أدبنا العربي ولغتنا السامية ، نرجو أن نكون قد وفقنا في تقديم ما يفيد المكتبة العربية حين اخترنا دراسة التقليد والتجديد في شعر أبي العلاء المعري دراسة وصفية تحليلية ، ولا نزعم أَنَّنَا أحطنا به من جميع جوانبه ، ولكن نرجو أن نكون قد قاربنا بما أسعفنا به جُهْدُنَا ، وختامًا أحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات حمدًا يوافي نعمه ، ويدافع نقمه ، وأشكره على أن سدد وأعان حتى تم هذا البحث .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس المصادر والمراجع

-القرآن الكريم [١] .

أولا : المصادر :

-المعري ، أحمد بن عبدالله : رسائل أبي العلاء ، تحقيق عبدالكريم خليفة ، (د.ط) ، منشورات اللجنة الأردنية ، الأردن ، ١٩٧٦م .

- المعري ، أحمد بن عبدالله : رسالة الصاهل والشاحج ، تحقيق عائشة عبد الرحمن ، (د.ط) ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

-المعري ، أحمد بن عبدالله : رسالة الغفران ، تحقيق محمد الإسكندري وإنعام فوال ، (د.ط) ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٤٢٩هـ .

-المعري ، أحمد بن عبدالله : زجر النابح ((مقتطفات)) ، تحقيق أمجد الطرابلسي ، (د.ط) ، المطبعة الهاشمية ، سوريا ، ١٣٨٥هـ .

-المعري ، أحمد بن عبدالله : سقط الزند ، ط١ ، المكتبة العصرية ، لبنان ، ١٤٢٨هـ .

-المعري ، أحمد بن عبدالله : عبث الوليد شرح ديوان البحتري ، ط٣ ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤٠٥هـ .

-المعري ، أحمد بن عبدالله : الفصول والغايات ، ضبطه وفسر غريبه محمود زناتي ، (د.ط) ، المكتب التجاري ، لبنان ، (د.ت) .

-المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، ط١ ، دار صادر ، لبنان ، ١٤٢٧هـ .

---

(١) قدمت القرآن الكريم لفضله على سائر الكتب .

ثانيا : المراجع العربية :

-ابن الأثير ، علي بن محمد : الكامل في التاريخ ، ط٦ ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٤١٦هـ .

-ابن الأثير ، نصر الله بن محمد : المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر ، حققه كامل محمد ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١٩هـ .

-ابن أبي الأصبع ، عبدالعظيم بن عبدالواحد : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر والبيان وإعجاز القرآن ، تحقيق حنفي محمد ، (د.ط) ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، مصر ، (د.ت) .

-امرؤ القيس ، حندج بن حجر : ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

-ابن الأنباري ، عبدالرحمن بن محمد : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، ط٣ ، مكتبة المنار ، الأردن ، ١٤٠٥هـ .

-أنيس ، إبراهيم : موسيقى الشعر ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ١٩٥٢م .

-أنيس ، إبراهيم : الأصوات اللغوية ، (د.ط) ، نهضة مصر ، مصر ، (د.ت) .

-أنيس ، إبراهيم ؛ والصوالحي ، عطية ؛ ومنتصر ، عبدالحليم ؛ وخلف الله ، محمد : المعجم الوسيط ، ط٢ ، المكتبة الإسلامية ، تركيا ، ١٣٩٢هـ .

-البحتري ، الوليد بن عبيد : ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل ، ط٣ ، دار العارف ، مصر ، (د.ت) .

-بدر ، عبدالمحسن طه : التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث ، (د.ط) ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ١٩٩١م .

-بدوي ، عبده : دراسات في النص الشعري العصر العباسي ، ط٢ ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤٠٥هـ .

-بنت الشاطئ ، عائشة عبدالرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٣٩٢هـ .

-بو عافية ، حياة : الاغتراب في شعر أبي العلاء المعري (رسالة ماجستير) ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة ، الجزائر ، ٢٠٠٨م .

-بييرجيرو : الأسلوبية ، ترجمة منذر عياشي ، (د.ط) ، مركز النماء الحضاري ، سوريا ، (د.ت) .

-تيمور ، أحمد : أبو العلاء المعري نسبه وأخبار شعره معتقده ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ١٩٧٠م .

-الثعالبي ، عبدالملك بن محمد : تتمة يتيمة الدهر ، شرح وتحقيق محمد قميحة ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٠٣هـ .

-الجابري ، محمد عابد : نقد العقل العربي ... تكوين العقل العربي ، ط١٠ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، لبنان ، ٢٠٠٩م .

-الجاحظ ، عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٧ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٨هـ .

-الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه محمود محمد ، ط١ ، دار المدني ، جدة ، ١٤١٢هـ .

-الجندي ، محمد بن سليم : الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره ، (د.ط) ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣٨٢هـ .

-الجوهري ، إسماعيل بن حماد : الصحاح ، تحقيق أحمد عبدالغفور ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، لبنان ، (د.ت) .

-ابن حجة الحموي ، علي بن عبدالله : خزانة الأدب وغاية الأرب ، ط١ ، منشورات دار مكتبة الهلال ، لبنان ، ١٩٨٧م .

-الحموي ، ياقوت بن عبدالله : معجم البلدان ، تحقيق فريد الجندي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١٠هـ .

-ابن حجر ، أحمد بن علي : لسان الميزان ، تحقيق مكتب التحقيق بإشراف عبدالرحمن المرعشلي ، (د.ط) ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، لبنان ، ١٤١٦هـ .

-حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، ١٩٨٣م .

-حسين ، طه : صوت أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، ١٩٨٣م .

-حسين ، طه : مع أبي العلاء في سجنه المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، ١٩٨٣م .

-حسين ، طه ؛ والسقا ، مصطفى ؛ وهارون ، عبدالسلام ؛ ومحمود ، عبدالرحيم ؛ والأبياري ، إبراهيم ؛ وعبد المجيد ، حامد : شروح سقط الزند ، ط٣ ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ١٤٠٦هـ .

-حسين ، طه ؛ والسقا ، مصطفى ؛ وهارون ، عبدالسلام ؛ ومحمود ، عبدالرحيم ؛ والأبياري ، إبراهيم ؛ وعبد المجيد ، حامد : تعريف القدماء بأبي العلاء ، ط٤ ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ .

-حكيم ، سعاد : أدباء وشعراء أبو العلاء المعري بين بحر الشعر ويابسة الناس ، ط١ ، دار الفكر اللبناني ، لبنان ، ٢٠٠٣م .

-خريباني ، جعفر : أبو العلاء المعري رهين المحبسين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١١هـ .

-الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي : تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها ، تحقيق بشار عواد ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ١٤٢٢هـ .

-الخطيب التبريزي : الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط١ ، دار القلم ، سوريا ، ١٤١٩هـ .

-الخطيب ، عبدالكريم : رهين المحبسين أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد ، ط١ ، دار اللواء ، الرياض ، ١٤٠٠هـ .

-خفاجي ، محمد عبدالمنعم : الآداب العربية في العصر العباسي الثاني ، (د.ط) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر ، (د.ت) .

-ابن خلكان ، أحمد بن محمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط١ ، إحياء التراث ، لبنان ، ١٤١٧هـ .

-خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، (د.ط) ، مكتبة غريب ، القاهرة ، (د.ت) .

-خليل شرف الدين : في سبيل موسوعة فلسفية أبو العلاء المعري مبصر بين عميان ، (د.ط) ، دار مكتبة الهلال ، لبنان ، ١٩٨٣م .

-الذهبي ، محمد بن أحمد : سير أعلام النبلاء ، حققه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، سوريا ، ١٤٠٥هـ .

-الذهبي ، محمد بن أحمد : تاريخ وفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق بشار عواد ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ١٤٢٤هـ .

-الراجكوتي ، عبدالعزيز الميمني : أبو العلاء وما إليه ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٢٤هـ .

-الرافعي ، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب ، ط١ ، دار الكتب العربي ، لبنان ، ١٣٩٤هـ .

-ابن رشيق ، الحسن بن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، ط١ ، دار المعرفة ، لبنان ، ١٤٠٨هـ .

-رضا ، أحمد : معجم متن اللغة ، (د.ط) ، دار مكتبة الحياة ، لبنان ، ١٣٨٠هـ .

-الزركلي ، خير الدين بن محمود : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، ط٧ ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ١٩٨٦م .

-زنجير ، محمد رفعت : فن التشبيه في الشعر العباسي ، ط١ ، دار الأمان ودار اقرأ ، الإمارات وسوريا ، ١٤٢٣هـ .

-الزيات ، أحمد بن حسن : تاريخ الأدب العربي ، ط٢٨ ، دار الثقافة ، لبنان ، (د.ت) .

-زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، ط١ ، دار نوبليس ، لبنان ، ٢٠٠٣م .

-زيدان ، عبدالقادر : قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري ، ط١ ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ٢٠٠٦م .

-سبيتي ، مصطفى : شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٠٦هـ .

-ابن سلام الجمحي ، محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه محمود شاكر ، (د.ط) ، مطبعة المدني ، القاهرة ، (د.ت) .

-السمعاني ، عبدالكريم بن محمد : الأنساب ، وضع حواشيه محمد عبدالقادر عطا ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤١٩هـ .

-ابن سنان الخفاجي ، عبدالله بن محمد : سر الفصاحة ، (د.ط) ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ .

-الشامي ، يحيى : أبو العلاء المعري من((سقط الزند)) إلى ((اللزوميات)) ، ط١ ، دار الفكر العربي ، لبنان ، ٢٠٠٢م .

-شرارة ، عبداللطيف : أبو العلاء المعري دراسة ومختارات ، ط١ ، الشركة العالمية للكتاب ، لبنان ، ١٩٩٠م .

-صادق ، حامد ؛ وأبو زيد ، سامي : محاضرات في الأدب العباسي (الشعر) ، (د.ط) ، دار ابن الجوزي ، الأردن ، ١٤٢٦هـ .

-صافي ، لؤي : إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية ، ط١ ، دار الفكر ودار الفكر المعاصر ، سوريا ولبنان ، ١٤١٩هـ .

-الصفدي ، خليل بن ايبك : الوافي بالوفيات ، ط٣ ، دار صادر ، لبنان ، ١٤١١هـ .

-ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ط١٦ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

-ضيف ، شوقي : العصر العباسي الثاني ، ط١١ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

-ضيف ، شوقي : فصول في الشعر ونقده ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

-ضيف ، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر ، ط٩ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م .

-ضيف ، شوقي : في التراث والشعر واللغة ، (د.ط) ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .

-طاهر ، محمد : مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها ، ط١ ، دار الفكر ، سوريا ، ١٤٠٧هـ .

-ابن طباطبا ، محمد بن أحمد : عيار الشعر ، تحقيق محمد زغلول ، (د.ط) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٠م .

-الطرابلسي ، محمد الهادي : خصائص الأسلوب في الشوقيات ، (د.ط) ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، ١٩٨١م .

-الطيب ، عبدالله : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ط٣ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٤٠٩ هـ .

-عباس ، إحسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ط١،دار الشروق ، الأردن ، ٢٠٠٦م .

-عبد العظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ط١ ، دار الفارابي ، لبنان ، ٢٠٠٨م .

-عبد المعطي ، محمود علي : تجليات الإبداع الأدبي دراسات في العصر العباسي الثاني ، ط١ ، دار النشر الدولي ، الرياض ، ١٤٢٨هـ .

-عبود ، مارون : أبو العلاء المعري زوبعة الدهور ، ط٤ ، دار الثقافة ودار مارون عبود ، لبنان ، ١٩٨٠م .

-أبو العتاهية ، إسماعيل بن القاسم : ديوان أبي العتاهية ، (د.ط) ، دار بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ .

-عطية ، شاهين : شرح ديوان أبي تمام ، (د.ط) ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، (د.ت) .

-العقاد ، عباس محمود : رجعة أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ، ١٩٨٠م .

-العلوي ، هادي : المنتخب من اللزوميات نقد الدولة والدين والناس ، ط١ ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، دمشق ، ١٩٩٠م .

-الفاخوري ، حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) ، (د.ط) ، دار الجيل ، لبنان ، (د.ت) .

-الفجاري ، مختار : خطاب العقل عند العرب (كشف عن النص الغائب من ابن المقفع إلى الجاحظ) ، ط١ ، المطبعة العصرية ، تونس ، ١٩٩٣م .

-الفجاري ، مختار : نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون ، ط١ ، دار الطليعة ، لبنان ، ٢٠٠٥م .

-فخر الدين ، جودت : شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري ، (د.ط) ، منشورات دار الآداب ، لبنان ، ١٩٨٤م .

-فضل ، صلاح : علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، ط١ ، دار الشروق ، مصر ، ١٤١٩هـ .

-الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٢٠هـ .

-قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ .

-القزويني ، محمد بن عبدالرحمن : شرح التلخيص في علوم البلاغة ، ط٢ ، دار الجيل ، لبنان ، ١٤٠٢هـ .

-القفطي ، علي بن يوسف : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار الفكر العربي ومؤسسة الكتاب ، القاهرة وبيروت ، ١٤٠٦هـ .

-قمير ، يوحنا : فلاسفة العرب أبو العلاء المعري ، ط٣ ، دار المشرق ، لبنان ، ١٩٩٥م .

-ابن كثير ، إسماعيل بن عمر : البداية والنهاية ، ط٢ ، دار الفكر ، لبنان ، ١٤١٨هـ .

-كنجيان ، علي : مصادر ثقافة أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم ما لا يلزم ، ط١ ، الدار الثقافية للنشر ، مصر ، ١٤٢٢هـ .

-المحاسني ، زكي : أبو العلاء ناقد المجتمع ، (د.ط) ، دار المعارف ، لبنان ، ١٩٦٣م .

-المسدي ، عبدالسلام : الأسلوبية والأسلوب ، ط٣ ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، (د.ت) .

-مسلم ، مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، ط١ ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤١٧هـ .

-ابن المعتز ، عبدالله بن المعتز : البديع ، شرح وتحقيق محمد عبدالمنعم ، ط١ ، دار الجيل ، لبنان ، ١٤١٠هـ .

-المقدسي ، أنيس : أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، ط١٧ ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ١٩٨٩م .

-مندور ، محمد : النقد المنهجي عند العرب ، (د.ط) ، نهضة مصر ، مصر ، ١٩٩٤م .

-ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، ط٢ ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، لبنان ، ١٤١٨هـ .

-الميداني ، أحمد بن محمد : مجمع الأمثال ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٢٥هـ .

-نبيه ، محمد : بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ط٢ ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة ، ١٤٠٦هـ .

-نصار ، حسين ؛ وحامد ، سيدة ؛ والقوصي ، زينب ؛ والمدني ، منير ؛ والأعصر ، وفاء : شرح اللزوميات ، (د.ط) ، الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، (د.ت) .

-المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري : يشتمل على وصف المهرجان الذي أقامه المجمع العلمي العربي لذكرى مرور ألف سنة على مولد أبي العلاء وما قيل فيه من القصائد والخطب ، ط٢ ، دار صادر ، لبنان ، ١٤١٤هـ .

-النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية : ديوان النابغة الذبياني ، ط١، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ١٤١١هـ .

-الهاشمي ، السيد أحمد : جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، (د.ط) ، دار الفكر ، لبنان ، ١٤٢٤هـ .

-الهاشمي ، السيد أحمد : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، (د.ط) المكتبة العصرية ، لبنان ، ١٤٢٨هـ .

-أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق مفيد قميحة ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ١٤٠٩هـ .

ثالثا : المراجع الإلكترونية :

-البشر ، سراته : تجليات الواقع في القصيدة الجاهلية البناء الشعري نموذجا ، ٢٠٠٩م ، من الموقع الإلكتروني http://www.diwanalarab.com

-حميد ، ماجد : البناء الموضوعي في رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري دراسة وتحليل ، من الموقع الإلكتروني http://fah.kufauniv.com

-الدردوري ، ليلى : فيلسوف الشعراء وشيخ المعرة أبو العلاء المعري ، ٢٠١٢م ، من الموقع الإلكتروني http://www.m3araj.com

-الديوب ، سمر : جماليات النسق الضدي في شعر أبي العلاء المعري أنموذجا ، مجلة اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، العدد العاشر بعد المئة ، السنة الثامنة والعشرون ، ١٤٢٩هـ ، من الموقع الإلكتروني http://www.awu-dam.org

-السامرائي ، إبراهيم : مع اللزوميات ، من الموقع الإلكتروني

http://www.majma.org

-الشمري ، عبد الرزاق : أبو العلاء المعري ساخرًا ، من الموقع الإلكتروني

http://www.iraqimunteda.com

-أبو الفضل ، محمد : الشك عند أبي العلاء المعري ، من الموقع الإلكتروني

http://www.ibn-rushd.org

-مشارة ، إبراهيم : أبو العلاء المعري فلكيًّا ، ٢٠١٠م ، من الموقع الإلكتروني

http://www.siriusalgeria.ahlamontada.net

-معروف ، فوزي : إطلالة على السخرية عند أبي العلاء المعري ، مجلة اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، العددان التاسع والتسعون والمئة ، السنة الخامسة والعشرون ، ٢٠٠٥م ، من الموقع الإلكتروني http://www.awu-dam.org

-وقاد ، مسعود : الموقف والتشكيل في الشعر الإحيائي (بين المعري وحافظ إبراهيم) ، من الموقع الإلكتروني http://www.alfusha.net

-ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، أبو العلاء العري ، من الموقع الإلكتروني

http://www.ar.wikipedia.org

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
صفحة العنوان	أ
البسملة	ب
قرار توصية اللجنة	ت
الإهداء	ث
شكر وتقدير	ج
المستخلص باللغة العربية	ح
المستخلص باللغة الإنجليزية	د
ملخص البحث	ر
المقدمة	١
أولا : مشكلة البحث	٣
ثانيا : أهداف البحث	٤
ثالثا : أهمية الموضوع	٥
أ-أهمية أبي العلاء المعري في تاريخ الشعر العربي	٥
ب-أهمية دراستنا له	٧
رابعا : الدراسات السابقة	٧
خامسا : منهج البحث	٩
أ-العمل الوصفي	٩
ب-العمل التحليلي	٩
سادسا : مصادر البحث	١٠
سابعا : أقسام البحث	١٠
الفصل الأول : المعري شاعرا	١٤

المبحث الأول : حياته وآثاره	١٤
١-حياته	١٤
٢-آثاره	٢٤
المبحث الثاني : منزلته الشعرية	٣٢
الفصل الثاني : مظاهر التقليد في شعر المعري	٤٦
المبحث الأول : التقليد في سقط الزند	٤٦
١-معنى التقليد	٤٦
٢-تأثر سقط الزند بالمدرسة الجاهلية	٤٧
أ-التقليد في الشكل	٤٧
١-الهيكل العام للقصيدة	٤٧
٢-المادة اللغوية (الشكل اللغوي)	٥٣
٣-التقليد في الأسلوب والصورة الشعرية	٥٧
٤-التقليد في الموسيقى الشعرية	٦٠
ب-التقليد في الأغراض والمعاني الجزئية	٦٤
١-الأغراض	٦٥
-المدح	٦٥
-الرثاء	٦٦
-الفخر	٦٨
-الغزل	٦٨
٢-المعاني الجزئية	٧٠
-الوصف	٧٠
٣-سقط الزند امتداد لمدرسة أبي تمام	٧٣
أ-خصائص مدرسة أبي تمام	٧٣
-مؤسس المدرسة	٧٣

-البحتري سائرا على مدرسة أبي تمام	٨١
-المتنبي مطورا لمدرسة أبي تمام	٨٣
ب-مظاهر تأثر سقط الزند بمدرسة أبي تمام	٨٦
المبحث الثاني : التقليد في اللزوميات	٩٧
١-مفهوم اللزوم	٩٧
٢-السياق اللزومي	٩٨
٣-مظاهر التقليد	١٠٠
أ-الهيكل العام للقصيدة	١٠٠
ب-المادة اللغوية	١٠١
جـ-التقليد في الأسلوب والصورة الشعرية	١٠٤
د-التقليد في الموسيقى الشعرية	١١٣
الفصل الثالث : مظاهر التجديد في شعر المعري	١١٨
المبحث الأول : التجديد في سقط الزند	١١٨
١-معنى التجديد	١١٨
٢-التجديد في الشكل	١١٩
أ-التجديد في بناء القصيدة	١١٩
ب-التجديد في المادة اللغوية	١٢٢
جـ-التجديد في الأسلوب والصورة الشعرية	١٢٥
د-التجديد في الموسيقى الشعرية	١٣٢
٣-التجديد في المضامين الشعرية	١٣٦
أ-المضمون	١٣٦
ب-الأغراض والمعاني الجزئية	١٣٦
-المدح	١٣٧
-الرثاء	١٣٩

-الفخر	١٤٠
-الغزل	١٤١
-الوصف	١٤١
جـ-المعاني الجزئية	١٤٣
-شعر التهنئة	١٤٣
-شعر الاعتذار	١٤٣
-شعر العتاب	١٤٤
-شعر الشكوى	١٤٤
-شعر الحنين إلى الوطن	١٤٥
المبحث الثاني : التجديد في اللزوميات	١٤٧
١-اللزوم العلائي	١٤٧
٢-مفتاح التجديد	١٤٨
٣-التجديد في الشكل	١٥٤
أ-التجديد في بناء القصيدة	١٥٤
ب-التجديد في المادة اللغوية	١٥٦
جـ-التجديد في الأسلوب والصورة الشعرية	١٦٦
د-التجديد في الموسيقى الشعرية	١٦٩
٤-التجديد في المضامين الشعرية	١٧٥
أ-المضمون	١٧٥
ب-الأغراض والموضوعات	١٧٥
-الشعر الفلسفي	١٧٦
-النقد	١٧٩
أ-نقد طبقات المجتمع وطوائفه	١٧٩
ب-نقد العقل العربي	١٨٣
١-نقد الآلية التي يفكر بها العقل العربي	١٨٤

٢-نقد آلية الشعر الوجدانية	١٨٨
٣-نقد الآلية المدحية التملقية	١٨٩
٤-نقد آلية القياس الفقهية	١٨٩
-السخرية	١٩٠
-الدين الإسلامي والشرائع والفرق والمذاهب	١٩٤
-الزهد	١٩٦
-مناجاة الحيوان	١٩٨
-الحكمة	١٩٨
الخاتمة	٢٠١
الفهارس العامة	٢٠٤
فهرس الآيات القرآنية	٢٠٤
فهرس الأشعار	٢٠٥
فهرس المصادر والمراجع	٢١٩
فهرس الموضوعات	٢٣٢